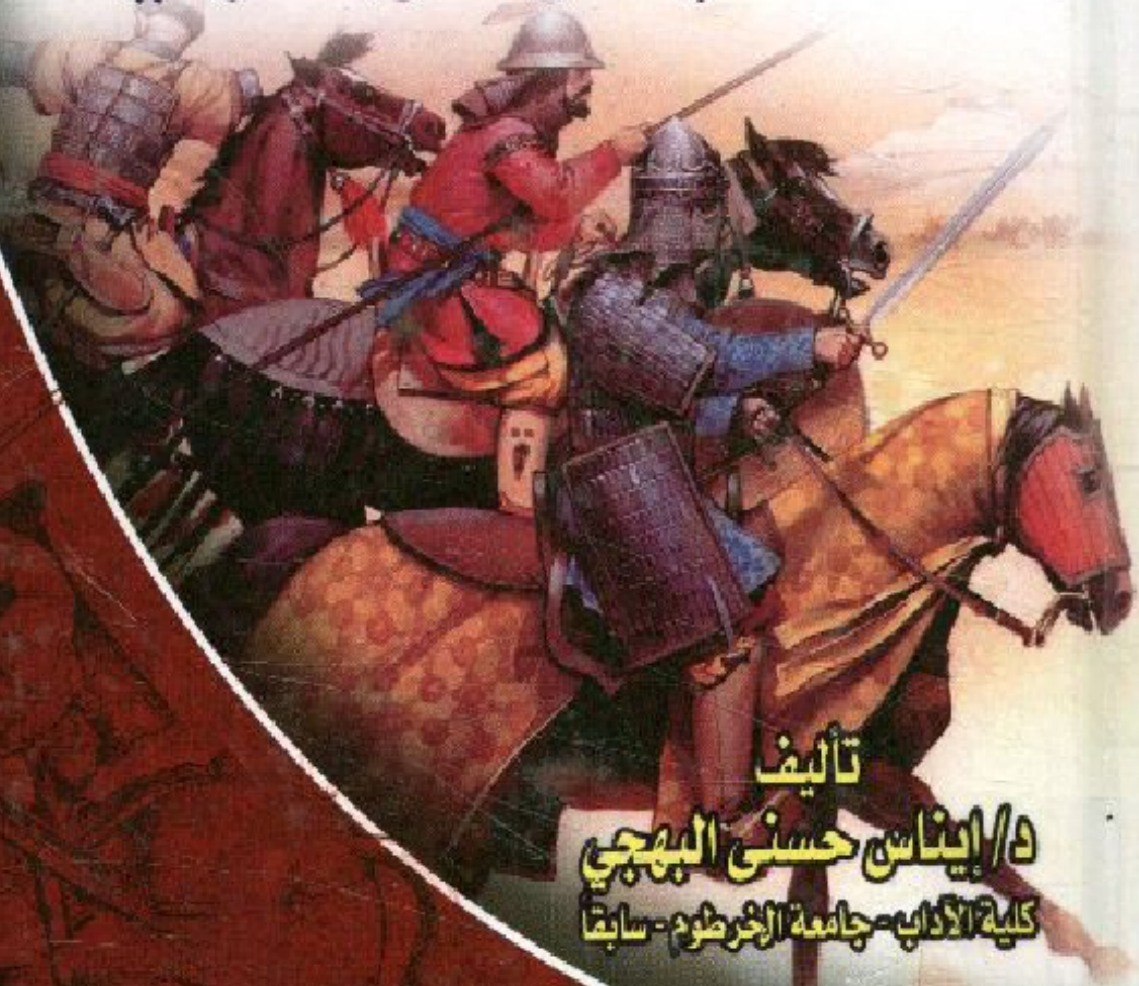


دولة المماليك

البداية والنهاية



تأليف

د/ إيتاس حسن البهجي

كلية الآداب - جامعة الخرطوم - سابقاً



دار التعليم الجامعي

إس. قاسم عبد العال - فرع الخرطوم - طريق الاستقلال - ج. خ. ٢٤
تليفون: ٥٥٦٦٩٦٦ - فاكس: ٥٥٦٦٩٦٦
عنوان: ٥٥٦٦٩٦٦ - ج. خ. ٢٤
E-mail: daralimggye@yaho.com

رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

دولة الممالك البدائية والنهاية

تأليف

أ. د. / إيناس حسني البهجي

كلية الآداب – جامعة الخرطوم - سابقا

٢٠١٥



دار التعليم الجامعي

٧١ ش. شادي عيد السلام - برج زهرة الأقوار - حيا ١١ - الإسكندرية - ج. م. ج.
تليفون: ٠١٠٠٦٣٩٩٦١ - ٠٢٠٠٦٣٩٩٦١ موبايل: ٠١١٦٤٤٩٥٠٠٩
Email: danalemc@yahoo.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أتمام النشر إعداد إدارة السنون الفنية



محمد ، ايئاس حسنى

دولة المماتك البدية والنهائة

ايئاس حسنى محمد - ط ١ - الامكندرية: دار تكطيم الجامى، ٢٠١٥

ص ١ سم.

كدمك ٢٤ ٠٠ ٧٣٣ ٩٧٧ ٩٧٨

١- دولة المماتك

١- العنوان

٩٥٣,٠٨٢

رقم الإبداع / ٩٢٧١

الإهداء

إلى من لا يحصى من الأصدقاء والرفاق

ع/إيناس

المقدمة

تعتبر فترة حكم المماليك من انفترات التاريخفة للمجهونة عند كثر من المسلمين، بل عند كثر من متقفي المسلمين، وهذا له أسباب كثرفة منها: أن الأمة الإسلامية في وقت ظهور دولة المماليك وما بعدها كانت قد تفرقت تفرقة كبرفاً، وكثرت فيها جداً الإمارات والدويلات، وبالتالي فدراسة هذه الفترة تحتاج إلى مجهود ضخم جداً، متابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية، فالمماليك في أعظم حكمهم لم يسيطروا إلا على خمسة أو ستة أقطار من الأقطار المعروفة في ذلك الوقت، وتزامن ظهورهم مع ظهور كثر من دويلة وإمارة في أكثر من سكان في العالم الإسلامي، فدراسة تاريخ المماليك لا بد أن بدر من تاريخ كل هذه المناطق. فلي تلك الحقبة من التاريخ موبياً، وهذا شيء صعب. أيضاً من العوائق والأسباب التي أدت إلى جهل المسلمين بفترة المماليك:

كثرة تولاة والسلاطين في دولة المماليك، فكما ظهر وان أو سنضان في فترة، وبدأت هذه الفترة تكهم، تغير السلطان وأتى آخر ثم ثالث..

وهكذا. هذه هي حال دولة المماليك الأولى؛ فدولة المماليك مرت بأكثر من مرحلة، ففي المرحلة الأولى كان اسمها دولة المماليك البحريةسة، وقد ظلت هذه المرحلة (144) سنة، تعاقب على الحكم فيها (29) سلطاناً، يعني: أن متوسط حكم السلطان لم يكن يتعدى الخمس السنوات فقط، وليس كل السلاطين كانت مدة حكمهم خمس سنوات؛ فهناك سلاطين حكموا سنين طويلة، ولكن هناك سلاطين آخرين حكموا سنة أو سنتين أو أقل من السنة، فكثرة السلاطين والتولاة أدت إلى عدم دراية ومعرفة كبيرة بتاريخ المماليك، فكان من الصعب دراسة تاريخ المماليك. وأهم الأسباب التي جعلت الكثير من المسلمين لا يدركون أو لا يفقهون تاريخ المماليك، هو: تزوير التاريخ الإسلامي، وهذا تروى كبره المستشرقون وأتباعهم من المسلمين المفسونين

بهم، فقد شوهورا تاريخ المماليك تشويهاً كبيراً؛ مع ما كان للمماليك من
الإنجازات المشرقة والهامة جداً في تاريخ الأرض، والتي أضافت الكثير
إلى أمة الإسلام، فمن أهم هذه الإنجازات:

أن دولة المماليك وقفت سداً منيعاً لصد قوتين عاتيتين من قوى
الشتر، حاولتا هدم صرح الإسلام، وهما:

انتشار، والصليبيون، فقد كان للمماليك جهاد مستمر طويل ضد
هاتين القوتين، وعلى مراحل مختلفة، وقد ظلت دولة المماليك تحمل راية
الإسلام في الأرض (270) سنة تماشياً، إلى أن تسلمت الخلافة العثمانية
القوية راية المسلمين. ومن أجل أن نفهم قصة المماليك سنرجع إلى الوراء
قليلاً إلى ما قبل قيام دولة المماليك، وإلى الدولة التي سبقت دولة المماليك،
وهي دولة الأيوبيين.

تفسير الكتاب

- 1- المقدمة
- 2- فصل تمهيدي
- القسم الأول المماليك البحرية
- 3- الباب الأول: بدايات المماليك وحكم مصر
- 4- الباب الثاني: الحياة العامة تحت حكم المماليك
- 5- القسم الثاني دولة المماليك الجركسية
- 6- خاتمة
- 7- المراجع

فصل تصحيح

صلاح سريرغ عن الحولج الأيوبية

أسس الدولة الأيوبية انبطل الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في سنة (569) من الهجرة، وهذه الأرقام في غاية الأهمية، فهي أرقام محورية في تاريخ المسلمين، وظل صلاح الدين الأيوبي يحكم هذه الدولة (20) سنة، حتى مات سنة (589هـ)، ووجد في هذه الفترة مصر والشام، وتزعج الجهاد ضد المماتك الصليبية باقتدار كبير جداً، وحققت انتصارات هائلة، ومن أشهر انتصاراته حطين، وكانت في ربيع الثاني سنة (583) هجرية، وهذا التاريخ من المفروض ألا يتساء أحد من المسلمين أبداً، ثم فتح بيت المقدس بعد حطين بثلاثة أشهر فقط، في رجب من نفس السنة. ترك صلاح الدين الأيوبي رحمه الله دولة قوية عظيمة، تبسط سيطرتها على مصر والشام والحجاز واليمن وأعالي العراق، وأجزاء من تركيا، وأجزاء من ليبيا والنوبة، وكون دولة في منتهى القوة، وحاصر الصليبيين في ساحل ضيق جداً على البحر الأبيض المتوسط في الشام، فصلاح الدين الأيوبي رحمه الله لم يستطع فتح كل الإمارات الصليبية الموجودة في الشام، ولكنه حرر جزءاً كبيراً جداً من الشام ومن فلسطين بقدرة يستطيع. ثم بوفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تقلص دور الجهاد جداً ضد الصليبيين. فقد فتن أبناء صلاح الدين الأيوبي بالدولة الكبيرة، فقد كثرت الأموال، وانفتحت الدنيا، وتوسعت البلاد، وكان من جراء هذه العوامل وغيرها أن حدثت تقسمات شديدة في الدولة الأيوبية، حتى إنها تفككت تماماً بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله. وليس أدينا الوقت الكافي، كي نتكلم عن هذه التصراعات والخلافات التي نشأت بعد صلاح الدين الأيوبي، وإن شاء الله سنكلم عنها بالتفصيل في مجموعة الحروب الصليبية.

وهذا الصراع ظل (59) سنة متصلة، منذ وفاة صلاح الدين الأيوبي

في سنة (589) من الهجرة إلى سنة (648) من الهجرة، ولم يكن هذا الصراع صراع كلام وسياب وشقاق فقط، بل كان يصل إلى حد القتال بالسيوف وإراقة الدماء المسلمة؛ وهذا أدى إلى فرقة شديدة في العالم الإسلامي، وكل هذا كان أمراً متوقعاً وليس غريباً، فليس غريب أن يترك صلاح الدين الأيوبي دولة قوية، ثم تتفكك

تولي السلطان الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر

لا أستطيع أن أشرح الآن بالتفصيل كل ما حدث في خلال هذه السنين سنة، وسأقتصر بكم الآن الخمسين السنة الأولى من الصراع، وأصل بكم إلى السنوات العشر الأخيرة من الدولة الأيوبية، بالتحديد إلى سنة (637) من الهجرة.

ففي هذه السنة تولى عرش مصر السلطان الأيوبي نجم الدين أيوب، المنقب بالملك الصالح، وهذا الرجل كان أفضل السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وللأسف فإن كثيراً جداً من المسلمين، حتى الذين في مصر التي عاش فيها الملك الصالح لا يعرفون تفاصيل حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، فهذا الرجل كان على خلاف معظم الأمراء الأيوبيين الذين جاءوا في فترته وقبته وبعده، فقد كان رجلاً صالحاً، وكان يعتبر في المنزلة بعد صلاح الدين الأيوبي مباشرة، تولى الملك الصالح أيوب حكم مصر سنة (637) من الهجرة، وكانت هذه الفترة فترة حكم أركيناي التتري، في وقت اجتياح العالم الإسلامي وأوروبا.

حروب الأيوبيين في الشام مع الملك نجم الدين أيوب استعد الأمراء الأيوبيون في الشام للقتال مع الملك الصالح أيوب على مصر، وحدثت بينهم مناوشات وحروب، ووصل الأمر إلى مهاد في سنة (641) من الهجرة، يعني: بعد أربع سنوات من تولي الملك الصالح حكم مصر. توحدت قوى الأيوبيين المتناثرة في الشام، وتحالفت مع الصليبيين من أجل حرب الملك الصالح أيوب في مصر. فلما علم الملك الصالح بإعداد هذا

الجيش الكبير من النصارى ومن الأيوبيين، بدأ يعد جيشاً لملاقاة هذه القوى المتحدة، ووضع على رأس جيشه ركن الدين بيبرس رحمه الله أكفأ قذته. ولستعد للمواجهة، ولكن الجيش المصري كان قليلاً وضعيفاً جداً مقارنة بالأعداد الكبيرة لجيوش الشام والصليبيين، فاضطر الملك الصالح للاستعانة بالجنود الخوارزمية، وهم جنود محمد بن خوارزم شاه وجلال الدين بن محمد بن خوارزم. وغيرهما من الملوك الخوارزمية، الذين تحدثنا عنهم في بداية هذه السلسلة، وهم كانوا قد فروا من منطقة خوارزم بعد الاجتياح القتري لها، وكانوا جنوداً مرتزقة يتعاونون مع من يدفع أكثر، فكثروا يعرضون خدماتهم العسكرية في مقابل المال، فاستعان بهم الملك الصالح مقابل أجرة، ودارت موقعة كبيرة في غزة في فلسطين بين جيش الملك الصالح أيوب وبين قوى التحالف الأيوبية الصليبية، وكانت هذه الموقعة في سنة (642) من الهجرة، وانتصر فيها الملك الصالح انتصاراً باهراً، وقتل من الصليبيين أعداداً كبيرة، وصلت إلى ثلاثين ألف مقاتل، وأسر مجموعة كبيرة جداً من أمراء وملوك الصليبيين والأيوبيين، واستغل الصالح أيوب الفرصة واتجه إلى بيت المقدس، بعد أن كان الأيوبيون قد تنازلوا عنه للصليبيين، وأعطوهم إياه هدية، فافتحم الملك الصالح بيت المقدس وحصون الصليبيين، وحرر مدينة القدس المباركة نهائياً بجيشه المدعم بالخوارزمية سنة (643) من الهجرة، بعد سنة من موقعة غزة، ولم يستطع الجيش الصليبي أن يدخله أبداً لمدة سبعة قرون كاملة، إلى أن دخلته انجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى في يوم (16) نوفمبر سنة (1917) من الميلاد، بعد الخيانة المعروفة من مصطفى كمال أتاتورك.

ونسأل الله عز وجل أن يعيد بيت المقدس إلى المسلمين. ثم أكمل الملك الصالح أيوب الطريق بعد ذلك إلى الشمال، ودخل دمشق ووجد من جديد مصر والشام، ثم اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرر طبرية وعسقلان. وغيرهما.

انشقاق الجنود الخوارزمية عن جيش الملك نجم الدين أيوب

حدث تطور خطير جداً في جيش الملك الصالح أيوب، فقد انشق عن جيشه فرقة الخوارزمية، فبعد أن حرر بيت المقدس وضم الشام إلى مصر، حدث هذا الانشقاق، بعد أن استمال أحد الأمراء الأيوبيين بالشام هذه الفرقة الخوارزمية، مقابل دفع أكثر للمال، ونحن نعرف أن هذه الفرقة تعمل بالمال فقط، ولم تكف بالخروج عن الملك الصالح، بل إنها حازبت الملك الصالح أيوب نفسه، ولم يثبت معه في هذا النفاء إلا جيشه الأسمي الذي أتى به من مصر، وعلى رأسه القائد المحنك ركن الدين بيبرس.

وبسبب هذا الحدث ضاعت مكاسب كثيرة جداً كان قد حققها الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، فخرج من هذه الحرب المؤسفة وقد أدرك أنه لا بد أن يعتمد على الجيش الذي يدين له بالولاء لشخصه لا نماله، ويقاقل سعه من أجل قضية لا من أجل أموال، فبدأ في الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية، وهذه الطائفة هي المماليك.

الحملة الصليبية السابعة على مصر

في سنة (647) من الهجرة مرض الملك الصالح أيوب رحمه الله مرضاً شديداً بمرض السل، وكان قد كبر سنه جداً، مما جعله ضريح الفراش في القاهرة، وفي هذه الأثناء وقبلها أراد ملك فرنسا لويس التاسع أن يستغل فرصة الاجتياح التنري لشرق العالم الإسلامي، فيقوم هو باجتياح العالم الإسلامي من ناحية مصر والشام. وذكرنا من قبل أنه حاول الاستعانة بخاقان انتتار آنذاك كيوك بن لوكيتاي، ولكن فشلت هذه المحاولة، ومع ذلك أصر لويس التاسع على المضي في حملته. ووقع اختياره على مدينة دمياط المصرية، من أجل أن يبدأ منها الحملة التي يغزو منها مصر والشام، وكانت في ذلك الوقت أهم ميناء في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وهذه الحملة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا تعرف في التاريخ باسم الحملة الصليبية السابعة. وهناك تفاصيل كثيرة جداً مهمة في

هذه الحمئة، وسنعرض لها إن شاء الله بالتفصيل عند الحديث عن الحروب الصليبية في سلسلة أخرى.

موقعة المنصورة

لما علم الملك الصالح رحمه الله بسقوط دمياط، اشتد الحزن والمرضى عليه، وبدأ يفكر بطريقة عملية، وتوقع أن النصرى الصليبيين سيتجهون إلى القاهرة عبر النيل لغزو العاصمة المصرية نفسها، وبذلك يسقطون الدولة بكاملها، لذلك قرر بحكمة أن يرتب اللقاء في الطريق بين القاهرة ودمياط، فبدأ ينظر إلى خط النيل الذي يمر من دمياط إلى القاهرة، فوجد أن مدينة المنصورة تقع على النيل، وحتماً سيحصل إليها الصليبيون، فذلك قرر أن يجمع بجيشه في المنصورة، وحمل الملك الصالح بنفسه مع مرضه الشديد إلى المنصورة، وبدأ الجيش المصري ومعظمه من المماليك يستعد هناك لحرب الصليبيين، وعلى رأس الجيش المصري كما ذكرنا قبل ذلك فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس. خرج النصرى من دمياط في (12) شعبان سنة (647) هجرية، متجهين جنوباً إلى القاهرة عبر النيل، كما توقع الملك تصالح أيوب، وقبل أن يصلوا إلى مدينة المنصورة وفي ليلة النصف من شعبان سنة (647) من الهجرة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله في المنصورة، وهو يعد الخطة مع جيوشه لتحسين المنصورة، فسأل الله عز وجل له المغفرة والرحمة وأجر الشهداء.

يقول ابن تغري بردي رحمه الله صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في منوك مصر والقاهرة) عن نجم الدين أيوب رحمه الله: ولو لم يكن من محاسن السلطان انصالح نجم الدين أيوب إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد والذب عن المسلمين لكفاه ذلك، ثم يقول: ما أصبره وأغزر مروءته! وكانت هذه المصيبة خطيرة على المسلمين، لا تفقد الزعيم الصالح فقط، ولكن فقدان البديل، فلم يكن يوجد خليفة للملك الصالح في ذلك الوقت، والبلا في أزمة

شديدة، فمينااء ندياط محتل؛ وحنود الصليبيين في الطريق، وهذا تصرف زوجة السلطان نجم الدين أيوب شجرة الدر بحكمة بالغة، وهي جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب ثم أعتقها وتزوجها، فهي في الأصل أقرب إلى المماليك، فكتمت خبر وفاة الملك الصالح، وقالت: إن الأطباء منعوا الزيارة له، وأرسلت رسالة سريعة جداً إلى ابن الملك الصالح أيوب توران شاه وكان يحكم مدينة تعرف بحصن كيفا، وهي الآن في تركيا، وأبلغته بخبر وفاة أبيه وأن عليه أن يأتي بسرعة لاستلام مفاتيح الحكم في مصر والشام، ثم اتفقت مع كبير وزراء الملك الصالح فخر الدين يوسف على إدارة الأمور إلى أن يأتي توران شاه ويتولى أمور البلاد، ثم كلفت فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس بالاستمرار في الإعداد للمعركة الفاصلة في المنصورة، وإعداد الخطة المناسبة لحرب الصليبيين، فمشت الأمور بصورة طيبة ومرضية، وتم تحصن اضطراب بعد وفاة الملك الصالح، فوضع فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس خطة في منتهى البراعة لمقاومة الجيش الفرنسي في المنصورة، وعرضوا الخطة على شجرة الدر، ووافقت شجرة الدر على الخطة وبدأ التنفيذ بالفعل، وكانت شجرة الدر في ذلك الوقت تمثل الحاكم الفعلي للبلاد حتى يأتي توران شاه بن الصالح أيوب، وفي يوم (4) ذي القعدة في سنة (647) هجرية وهذا التاريخ من أعظم تواريخ الإسلام- دارت موقعة المنصورة العظيمة، وانتصر المسلمون فيها انتصاراً باهراً، وفيها تفصيلات في منتهى الروعة، وليس هناك مجال لذكرها الآن. ثم حدث هجوم آخر على جيش الملك لويس التاسع خارج المنصورة في يوم (7) ذي القعدة سنة (647)، وتمكن الملك لويس التاسع من صد ذلك الهجوم بعد كفاح مرير.

معركة فارسكور وأسر لويس التاسع وسقوط جيشه وهزيمتهم

وصل توران شاه بن الصالح أيوب إلى المنصورة بعد هذا الهجوم الأخير بعشرة أيام في يوم (17) ذي القعدة سنة (647) من الهجرة، وتسلم

السلطان الشاب مقلد الحكم، وأعلن رسمياً وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وولاية توران شاه لحكم مصر والشام، ثم بدأ توران شاه في التخطيط لهجوم جديد على الصليبيين، وكانت حملة الجيش الصليبي قد ساءت جداً بعد انتصار المنصورة الرهيب، وتراجع ناحية دمياط، فتبعه الجيش المسلم بسرعة، وبدأ يخطط لحرب جديدة، وبالفعل التقى الجيش المصري مرة أخرى مع الجيش الصليبي عند مدينة فارسكور بالقرب من دمياط، وكان هذا اللقاء في أوائل محرم سنة (648) من الهجرة بعد أقل من شهرين من موقعة المنصورة الكبيرة، وقاد هذه الموقعة توران شاه الملك الجديد، وكان الذي يتحكم في كل مجريات الأمور في الحرب هم فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس قادة الجيش المصري في ذلك الوقت، وفي موقعة فارسكور أسر الملك لويس التاسع ملك فرنسا، ووقع جيشه بالكامل ما بين قتيل وأسير، وموقعة فارسكور من أعظم مواقع الإسلام، وحمل الملك لويس التاسع مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة، وحبس في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان المشهور، ووضعت عليه شروط قاسية جداً ليفتدي نفسه من الأسر، وكان من ضمنها أن يفتدي نفسه بثمانمائة ألف دينار من الذهب، يدفع نصفها حالاً والباقي مستقبلاً، على أن يحتفظ توران شاه بالأسرى الصليبيين إلى أن يتم دفع بقية الفدية، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى المسلمين وتسليم دمياط للمسلمين، وهذه بين الفريقين لمدة عشر سنوات.

فقد كانت هذه الموقعة انتصاراً باهراً بكل المقاييس، وجمع انتصاري في فرنسا وفي غيرها نصف الفدية بصعوبة، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع إلى عكا، وكانت إمارة صليبية في ذلك الوقت، نسأل الله عز وجل أن يحررها من دنس اليهود الآن.

سقوط دمياط في يد الصليبيين

نزل لويس التاسع بجيشه إلى دمياط في يوم (20) صفر سنة (647) من الهجرة، وظنت الحامية التي تدافع عن مدينة دمياط أن السلطان

المریض الملك الصالح أبوب قد مات، فانسحبوا انسحاباً غیر مبرر، ووقعت دمیاط بسهولة شدیة جداً فی أیدی الصلیبیین، وهي المدینة التي دوخت قبل ذلك الحملة الصلیبية الخامسة.

صفات توران شاه فی الحکم وقصة مقتله

مع هذا الانتصار المیهر للمسلمین علی الصلیبیین إلا أن توران شاه لم یکن یناسب تلك الأحداث الساخنة التي تمر بالأمة الإسلامیة، فتوران شاه كان شخصیة عابسة متصفاً بسوء الخلق، والجهل بشئون السیاسة والحکم، وقد ركبه الغرور بعد انتصر علی نویس التاسع ملك فرنسا عن رؤیة أفضل ومزایا من حوله، فبدأ یتكبر لزوجة أیبه شجرة الدر، واتهمها بإخفاء أموال أیبه، وضالها بهذا الضل، بل وهددها بشدة، حتی دخلها خوف كبیر منه، ولم یحفظ لها جمیل حفظ الملك له بعد موت أیبه، فقد بعثت له من أجل أن ینتی ویستلم مقالید الحکم فی مصر، مع أن الوضع كان فی اضطراب شدید جداً، فجاء إلی مصر ووجد الحیث منتصراً بالفعل، وسع ذلك بدأ یتكبر لها، ولكبار أمراء المماليك أمراء الحیث، وعن رأسهم فارس الدین أقطای و ركن الدین بیبرس، فلم یحفظ للمماليك جمیع الانتصار الرائع الذي حققوه بالمنصورة، ثم فی فارسكور، فبدأ یقتل من شأنهم، ویقلص من مسئولیاتهم، وبدأ علی الجانب الآخر یعظم من شأن الرجال الذين جاءوا معه من حصن كیفاً التركي، وبدأ واضحاً للجميع أنه سيقوم بعمليات تغییر واسعة النطاق فی السلطنة فی مصر، وبالذات فی الحیث المصری، وكان كل هذا فی غضون الثلاثة الأشهر الأولى له فی مصر، وبعد موقعة فارسكور مباشرة، فخافت شجرة الدر علی نفسها، وأسرت بذلك إلی المماليك البحریة، وبالذات فارس الدین أقطای و ركن الدین بیبرس، وقد كان المماليك البحریة یكونون لشجرة الدر كل الاحترام والولاء؛ لأنها زوجة الأستاد الملك الصالح رحمه الله، وعلاقة الأستلایة هذه كانت أقوى من علاقة الأب بابنه أحياناً، وكانت تبغی آثار هذه العلاقة حتی بعد موت السید الذي اشتراهم أو

تملك الذي رباهم، ولما ذكرت شجرة الدر هذه الوسوس إلى المماليك
 البحرية، وجدت عندهم نفس الوسوس، فقد خافوا من توران شاه، وتوقعوا
 أن يقصدهم توران شاه عن الحكم والسلطة، بل وقد يتعرض لهم بالقتل،
 فأجمعوا على سرعة التخلص من توران شاه وقتله. والمماليك بصفة عامة،
 كان عندهم تساهل كبير جداً في اثناء، كانوا يقتلون بالشك، فإذا شكروا في
 أحد أنه ينوي أن يغير، فإن ذلك يعتبر عندهم مبرراً كافياً للقتل، وكان هذا
 التساهل في اثناء عاماً في حياة المماليك، وفي كل فترات دولتهم تقريباً،
 وكم من أمرائهم وخصوصهم بل ومن عظمايتهم من قتل بسبب الشك في
 نوابه، وقد يكون هذا راجعاً إلى التربية العسكرية الجافة التي نشأ عليها
 المماليك، فقد كانت فيهم قسوة نفسية وشدة وعدم تمييز للأمور، وكانوا
 يحبون حسم كل الأمور بالسيف الذي يحملونه منذ نعومة أظفارهم، والشيء
 الذي لا يفهم هو أن هؤلاء المماليك كانوا ينشئون على التربية الدينية
 والفقهية، ولا أنزي أي سند فقهي يعضد قتل رجل ما، حتى ولو غلب على
 الظن أنه سيقوم بجزل أو احتمال قتل. المهم أنهم في هذا الزمن المليء
 بالمؤامرات والتدبيرات الخفية، لم يكن يستهجن عندهم مطلقاً أمر ذلك القتل،
 بل إن القاتل أحياناً يفخر أمام الناس بقتله للمقتول، بل وقد يصعد إلى كرسي
 الحكم وهو مرفوع الرأس لا يشعر بأي تائب ضمير، وكان اثناء التي
 تسبب هذه نيس لها وزن عند الله سبحانه وتعالى ولا عند الناس. وهذا ليس
 دفاعاً عن توران شاه أو غيره، فقد يكون القاتل شخصية عابسة وسيئة
 وكرهية، ولكن العقوبات في الإسلام لها مقاييس معينة ومقايير خاصة جداً،
 وهذه المقاييس لم نحددها نحن، بل حددها رب السموات والأرض، فالسارق
 وإن كان مجرمًا سيئاً كريهاً، إلا أنه لا يقتل لمجرد السرقة، بل تقطع يده،
 والزاني غير المحصن وإن كان قد قام بعمل شنيع مشين، إلا أنه يجلد ولا
 يترجم..

وهكذا، وليست وسارس المماليك أو غيرهم مبرراً شرعياً كافياً للقتل، بل قد تكون مبرراً شرعياً للعزل أو الاعتراض أو الحبس...
أو ما إنى ذلك، لكن الوصول إلى حد القتل أمر كبير جداً. إذا:
اتفقت شجرة الدر مع فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس وغيرهما من المماليك الصالحية البحرية على قتل توران شاه، وقعت الجريمة قسى (27) محرم سنة (648) هجرية بعد سبعين يوماً فقط من قدومه من حصن كرفا في تركيا واعتلائه عرش مصر، وكأنه لم يقطع كل هذه المسافات لكي يحكم، بل لكي يدفن. وبمقتل توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين الأيوبي رحمه الله انتهى حكم الأيوبيين تماماً من مصر، وبذلك أغلقت صفحة مهمة من صفحات التاريخ الإسلامي.

الباب الأول

البدائيات

المماليك والحكماء

لقد حدث فراغ سيني كبير جداً بقتل توران شاه، فلم يبق هناك أيوبي في مصر مزهمل لقيادة الدولة، ومن ناحية أخرى فإن الأيوبيين في الشام مازالوا يطمعون في مصر، والشام ومصر كانتا دولة واحدة في زمن الملك الصالح أيوب رحمه الله، فقد وحد الدولتين بعد حربه مع الأيوبيين والصليبيين في الشام، والآن سيحاول الأيوبيون في الشام ضم مصر إلى الشام لصالحهم، ولا شك أنه قد دخل الأيوبيين في الشام حنق كبير على المماليك؛ لأنهم تجرأوا وقتلوا أيوباً، وكان المماليك يعلمون أن الأيوبيين سيحرصون على أخذ الثأر منهم، لكنهم كانوا يتركون أن قيمتهم في الجيش المصري كبيرة جداً، وهم يعرفون أن المماليك هم القوة الفعلية في مصر، وأنهم قد ظلموا بعد موقعة المنصورة وفارمكور؛ فقد كانوا السبب الرئيسي في الانتصار، ومع ذلك همش دورهم، كل هذه الخلفيات جعلت المماليك ولأول مرة في تاريخ مصر يفكرون في أن يمسكوا هم بحقاليد الأمور مباشرة، فهم القادرون على أن يغلّبوا؛ فماذا لا يكون الحكم لهم؟ ولأول مرة طرح هذا السؤال على أذهان المماليك، وقد استخدموا في مصر من أيام النطولونيين، يعني من سنة (254) من الهجرة، ثم بعدها استخدموا أيضاً في أيام الدولة الإخشيدية، ثم في أيام الدولة الفاطمية، ثم في أيام الدولة الأيوبية، وفي كل هذه الفترات كان الجيش يعتمد تقريباً اعتماداً كاملاً على المماليك، ومع ذلك لم يفكروا مطلقاً في حكم ولا سياسة، فقد كانوا دائماً أعوان الملوك، وما كانت تخطر على أذهانهم فكرة الملك أبداً؛ لكونهم من المماليك الذين يباعون ويشترون، فلم تكن لهم عائلات معروفة أصلاً ينتمون إليها، وهذا يشعرهم بالخربة في البلاد الجديدة التي يعيشون فيها، والخطر لم يكن

بمسهم ألبتة، وإنما كان دائماً يمس السلطة، وهم تبع للسلطة الجديدة،
ويذنقون من سيد إلى آخر..

وهكذا. وأما الآن فالمؤامرات ستدير لهم مباشرة، والدائرة ستدور
عليهم هم، والصنوك ضعفاء، والقوة كلها بيدهم: فلماذا لا يجربون حظهم في
الحكم، ولكن صعودهم مباشرة إلى الحكم سيكون مستهجنًا جداً في مصر،
فاناس لا تتسى أن المماليك في الأساس عبيد يباعون ويشترون؛ وحتى لو
أعتقوا، فتقبل الناس لحكمهم سيكون أمراً صعباً، وحتى لو كثرت الأموال
في أيدي المماليك، وتعددت الكفاءات، وحكموا الأقانيم والإقطاعات فهم في
النهائية مماليك، وصعودهم إلى الحكم يحتاج إلى حجة مقنعة للشعب الذي لم
يألفهم أبداً إلا في كنف السلاطين. كل هذا دفع المماليك البحرية الصالحية
إلى أن يرغبوا بعد مقتل توران شاه في فترة انتقالية تمهد الطريق لحكم
المماليك، وفي ذات الوقت لا تقلب عليهم الأمور في مصر أو في العالم
الإسلامي، فهم يريدون الحكم بعد توران شاه، ولكنهم يريدون فترة انتقالية،
بحيث يستوعب الناس جلوسهم على الكرسي بعد ذلك. إنذا كانت هذه هي
حسابات المماليك الصالحية البحرية، فهم يريدون أن يحكموا؛ لأنهم هم
أصحاب القوة الحقيقية، ويخافون على أنفسهم من أن يقصوا من الحكم بسبب
أنهم من المماليك، وهذه مشكلة لا يستنوعون حلها.

شجرة الدر وحكم مصر

كانت شجرة الدر امرأة ذات طابع خاص جداً، لا تتكرر كثيراً في
التاريخ، فهي امرأة قوية جداً، وشجاعة وجريئة ولها عقل مدبر، وتتمتع
بحكمة شديدة، ولها القدرة على القيادة والإدارة، وكانت شجرة الدر تعرف
كل هذه الأشياء عن نفسها، فقد كانت شديدة الإعجاب بإمكاناتها وبنفسها،
وهذا كله دفعها إلى تفكير جديد تماماً على الفكر الإسلامي وبالذات في هذه
الفترة من تاريخ الأمة، ففكرت في الصعود إلى كرسي الحكم في مصر،
وهذا أمر هائل فعلاً، وسباحة عنيفة جداً ضد التيار، ولكن شجرة الدر

وجدت في نفسها الملكة التي تسمح لها بتطبيق هذه الفكرة اجرينية، وقالت لنفسها إنني حكمت البلاد سراً أيام المنصورة، فلماذا لا أحكمها الآن جهراً؟ ولما تباحثت شجرة الدر مع المماليك للبحرية في أمر البلاد بعد مقتل توران شاه وجد المماليك فيها الفترة الانتقالية التي يريدون، فهي زوجة الأسنذ المنك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله، والجميع يكن له كامل الحب والاحترام والوفاء، سواء من المماليك أو من الشعب المصري نفسه، فالشعب المصري كان يحب المنك الصالح جداً، وهي في نفس الوقت تعتبر من المماليك، وإن كانت أعتقت إلا أنها كانت مملوكة قبل ذلك، كما أنها في النهاية امرأة ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر، ويوفروا الأمان لأرواحهم، يعني أنهم سيضعون شجرة الدر في الصورة بأنها حاكمة مصر، والشعب في اعتقاد المماليك سيسكت؛ لأنها زوجة الملك الحبيب لهم الملك الصالح رحمه الله الذي مات منذ أشهر قليلة، وفي نفس الوقت يستطيعون أن يسيطروا على الحكم من خلال هذه المرأة التي مهما كانت قدرتها فسقطت امرأة ضعيفة، وبالتالي يستطيعون الصعود بعد ذلك إلى الحكم صراحة، فما دام أنه قد صعد إلى الحكم امرأة مملوكية، فسيستطيع أن يصعد بعد ذلك رجل مملوك.

تولي شجرة الدر لحكم مصر

توافقت رغبة المماليك مع رغبة شجرة الدر، وقرروا جميعاً إعلان شجرة الدر حاكمة لمصر بعد مقتل توران شاه بأيام في أوائل صفر سنة (648) هجرية، فقامت الدنيا ولم تقعد، وتفجرت ثورات الغضب في كل مكان في مصر، وعم الرفض لهذه الفكرة في أطراف العالم الإسلامي، وخرجت المظاهرات بكثرة في شوارع مصر، في وقت كانت المظاهرات مسموحة، وحاولت شجرة الدر أن تتدارك الموقف قدر المستطاع، فنسبت نفسها إلى زوجها المحبوب عند الشعب الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقالت عن نفسها إنها ملكة المسلمين الصالحة؛ لتذكر الناس أنها تبع للملك

انصالح، ولكن هذا الكلام لم يكف ولم يوقف الشعب عن المظاهرات، فنسبت نفسها إلى ابنها الصغير ابن الصالح أيوب، فقد كان عندها طفل صغير اسمه الخليل، فاقبت نفسها ملكة المسلمين للصالحية، والددة السلطان خليل أمير المؤمنين، وكأنها تقول: إنها فترة انتقالية حتى يأتي أمير المؤمنين خليل بن الملك الصالح الذي تحبونه، ومع ذلك فإن هذا أيضاً لم يوقف المظاهرات، فأضافت نفسها إضافة ثلاثة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله الذي كان يحكم في ذلك الوقت، و الذي سقطت بغداد في عهده، فسمت نفسها ملكة المسلمين المستعصمية -نسبة إلى المستعصم- الصالحية- نسبة إلى الصالح أيوب -وائدة السلطان خليل أمير المؤمنين؛ ومع كل هذه المحاولات لتتزلزل إلى العامة والعلماء ليقبلوا الفكرة، إلا أن الغضب لم يتوقف، وظهر على كافة المستويات، وبدأ واضحاً للجميع أن البلاد ستدخل في أزمة خطيرة، وأن الوضع في منتهى الحرج، والحملات الصليبية الشرسة لا تتوقف، والإمارات الصليبية منتشرة في فلسطين، وأمرأ الشام الأيوبيون يطعمون في مصر، والصراع كان محتكماً جداً بين هؤلاء الأمراء الأيوبيين وبين الملك الصالح نفسه، فما بالكم بالوضع الآن؟ ثم إن هناك الهم الكبير الذي يطرق أبواب المسلمين بعنف وهو التتار، والتتار في ذلك الوقت في سنة (648) من الهجرة كانوا على أبواب بغداد في أذربيجان وفارس، ويخططون من أجل إسقاط بغداد، وكان إعداد هولاء لغزو العراق في بداياته في هذه المرحلة. استمرت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في مصر في كل أنحاء؛ وشرع المتظاهرون في الخروج بمظاهراتهم إلى خارج حدود المدينة، وبدأ الموقف يتأزم بشدة، وقام العلماء والخطباء بتدوين بذلك الأمر على منابرهم وفي دروسهم، وكانت الدروس مسموحاً بها في ذلك الوقت، وكان أشد العلماء غضباً في ذلك الوقت الإمام الجليل العز بن عبد السلام رحمه الله، أبرز العلماء في ذلك الوقت، وأظهر الأمراء الأيوبيون في الشام حقنهم الشديد واعتراضهم المغلظ على صعود النساء إلى

كرسي الحكم في مصر، وجاء رد الخليفة العباسي المستعصم بالله قاسياً وشديداً جداً، بل وساخراً جداً من الشعب المصري كله، فقد قال لهم في رسالته إليهم: إن كانت الرجال قد عدت عنكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً.

زواج شجرة الدر من عز الدين أيبك الصالحي وتوليه لحكم مصر

لم تتوقف الاعتراضات على الملكة الجديدة، ولم تنعم بيوم واحد فيه راحة، وخافت الملكة الصموحة على نفسها، وبأذات في هذه الأيام، وكان لتغيير في هذه الأيام بالسيف بالذبح لا بالخلع أبدأ، ومن هنا قررت الملكة شجرة الدر بسرعة أن تتنازل عن الحكم لرجل تحكم البلاد من خلاله، فحب السلطان يجري في دمها ولا تستطيع أن تتركه، فهي تشعر بإمكانياتها العقلية والإدارية والقيادية، وهي إمكانيات هائلة فعلاً، ففكرت بأن تسك بالعصا من نصفها كما يقولون، فتحكم باطناً وتنتحي ظاهراً، ففكرت في لعبة سياسية خطيرة، وهي أن تتزوج أحد الرجال، ثم تتنازل له عن الحكم؛ ليكون هو في الصورة، ثم تحكم هي البلاد بعد ذلك من خلاله أو من خلف الستار، كما يحدث كثيراً في أوساط السياسة، فكم من الحكام يحكمون ولين لهم من الحكم إلا الاسم، وكم من السلاطين ليس لهم من السلطة نصيب، وما أكثر الرجال الذين سيقلون بهذا الوضع نظير أن يبقى أطول فترة ممكنة في كرسي الحكم الوثير، وكرسي الحكم مريح جداً، والذي يجلس فيه لا يحب أن يقوم منه، وشجرة الدر لا تريد أن تتزوج رجلاً حقيقياً، وإنما تريد فقط صورة رجل؛ لأنه لو كان قريباً لحكم هو وتمسك بمقاليد الأمور في البلاد، فهي تريد رجلاً ضعيفاً، وليس من عائلة قوية أصيلة، حتى لا تؤثر عليه عائلته، فيخرج الحكم من يد الملكة الصموحة، ويأخذها لو كان هذا الرجل السعيد الحظ من المماليك! حتى تضمن بذلك ولاءهم، وهذا أمر في غاية الأهمية، ولو كان هذا الرجل هو السند التشريعي للحكم، فالمماليك هم السند الفعلي والعسكري والواقعي للحكم. فوضعت شجرة الدر كل هذه الحسابات

في ذهنها، ثم اختارت رجلاً من المماليك اشتهر بينهم بالعزوف عن الصراخ، والبعد عن الخلافات والهتوفات النسبي، وكانت هذه الصفات حميدة في نظر شجرة الدر، فوجدت في هذا الرجل ضالتها، وهذا الرجل هو عز الدين أيبك التركماني الصالح، يعني: من المماليك الصالحة البحرية، من ممالك زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم تُختر رجلاً من المماليك الأقوياء أمثال فارس الدين أقطاي أو ركن الدين بيبرس.. أو غيرهما؛ وذلك لتتمكن من الحكم بلا منازع، وبالفعل تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك، ثم تنازلت نه عن الحكم رسمياً، وذلك بعد أن حكمت البلاد (80) يوماً فقط، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الآخرة من سنة (648) من الهجرة. وفي غضون سنة واحدة جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك، الملك الصالح أيوب رحمه الله، ثم مات، فتولى توران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالح، فقد كانت سنة فنن وانقلابات ومؤامرات ومكائد، وتناقب عز الدين أيبك بالملك المعز، وأخذت له البيعة في مصر. وكان هذه الأحداث قد تمت بكاملها كنوع من التمويه؛ لقبول فكرة صعود المماليك إلى كرسي الحكم في مصر، فقد قيل انشعب المصري بالوضع الجديد، فهو وإن لم يكن مثالياً في رأيهم، إلا أنه أفضل حالاً من توني امرأة، وعز الدين أيبك كان مملوكاً، ولكنه أعتق، ومع ذلك فقد كان يعتبر مملوكاً، لكن أفضل من المرأة، كما أن التبديل من الأيوبيين في مصر غير موجود، وكذلك غير موجود في الشام، ونحن رأينا أمراء الأيوبيين في الشام في منتهى انضعاف، فقد كانوا على شاكله الناصر يوسف الأيوبي و الأشرف الأيوبي والملك السعيد حسن بن عبد العزيز.. وغيرهم، ولم يكن فيهم ضعف فقط، بل ضعف وسوء خلق وعمالة وخيانة وما إلى ذلك، فالشعب المصري في ذلك الوقت قبل بالملك المعز عز الدين أيبك للتركماني، وبدأت الأمور تهدأ في مصر.

هروب قادة المماليك البحرية إلى الشام

اكتسب الملك المعز الخبرة اللازمة، وزادت قوة مماليكه المعزية، واستقرت الأوضاع في البلاد، فرضي عنه شعبه، واعترف له الخليفة العباسي بالسيادة على مصر، وكانت هذه الخطوة كبيرة جداً في تثبت أركان الحكم في مصر للملك المعز عز الدين أيبك، ويقتل فارس الدين أقطاي انقسم المماليك إلى فريقين كبيرين متناظرين في مصر: المماليك البحرية الذين يدينون بالولاء لشجرة الدر ولركن الدين بيبرس، والفريق الثاني المماليك المعزية الذين يدينون بالولاء للملك المعز عز الدين أيبك. وهذا فكر المماليك البحرية وقائماً: إذا كان فارس الدين أقطاي الذي هو أكبر المماليك البحرية قدراً وأعظمهم هبة قد قتل، فما بالك بالذين من بعده؟ فبات المماليك البحرية في تونس وريبة، وما استطاعت الزعيمة شجرة الدر أن تفعل لهم شيئاً، فقرر زعماء المماليك البحرية الهروب إلى الشام؛ خوفاً من الملك المعز عز الدين أيبك، وكان على رأس النهارين ركن الدين بيبرس، فذهب معظم زعماء المماليك البحرية أو كلهم إلى الشام، وبذلك صفا الجو تماماً في مصر للملك المعز عز الدين أيبك، وأصبح هو الزعيم لمدة ثلاث سنوات متصلة دون معارضة، من سنة (652) عندما قتل فارس الدين أقطاي وإلى سنة (655)، وأصبح قائد الجيش في ذلك الوقت هو سيف الدين قطز رحمه الله، واختفى تقريباً دور الزوجة الملكة القديمة شجرة الدر. وكل هذه الأحداث جعلتها تغلي من الحقد على الملك المعز عز الدين أيبك.

مقتل الملك المعز وشجرة الدر

في سنة (655هـ) وبعد مرور سبع سنوات كاملة على حكم الملك المعز عز الدين أيبك أراد هذا الملك أن يثبت أقدامه بصورة أكبر في المنطقة، فأراد أن يعمل حلفاء، ولكنه خشي عليه المؤامرات والمكائد والخيانة التي كثرت في هذا الزمن، فأراد أن يوثقه برياط-غليظ لا يفصح بسهولة،

وهو الزواج، فأحب أن يتزوج من بنت أو أخت منك من ملوك المنطقه، ويوحد جيشه مع جيش هذا الملك حتى تصبح لهما السيطرة على المنطقه بأكملها، فاختار بنت حاكم الموصل الأمير البخائن الذي تكلمنا عليه كثيراً قبل ذلك بدر الدين لؤلؤ، فعرفت شجرة الدر بهذا الأمر فاشتعلت الغيرة في قلبها، فركبها الهم والغم، وعلمت أنه لو تم هذا الزواج الجديد فستطوى شجرة الدر تماماً من التاريخ، وأعستها الكراهية عن حسن تقدير الأمور، ونسيت الحكمة التي تميزت بها، ولم تفكر أن زعماء المماليك البحرية قد هربوا إلى الشام، وأن القوة الحقيقية الآن في أيدي المماليك المعزية، للذين يدينون بالولاء والطاعة للملك المعز عز الدين أيبك، فلم تفكر كل ذلك، وقررت بعاطفة المرأة أن تقدم على خطوة غير مدروسة، وهي قتل الزوج الملك المعز عز الدين أيبك، وليكن ما يكون، وبدافع دبرت مؤامرة لنيمة لقتل زوجها الملك، وتم تنفيذ المؤامرة فعلاً في شهر ربيع الأول سنة (655) من الهجرة، وانتهى بذلك حكم الملك المعز عز الدين أيبك بعد سبع سنوات من جلوسه على عرش مصر، وبهذا تكون شجرة الدر قتلت اثنين من سلاطين مصر: توران شاه من قبل، وعز الدين أيبك، وعلم الجميع بجريمة القتل، فأسرع سيف الدين قطز قائد الجيش والذارع اليمنى للملك المعز عز الدين أيبك ومعه ابن عز الدين أيبك من زوجته الأولى نور الدين علي وكان عمره (15) سنة، أسرعا ومعهما فرقة من المماليك المعزية وألقيا القبض على شجرة الدر، وطلبت أم نور الدين علي وزوجة الملك المعز عز الدين أيبك الأولى أن يترك لها الأمر في التصرف مع ضررتها شجرة الدر، وكانت النهاية المأساوية المشهورة أن أمرت أم نور الدين جواربها أن يقتل الملكة السابقة ضرباً بالقباقيب، ولعل هذا هو حادث القتل الوحيد في القصة الذي له خلفية شرعية مقبولة، فشجرة الدر قتلت عز الدين أيبك دون ميرر معقول، فليس الزواج من امرأة أخرى جريمة. وليس الأفراد بالحكم دون الانصياع لحكم الزوجة جريمة، ولذلك لم يكن لديها مسوغ شرعي للقتل، فكان لابد أن تقتل، ولكن من المؤكد أن الطريقة التي قتلت بها لم تكن طريقة شرعية أبداً،

بل كانت طريقة نسائية بحتة، لم يقصد منها انقصاص فقط، بل قصد منها الإهنة والتحقير والنل، مثل ما فعل بالمستعصم بعد ذلك عند سقوط بغداد، عندما قتل رفساً بالأقدام، وهذه نهايات خاصة جداً يكتبها الله عز وجل لبعض الملوك، ممن لم يرع الله عز وجل حقاً، ولم يراع للشعب حقاً.

قتل الملك المعز لفارس الدين أقطاي

في سنة (652) من الهجرة بعد أربع سنوات من تولي الملك المعز عز الدين أيك للحكم في مصر فكر أقطاي الذي كان كبير قواد الجيش المصري بالتزوج من إحدى الأميرات الأيوبيات، وكان الملك المعز عز الدين أيك يراقب الموقف، وأدرك فوراً أن أقطاي يحاول أن يضيف على نفسه صورة جميلة أمام الشعب، وأن يجعل له انتماء واضحاً للأسرة الأيوبية التي حكمت مصر قرابة الثمانين سنة، وإذا كانت شجرة الدر حكمت مصر لكونها زوجة الصالح أيوب، فلماذا لا يحكم أقطاي مصر؛ لكونه زوجاً لأميرة أيوبية، فضلاً عن قوته وبأسه وتزيخه، وهو الذي قاد الجيش المصري في موقعة المنصورة، وله ذكريات وأمجاد كبيرة في مصر، فشعر الملك المعز عز الدين أيك بالخطر الشديد، وأن هذه بوادر للانقلاب عليه، والانقلاب عادة ما يكون بالسيف، فاعتبر أن ما فعله أقطاي سابقاً من إهنة واحتقار، وما يفعله الآن من زواج بالأميرة الأيوبية ما هو إلا مؤامرة لتحقية أيك عن الحكم؛ ومن ثم أصدر أيك أوامره بقتل زعيم المماليك البحرية فارس الدين أقطاي ؛ لأنه ينوي الانقلاب، فتم قتل فارس الدين أقطاي بأوامر الملك المعز وذلك في (3) شعبان سنة (652) من الهجرة، وبقتل فارس الدين أقطاي خنت الساحة لعز الدين أيك ، وبدأ يظهر قوته بوضوح ويبرز كلمته، وبدأ دور الزوجة شجرة الدر يقل ويضمحل.

نشأة المماليك العربية وتعكر العلاقة بين الملك المعز والمماليك الصاحبة

بدأت شجرة الدر تحكم من وراء الستار، وهي مؤيدة بالمماليك الأتقياء، وبالذات فارس الدين أقطاي و ركن الدين بيبرس، ولكن يبدو أن

ذكاء شجرة الدر قد خانها عند اختيار ذلك الرجل الملك عز الدين أيبك، فهذا الرجل لم يكن بالضعف الذي تخيلته شجرة الدر، بل بالعكس، فقد كان في منتهى الذكاء، وقد عرف خطورة إخوانه من المماليك البحرية، وخطورة شجرة الدر، فبدأ يرتب أوراقه في حذر شديد، فلم يصطدم بشجرة الدر أو زعماء المماليك البحرية في أول أمره، بل بدأ يعد العدة في تدرج، وبدأ يشتري ممالك خاصة به، ويعدهم كقوة مملوكية عسكرية تدين له شخصياً بالولاء، وانتقى من ممالك مصر من يصلح لهذه المهمة، وكون ما يعرف في التاريخ بالمماليك المعزية نسبة إليه، ووضع على رأس هذه المجموعة أبرز رجائه وأقوى فرسانه وأعظم أسرائه سلفاً، وهو سيف الدين قطز رحمه الله، وهذا أول ظهور تاريخي للبطل الإسلامي الشهير سيف الدين قطز، فقد كان يشغل مركز قائد مجموعة انماليك الخاصة بالملك المعز عز الدين أيبك.

وإن شاء الله في الدرس الآتي سوف نتعرف على أصل سيف الدين قطز وكيف وصل إلى هذه المكانة.

ومع أن الملك المعز عز الدين أيبك نفسه من المماليك البحرية، إلا أن المماليك البحرية بدءوا يغارون منه بشدة، وبدأت تظهر عوامل كبيرة جداً من الحسد بين الطائفتين، فالملك المعز لم يكن له أي قيمة في المماليك البحرية، ومع ذلك وصل إلى كرسي الحكم في مصر، وهناك من المماليك من كانت نه القوة والباع والتاريخ، ولم يصل إلى ما وصل إليه، فهذا يلقب بالملك المعز عز الدين أيبك، وهؤلاء يتقنون بالمماليك، وتشان! فظهرت عوامل الغيرة والحسد من المماليك، وبالذات من فارس الدين أقطاي، وكما يقول المقريزي في كتابه (السلوك لصحرفة دول الملوك): لقد بلغ فارس الدين أقطاي في احتقار أيبك والاستهانة به، فكان يناديه باسمه مجرداً من أي ألقاب، ويقول نه: يا أيبك! فهذه المعاملة من أقطاي جعلت عز الدين أيبك يحس من داخله أن المماليك البحرية، وقد يكون الشعب من ورائهم ينظرون إليه على أنه مجرد زوج للملكة المتحكمة في الدولة، مما جعله

جدياً يفكر في التخلص من زعماء المماليك البحرية، ومع ذلك لم يتسرع. مرت بعض الشهور والسنوات وحدث لقاءان كبيران بين الجيش المصري والجيش الشامي، فقد حاول الجيش الشامي أن يغزو مصر أكثر من مرة، وقد انتصر الملك المعز مرتين انتصاراً باهراً على الشاميين، بل وضم فلسطين مرة أخرى إلى مصر، وكانت الشام قد انفصلت عن مصر بعد وفاة الملك الصالح رحمه الله، ثم بدأ يعيد من جديد تكوين الدولة التي تركها الملك الصالح أيوب رحمه الله، وهذا العمل رفع من قيمته جداً عند الشعب المصري.

ولاية نور الدين علي بن الملك المعز

بعد مقتل الملك المعز عز الدين أيك، ومقتل شجرة الدر ببيع نور الدين علي بن عز الدين أيك، وكان عمره (15) سنة، وهذه تعتبر مخالفة كبيرة ولا شك، ولكن لعله قد وضع في هذا التوقيت لكي يوقف النزاع المتوقع بين زعماء المماليك على الحكم، وتلقب السنطان الجديد بلقب المنصور. وتولي الوصاية عليه أقوى الرجال في مصر في ذلك الوقت، وهو سيف الدين قطز. رحمه الله قائد الجيش وزعيم المماليك المعزية، وأكثر الناس ولاء للملك السابق المعز عز الدين أيك. وكانت هذه البيعة لهذا السنطان الطفل في سنة (655) من الهجرة، وأصبح الحاكم الفعلي لمصر من وراء الستار هو سيف الدين قطز رحمه الله. فمن هو سيف الدين قطز؟ وكيف سيكون الوضع في مصر في سنة (655) وما بعدها؟ وتذكروا أن بغداد قد سقطت في سنة (656) من الهجرة، واجتاحت للشام بعد ذلك كما ذكرنا في الدرس السابق، فكيف سيكون رد فعل سيف الدين قطز؟ وكيف سيعد الجيش المصري والشعب المصري لملاقاة انتثار؟

الباب الأول

الفصل الثاني

قياس حوالج المماليك

المبحث الأول:

أصول المماليك ونشأتهم:

أولاً: من هم المماليك؟

المماليك، جمع مملوك، وهم من الرقيق الذين كانوا يشترون يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القدم، ويعتبر الرقيق الأتراك أول من استخدموا في الجندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، إذ يذكر الطبري بأن نصر بن سيار، والي الأمويين على خراسان، اشترى ألف مملوك من الترك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل، وكانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي لتزريق الأتراك²، وفي العصر، تزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة وإستخدامهم في الجيش³، وتوسعت أسواق للخاسة البيضاء: من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز والقفجاق، آسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان فيهم عنصر الأتراك، وفيهم الشركسة والروم والأكراد وبعضهم من البلاد الأوربية أيضاً⁴، وكان الخليفة المعتصم العباسي (218 - 227هـ / 833 - 842م) أول من شكل فرقا عسكرية ضخمة منهم وأطلقهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من

¹ تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية نقلاً عن بيت المقدس د. النقر ص47.

² تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي للدكتور النقر ص47.

³ تاريخ المغول و المماليك ص61 - 62، تاريخ بيت المقدس ص47.

⁴ المصدر نفسه ص61.

ديوان الجند؛ وقد بلغت مماليك الخليفة المعتصم بضعة عشر ألفاً، وقد امتلأت بهم بغداد مما أدى إلى اضطدامهم بالناس في الطرقات، وأثار سخط أهل العاصمة، فبنى لهم مدينة ضمراء لتكون عاصمة لهم، ومقرّاً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار²، وقد استخدم المعتصم الجيش التركي تخلصاً من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء، وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد إعتقاداً منه بأنه مجردون من الطموح الذي اتصف به الفرس، ومن العصبية التي عرف بها العرب³. ولكن سرعان ما أخذ أوثك المماليك في التدخل في شئون الدولة حتى أمست في أيديهم يفعلون بها ما يشاؤون⁴، وأصبح الخليفة منذ مقتل المنوكل سنة 247هـ/861م في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه⁵، وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء فأساؤوا التصرف في شئون الإدارة والحكم فانفضت الولايات من حول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة للعباسية، بعد أن صار منهم الجيش والقادة، فلما ضعف سلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش وقادته من الأتراك وميلة الخلفاء لتقضاء على التحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العثمانية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب للدولة⁶، والواقع فمنذ العصر العباسي الأول اتخذ مصطلح ((مماليك)) معنى

¹ تاريخ المغنص ص47.

² قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ص12.

³ تاريخ المغول والمماليك مجموعة من المؤلفين ص62.

⁴ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين نقلاً عن تاريخ المغول والمماليك ص62.

⁵ الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص220.

⁶ تاريخ المغول والمماليك ص62.

إصطلاحياً خاصاً عند المسلمين، إذ اقتضت التسمية على فئة من الرقيق الأبيض الذي كان يشتري من أسواق الفخاسة، ويستخدم كفرق عسكرية خاصة ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل الطولونيين، والأخشيديين في مصر¹، والصفاريين والسامانيين في خراسان² وما جاورها، والغزنويين والغوريين في الهند³، أقبلوا على شراء الأتراك الإرقاء لتأكيد سلطتهم وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة في المشرق الإسلامي بزيادة نفوذ الأتراك عموماً ذلك أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية، كما أن التوثنة السلجوقية زادت من الاعتماد على المماليك الأتراك⁴، ويعد نظام الملك الوزير الكبير للسلطان السلجوقي ألب أرسلان ومنكشاه هو أساس النظام التربوي السلجوقي في كتابه سياسة نامه، وقد جاء فيه أنه: يجب ألا يتقن على المماليك القنسين على الخدمة إلا إذا دعت الحاجة ولا ينبغي أن يكونوا عرضة للسهام، ويجب أن يتعلموا كيف يجتمعون على الفور مثلما ينتشرون على الفور، ولا حاجة إلى التكنيف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون الغنمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويجب أن يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص

¹ النمو اعظ والاعتبار للمقريبي نقلاً عن تاريخ بيت المقدس ص 84.

² تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس، يقال ص 97 - 167.

³ تاريخ بيت المقدس ص 48.

⁴ المصدر نفسه.

رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نقباء¹، ونظم نظم الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكاً بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه²، ويعتبر نظام الملك أول من أقطع الإقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد أن كان عطاء الجندي يدفع نقداً صار يعطى إقطاعاً³، فتسّم الأرض إلى المقطعين يضمن عنايتها وعمارتها مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فتحت القلاع والمدن والولايات للقيادة من مماليكهم الذين سموا بالأتاكية⁴، والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك أول من لقب بنقب أتايك، وقد منحه أياه السلطان ملكشاه حين فوض إليه تسيير أمور الدولة سنة 465هـ⁵، وهكذا اتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك ليكونوا مربيين لأولادهم في القصر ومنحهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم وتأديبتهم الخدمة الحربية وقت الحرب، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتاكية أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت فاستغلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً⁶، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عرفت باسم: دويلات الأتاكية؛ وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتاكية، وأسس دولة ضمت الموصل وحلب وديار ربيعة⁷، وعند وفاة عماد الدين زنكي، خلفه ابنه نور الدين محمود وتوسع بالدولة وضم دمشق وقضى على الدولة الفاطمية، وأصبحت مصر من ضمن الدولة للزنكية، وقد توسعت عن

¹ دولة آل سلجوق للأصفهاني ص 113، تاريخ المغول والترک ص 65.

² دولة آل سلجوق ص 76، تاريخ المغول والترک ص 66.

³ تاريخ المغول والترک ص 66.

⁴ صبح الأعشى (4/18)، تاريخ المغول والترک ص 66.

⁵ أخبار الدولة السلجوقية ص 196، 197، تاريخ المغول ص 66.

⁶ تاريخ المغول والترک ص 66.

⁷ تاريخ بيت المقدس ص 49.

الحديث عن عماد الدين ولبنه نور الدين في كتابي عصر الدولة الزنكية، وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يكونون غالبية جيشه¹، وبعد الزنكيين جاء الأيوبيين فأكثرُوا من المماليك الأتراك واستخدموهم في الجيش، وتجدر الإشارة أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان معظمه يتكون من المماليك والأمراء النورية²، وقد سمي مماليك صلاح الدين الأيوبي بالمماليك الصلاحية، كما سمي مماليك أسد الدين شيركوه بالمماليك الأسيديّة، وفي عهد الملك العادل سمي المماليك بالغاندية نسبة إلى العادل، ولما توفي خلفه أبنوه الأشرف: موسى العادل، والكمال، وغيرهم، ونسب عدد من المماليك لكل واحد منهم، فعرف المماليك الأشرفية، والمماليك الكاملية³.

1 - نجم الدين أيوب والمماليك:

ينسب إلى سلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إدخال تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد اتخذ جملة من الإجراءات العسكرية تبناها السلطان الملك الصالح نجم الدين لتقوية الجيش الذي كان يرأسه، ومن أهمها: إهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فضلاً عن حكمة أضف إلى الجيش في دفعة واحدة ما تعداد من أكثر من ألف مملوكاً تركياً جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)، ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين⁴، وغيرها من الأماكن. وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالبية المتميزة للجيش الأيوبي وسرعان

¹ المصدر نفسه صـ49.

² كتاب الروضتين (1/155)، تاريخ المغول وأترك صـ68.

³ تاريخ المغول والترك صـ69.

⁴ الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ109.

ما شكّلوا نواة عسكرية - سياسية نشطة تحولت إلى نواة المماليك البحرية، بعد أقل من بضع سنين على وفاة الملك الصالح لتختفي تدريجياً العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي، كالبربر والسودان، ومن أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الآتي:

أ - الصالحية:

وهي القوة العسكرية الجديدة من المماليك الأتراك بنسب (الصالحية) نسبة إلى الملك الصالح أيوب نفسه، ومن الواضح أن الملك الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً اسم البحرية، والتي قدر لها أن تتحضر بنور خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف، ومما يقوله: ابن تغري بردي نقلاً عن ابن واصل مؤرخ الأيوبيين: اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره وأرجحهم على الأكراد وأمرهم¹، ويبدو أن الملك الصالح أراد أن يشكر المماليك في مساعدتهم له للوصول إلى دست السلطنة، ولذلك عمل منهم جيش قوي يساعده في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية بعد أن تمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة مما دفعه إلى الاعتماد على تلك الفرقة الجديدة وترجيحهم على العناصر الأخرى السائدة²، وأما عن السبب في تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى إختيار السلطان الملك الصالح نجم الدين جزيرة اروضة على بحر النيل مركزاً لهم ولتكناتهم العسكرية وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد انفجاق شمال البحر الأسود ومن بلاد القوقاز، قرب بحر قزوين، وقد كان للأتراك انفجاق، ميزاتهم الخاصة

¹ الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص 110.

² المصدر نفسه ص 110.

بين طوائف الترك العامة من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلاً عن الشجاعة النادرة، ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم وقد كانوا قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي واحتلوا نتيجة لتبليهم ثقة واعتماد السلطان رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب مثل المكانة التي كان يتمتع بها مقدمهم ركن الدين بيبرس والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة وفيما بعد في انمعاك ضد الصليبيين الفرنج وخاصة معركة المنصورة¹.

ب - فتكات المملك الصالحية في جزيرة الروضة:

اتخذ الملك الصالح أيوب نمائيكه قاعدة في جزيرة الروضة تعرف قلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجعلها مقراً لهم وشرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي 637هـ/1239م و638هـ/1240م، ولتطوير هذه التكتلات هدم الكثير من الدور والتصور والمساجد التي كانت في الجزيرة وأدخلت في نطاق القلعة مشيداً فيها مبانٍ كثيرة منها ستين برجاً وأقام بها مسجداً وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار، ومن شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأزواد والأقوات وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة، وكان السلطان يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها، وقد عمل كل ذلك من أجل أن ينتقل من قلعة الجبال ويمكن مع مسائيكه البحرية².

ج - هل السلطان الصالح نجم الدين هو أول من سمي المملك البحرية بذلك؟

إن معظم المؤرخين السابقين والموحدتين أجمعوا على أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو أول من رتب المسائيك البحرية وأول من سماهم

¹ انحصر نفسه ص 110.

² الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص 114.

بذلك نسبة إلى بحر النيل الذي أحاط بتكناتهم في جزيرة الروضة، غير أن هذا الرأي لا يستند إلى أساس صحيح للأسباب التالية:

— المؤرخون المعاصرون للصالح أيوب أمثال ابن واصل وأبي شامة لم يثيروا إلى بحر النيل كأصل لكلمة بحرية، هذه النسبة أوردها بعض المؤرخين المتأخرين من أمثال المقرئزي وأبي السحاسن¹.

— من المعروف أن الفاطميين من قبل كانت لهم طائفة من الجند تعرف بالبحرية، كذلك كان لسلطان العادل الأول جد الصالح فرقة من المماليك، أسماها البحرية العائلية، وهذا يدل على أن المالك الصالح أيوب لم يكن أول من اخترع هذا اللفظ.

— يزوي الخزرجي أن سلطان اليمن نور الدين عمر بن رسول (ت 647هـ) الذي كان معاصراً للصالح أيوب في مصر، استكثر من المماليك البحرية حتى بلغت عدتهم ألف فارس وكانوا يحسنون الفروسية والرمي ما لا يحسنه مماليك مصر، وكان منهم في حلقته وعساكر أمرائه، هذا النصر يدل على أن لفظ بحرية استخدم في بلاد إسلامية بعيدة كل البعد عن بحر النيل².

— أطلق المؤرخون العرب المعاصرون على بعض الفرق المسيحية العسكرية التي جاءت من أوروبا إلى الشام أثناء الحروب الصليبية اسم الفرنج الغرب البحرية، فيروي أبو شامة أنه في سنة 593هـ فتح الملك العادل يافا ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون فارساً من الفرنج البحرية، فلما تحققوا نقيب القلعة وأخذها دخلوا كنيسها وأغلقوا عليهم بابها وتجادوا بميوافهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن

¹ في التاريخ الأيوبي والمملوكي، أحمد مختار ص 85.

² الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة للصليبي ص 341.

الفرنج ممتعون فألقوهم قتلَى عن آخرهم فمجبوا من حالهم¹. فلفظ بحرية
 إذن لم يكن جديداً على مصر حينما أنشأ الملك الصالح أيوب فرقته البحرية،
 بل كان لفظاً عاماً أطلق على المسلمين والمسيحيين سواء، كما استخدم في
 مصر وفي خارج مصر قبل عهد الصالح أيوب، وهذا يزيد القول بأن نسبة
 هذا اللفظ إلى بحر النيل أمر مشكوك في صحته، وأغلب الظن أنه سموا
 بحرية لأنهم جاءوا من وراء البحار². وجوانفيل الذي حارب المماليك
 البحرية الصالحية في حملة لويس التاسع وأسر عندهم وتحدث إليهم،
 وروايته لها قيمتها بصفته رجلاً معاصراً وشاهد عيان، وإذا علمنا أن
 المماليك البحرية زمن الأيوبيين والمماليك عبارة عن فئة من الغرباء الذين
 جلبوا من أسواق النخاسة بآنقواز وآسيا الصغرى وشواطئ البحر الأسود،
 ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط، حيث
 يسرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو مينايط تأيدت لدينا عبارة جوانفيل³.

ثانياً: نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك:

كان الصالح أيوب - ومن تبعه من الأمراء - لا يتعاملون مع
 المماليك كرفيق، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كانوا يقرّبونهم جداً
 منهم لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التي تربط بين
 المالك والمملوك هي رابطة السيد والعبد أبداً، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو
 رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، وهذه كلها روابط
 تعتمد على الحب في الأساس، لا على القهر أو العنف، حتى أنهم كانوا
 يطلقون على السيد الذي يشترهم لقب (الأستاذ) وليس لقب السيد⁴. وكانت

¹ في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص 86.

² المصدر نفسه ص 86.

³ المصدر نفسه ص 87.

⁴ قصة التتار من البداية إلى عين جالوت ص 214.

المدة التي يقطعها المملوك ليُعتبر منتهياً من تعليمه نمر بمراحل ثلاث:

1 - المرحلة الأولى:

تبتدئ من الصغر إلى سن البلوغ، حيث كان المماليك يجلبون صغاراً، تحقيقاً لرغبة الملوك والسلاطين ثم يوزعون على طباق انقلعة حسب أجناسهم، تحت إشراف جهاز إداري محكم يتولى شؤونه في التعليم والتدريب والإعداد العسكري وكان هذا الجهاز يتكون من الموظفين المختصين بشئون الجيش وبخلفيات الأمم التي يفتخرون إليها وباندين الإسلامي الحنيف¹، فأول ما يبدأ به المماليك في المرحلة الأولى تعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، وكل طائفة فقيه يأتيها كل يوم ويأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة نخط والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة النسلوات والأحكام²، وكان من ضمن المنهج الدراسي الخاص في هذه المرحلة الإهتمام بالتمرينات والألعاب الرياضية مدة من الزمن، وكانت الصلاة تؤدي في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة حتى تؤدي على وجهها الصحيح، وحتى تصبح ملكة عند المماليك من صغرهم، ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتها في مناسباتها وأهم ما في هذه المرحلة: إبراز التعاليم الدينية في صورة تعلقهم بها، حتى يصبح أحب شيء إليهم هو الجين والأخلاق القاضية³.

إن الفقهاء والعلماء والمؤدبين الذين أشرفوا على تربية المماليك ساروا على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستفادة من القرآن الكريم وتربية الأتباع على معاني العقيدة الصحيحة والتصور الصحيح عن الله عز وجل، ومن أهم الجوانب التي اهتمت بها التربية الدينية في هذا

¹ الحملات الصليبية للصليبي ص 338.

² انصهر نفسه ص 340.

³ أباطيل يجب أن نحمي ص 339، خطط المقريري (3 - 346).

الجانب:

— إن الله منزّه عن النقائص موصوف بالكمالات التي لا تنتهي فهو سبحانه الواحد لا شريك له؛ ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

— وأنه سبحانه خالق كل شيء ومالكه ومدبر أمره "ألا له الخلق والأمر" (الأعراف، آية: 24).

— وأنه تعالى جده مصدر كل نعمة في هذا الوجود، نقت أو عظمت: ظهرت أو خفيت 'وما بكم من نعمة فمن الله' (النحل، آية: 53).

— وأن علمه محيط بكل شيء، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى الإنسان وما يعطن: 'وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً' (الطلاق، آية: 12).

— وأنه سبحانه يخفي على الإنسان أعمانه بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب "مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً" (الكهف، آية: 49).

— وأنه سبحانه يبتلى عباده بأصعب تخالف ما يحبون، وما يهرون فيعرف الناس معادتهم، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره ويسلم له ظاهراً وباطناً فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومنهم من يغضب، ويسخط فلا يساوي شيئاً ولا يستد إليه شيء "الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" (الملك، آية: 2).

— وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر: 'إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين' (الأعراف، آية: 196).

— وأنه سبحانه، حدد مضمون هذه العبودية وهذا التوحيد في القرآن

الكريم.

إن تربية أفراد الأمة على المعاني الإيمانية والتصورات الصحيحة

خطوة مهمة في نهوض الأمة وتحتاج التذكير والتعليم والتربية لكل أفراد المسلمين، وقد ظل صلى الله عليه وسلم يطرق مع أصحابه هذه الجوانب ويكررها عليهم وعلى من آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور والكون المسطور حتى خشعت قلوبهم وسلمت أرواحهم وطهرت نفوسهم، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول وإدراكهم القديم¹.

واهتم صلى الله عليه وسلم بغرس حقيقة التصير وسبيل النجاة لأصحابه مؤكداً أن من عرف منهم عقيدته وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسئوك هذا السبيل، حتى يظفر غداً بهذه النجاة وذلك الفوز، فقد ركز صلى الله عليه وسلم في هذا البيان على الجوانب التالية:

— إن هذه الحياة الدنيا مهما طاللت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم، فإنه قليل حقير: 'إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا نيلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً كان لم تمنع بالأس كذلك تفصل الآيات تقوم يتفكرون' (يونس، آية : 24 'قل متاع الدنيا قليل' (النساء، آية : 77).

— وأن كل الخلق إلى الله راجعون، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون، 'أحسب الإنسان أن يترك سدى' (القيامة، آية : 63).

— وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارته في الدنيا وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا:
"أفأريت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما

¹ منهج الرسول في غرس الروح الجهادية للدكتور سيد نوح ص 10 - 16.

أغنى عنهم ما كانوا يمتعون" (الشعراء، آيات : 205 — 207)، تكلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية" (الحاقة، آية : 24).

— وأن الناس مع زوال الدنيا واستقرارهم في الجنة، أو في النار سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد 'بأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم يرونها تذهن كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد' (الحج، آيات : 1 — 2)، وقال تعالى: 'وكيف نتقون لئن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولاً' (المرسل، آيات : 17 — 18).

— وسبيل النجاة عن شر هذه الأهوال ومن تلك الشدائد والضفر بالجنة واليعد عن النار¹، وبالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته 'إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير' (البروج، آية : 11).

— ومضى صلى الله عليه وسلم كذلك يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وذل صلى الله عليه وسلم معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقح في ذهنهم ما لهم عند الله وما دورهم ورسالتهم في الأرض، وتأثراً بقربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم وما في طاقتهم دون كسل أو توان، ودون كلال أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع من مغرم إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة².

إن الفقهاء والعلماء الذين تولوا مهام تربية وتعليم المماتك في نهاية

¹ منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في غرس الروح الجهادية ص 19 — 34.

² منهج الرسول في غرس الروح الجهادية ص 37.

عهد النونة الأيوبية حرصوا على الإعداد الرباني وكانت خطواتهم تتم بكل هدوء وتدرج وانصبت أهدافهم التربوية على تعظيم الكتاب والسنة وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها وإعداد الأفراد لتحمّل تكاليف الجهاد والدفاع عن حياض الإسلام والهجوم على أعدائه وقد غرست تلك التربية الكثير من القيم الأخلاقية، كالإخلاص لله وللصبر، والتوكل والاستعانة وكثرة الدعاء والثبات والخوف والحذر من الله عز وجل، وكان لهذه التربية المتميزة أثرها على أطفال وشباب المماليك فنشأوا على تعظيم أمر الدين الإسلامي؛ وتكونت لديهم خلفية واسعة عن الفقه الإسلامي، وأصبحت مكانة العلماء عالية عند المماليك طيلة حياتهم وهذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي وجدناها في عهد المماليك.

2. المرحلة الثانية:

وهي التي تبدئ بسنّ التلوغ حيث يشرع في تعليمه فنون الحرب من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل، ويراعى في هذه المرحلة الأخذ بشدة، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ وإنما يعاقب عقاباً قاسياً إذا بدا عليه الشنوء في أخلاقه أو الانحراف عن المبادئ الدينية، ثم يقسمون إلى فرق يتولى كل منهم معلم في العلوم الرياضية والتدريبات العسكرية، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة مثل السباحة والعموم لمسافات طويلة والمبارزة، ولعب الكرة راجلين وراكبين، وأما في أوقات الفراغ فإنهم يتركون إلى هواياتهم العملية أو الأدبية أو الأدبية، ومن هنا ندرك السر في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء والشعراء والكتاب البارزين¹.

وقد كان لهم خداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً ويؤخذونه أشد المؤاخظة ويناقشونه على تحركاته وسكناته فإن عثر أحد

¹ أباطيل يجب أن تعفى من التاريخ ص 340.

مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنباً أو أحل برسم أو ترك أدياً من آداب الدين أو الدنيا قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جرمه فلذلك كانوا سادة يبيرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبائعون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدي¹.

3. المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية، ووضوح الاتجاهات والكفايات السياسية؛ وفي هذه المرحلة تحقد المبارزات بين المماليك، لمعرفة عقار السهارة التقنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يرسلون إلى ميادين القتال ليعرف بلادهم هناك، ثم يكافأ المبرزون منهم بمنحهم الحرية، وعقبتهم من الرق، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب كائنين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ثم اعتقيهم ووضع ائمانهم في بيت مان المسلمين، ويوضعون في وظائف عسكرية صغيرة، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة، فيمنحه السلطان لقبها، ثم يترقى في ملكها، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه وعبقريته إلى منصب السلطنة ورياسة الدولة²، وبفضل الله ثم هذه التربية المتميزة نبغ من بين هؤلاء من خلد التاريخ بطولاتهم، وسجل على صفحاته امجاداً عظيمة للمسلمين من تصديهم للمشروع المغولي والقضاء على الوجود الصليبي في نيار المسلمين، يقول بروكلمان في شأنهم؛ وعدت الاجيال التالية عصر بييرس كما عدت عهدي الرشيد وصلاح الدين — أحد العصور انذهبية في الإسلام³.

¹ الخطط (213/2 — 214)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص 84.

² مصر في عهد بناء للقاهرة ص 169 وما بعدها إبراهيم شعوط.

³ تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن أياضل يجب أن تمحي ص 341.

4 . نظام الأكل والشباب والراحة:

كان تعليم المماليك نظام دقيق، فليس لهم أن يخرجوا من مقرهم، إطلاقاً، لا سيما ليلاً، وكان عليهم أن يذهبوا إلى الحمام يوماً في الأسبوع، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحنوى، والفول المسلوق وغير ذلك، وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة، وقد يأخذون مرتباً قليلاً قد يصل إلى ثلاث أو عشرة دنانير في الشهر¹، وكان السلطان يذهب ليتفقد أحوالهم من طعام وغيره، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالخروج من الطباقي والمبيت خارجها في القاهرة، بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم، ويلاحظ المقريري أن ذلك جرّ إلى تسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباقي وأنهم أخذوا إلى البطالة، وسعوا إلى نكاح النساء: حتى صدرت المماليك أرذل الناس وأدناهم².

5 - نظام التخرج وإنهاء الدراسة:

كانت الدراسة في الطباقي بين أربعة أو خمسة عشر شهراً، وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين، فإذا إنتهت الدراسة، أعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة ويقام له إحتفال خاص يحضره السلطان والأمراء وذلك بناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقه³، فسُم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً ((قماشاً)) وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وحينئذ يسمى عتقياً أو معتوقاً — جمعها معاتيق — ومعتقه يسم أستاذه أما رفاقه المتحررون معه، فيسمون خشداشية⁴، مفردها خشداش وكان المماليك المتخرجون يقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب، أما الذين يصلون إلى الإمارة وهي مرتبة تهيء

¹ الخطط (348/3) دولة المماليك، سمير فراج ص32.

² دولة المماليك، سمير فراج ص32.

³ للمصدر نفسه ص32.

⁴ أي زميل الخدمة.

الوظائف الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش أو حتى للسلطنة نفسها وكان من المفروض أن المملوك لا يحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، فلا يليها إلا وقد تهنبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج بروح الإسلام وبرع في اثنتون الحربية، بحيث من كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب، لذلك كانوا سادة يديرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة.

6. لغة المماليك:

هي اللغة التركية، وهي لغة مملوغة بالفارسية والعربية حتى لو لم يكونوا تركاً، فعند كبير من سلاطين المماليك وأمراءهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية¹، ومع ذلك، فكثير من المماليك أتقن العربية وأصبح فصيح اللسان، وله مسائل في الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء².

7. رابطة الأستاذية بين المماليك:

كانت أقوى الروابط بين المماليك هي رابطة الأستاذية بين الأستاذ ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكي يضمن ولاءهم وكان الملك المنصور قلاوون يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليهم ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والأستاذار، ونهرهما، وحلّ بهما أي مكروه³. وكان يقول: كان الملوك يعلموا شيئاً

¹ المصدر نفسه ص33.

² المصدر نفسه ص33.

³ السلطان المظفر سيف الدين قطز ص47، د. قاسم عبده.

يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً مانعة
 لي لأرلادي وللمسلمين، وهما المماليك؛ وكانت المماليك تقيم بهذه التطبيق¹.
 لا تبرح فيها². وهذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية
 والعلاقات داخلها، فالسلطان - وهو مملوك في الأصل - يدرك أهمية
 المماليك في حماية عرشه وأسرته، ويفهم بأنهم مثل الأسوار والجصور
 المناعة، كما أنهم عمل يخذ اسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى
 يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة (الأسنادية) التي ربطت برابطة
 الولاء الشخصي بين السيد ومماليكه. فواجبه أن يرعاهم ويغذي عليهم
 ويعتني بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته³.

8 - رابطة الخداشية (الزمانية):

وهي من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة،
 وتفسر ذلك أن هؤلاء الذين جلبوا أطفالاً، ثم عزلوا عن المجتمع في
 معسكرات صارمة القوانين، وعاشوا حياتهم المبكرة في سن الشباب سرياً، لم
 يكونوا يحنون الأمان والطمأنينة سواء سع بعضهم البعض، ولهذا تميزت
 انفرقة المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي، فالمماليك كانوا
 عادة ينتمون إلى السلطان الذي اشتراهم، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى
 الظاهر بيبرس، والمعزية نسبة إلى المعز آيبك، والناصرية نسبة إلى
 الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا، ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى زيادة
 نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم⁴.

¹ التطبيق:

انتكعات العسكرية.

² الخطط (2 - 213)، السلطان المظفر ص 47.

³ السلطان المظفر سيف الدين قطز ص 48.

⁴ للمصدر نفسه ص 52.

ولقد أحسن السلاطين الذين جمعوا بين التربية الدينية والتدريب العسكري للمماليك في معسكراتهم، ولذلك نجد هؤلاء المقاتلين الأفذاذ في الفترة الأولى من عهد المماليك يتميزون بالحماسة والثغرة على البلاد والمقدسات الإسلامية وهو الأمر الذي تجلّى واضحاً على تصديهم للمشروع المغولي وقضتهم على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام.

9 . هل هؤلاء أجلاب؟

لا يمكن أن نتخيل مدلول كلمة ((المماليك)) بمعنى الرقيق المجلوب من أسواق النخاسة بالنسبة لكل هؤلاء المماليك، لأننا نعلم أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى دخلوا في خدمة سلاطين مصر، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع انتركية، جيل جديد من الحكام، بسط سلطانه على مصر وسوريا حتى انفتح العثماني، كما أن بعض هؤلاء السمائيك، كان من سلالة ملكية يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه، مثل السلطان ((قطلز)) بطل سوقعة عين جالوت، ولقد كفل نظام تربيتهم التدقيق، الذي يفوق نظام الداخلية الآن في أي مدرسة أو جامعة أو كلية عسكرية كفل لهؤلاء القوم، صيانة مركزهم الأدبي، كما أتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم، وفتح فرصة الظهور في المجالات المختلفة مما عاد على البلاد بالخصب والغنى، وعلى العلم والثقافة والفنون، بما فاق كل إنتاج علمي وثقافي وفني في العالم الإسلامي².

10 . الكليات العسكرية الحديثة:

إن الدول العربية والإسلامية في يومنا هذا، عليها أن تعيد النظر في عقيدة جيوشها، وأن تربي المنتسبين إليها على العقيدة للصحة، والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة، وتجارب الحروب في تاريخ أمتنا، وسنن الله في

¹ المصدر نفسه ص 51.

² أيضاً يجب أن تصحح ص 341.

بانتصار الأمم وهزيمتها، وهذا يحتاج إلى إعادة النظر في برامج الدراسة، والقائمين عليها، ولا ننسى أبداً أهمية الاستفادة من التكنولوجيا المعاصرة، والحرب النفسية وتطوير السلاح ومعرفة أسرارها والعمل بقول الله تعالى: **وأعدوا ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخريين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**" (الأنفال، آية : 60).

11 - الشيخ عز الدين عبد السلام بائع أمراء المماليك:

رأى الشيخ عز الدين عبد السلام أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين واستغلهم في خدمته وجيشه، وتصريف شؤون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراءً، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن لرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمتم على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمم، لا يصحح لهم بيعاً ولا شراءً، ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكئن من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال: نعقد لكم مجلساً وينادي عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عنقكم بطريق شرعي فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبحث إليه، فلم يرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ - رحمه الله - في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به¹، وهنا أدرك الشيخ اعز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، وتنفيذ الأحكام التي لا تفرق - في الدين - بين كبير وصغير، وحاكم ومحكوم وأمير ومواطن، فلجأ إلى سلاحه

¹ صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء ص 31.

الضعيف اباهت في ظاهره انقوي الفعال المدمر في حقيقته وجوهده وسنده، وأعلن الإنسحاب وعزل نفسه عن القضاء وقرر الترحيل عن القرية الطائم أهلها والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً، وحمل أهله، ومثاعه على حماره وركب حماراً آخر وخرج من القاهرة، وما انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحركت جموع المسلمين وراءه فم تكن امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤوبه إليه بخلف، ولا سيما العلماء والصالحين، والتجز، وأمثالهم ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة والأمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت، ورفعة التقارير حول هذه الظاهرة إلى القاهرة، وكانت الترتيبات: متى راح ذهب منك فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه: فرجع أن ينادى على ملوك مصر وأمراتها ويبيعهم، وأرسل إليه كبيرهم — نائب السلطان — بالملاطفة والشيخ لم يتغير، لأنه يريد تنفيذ حكم الله، عندئذ إتزعج نائب السلطان وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف في يده صلتاً وطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جليلاً، وعاد إلى أبيه، وأخبره الحال، فقال بائع الأمراء ممثلاً بربيه، قائلاً لولده: يا ولدي: أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرانصه وسقط أرضاً فبكي، وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً: يا سيدي، خيراً أي العمل؟ فقال الشيخ أنادي عليكم وأبيعكم، قال نائب السلطان: ففيمما تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين قال نائب السلطان: من يقضيه؟ قال الشيخ: أنا وأنفذ الله أمره على يد الشيخ — رحمه

الله — فباع الأمراء منادياً عليهم واحد تلو الآخر وغلى سلطان العلماء في ثمنهم وقبضه وصرقه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد¹. ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه (بائع الملوك) واشتهر أمره في الآفاق، وسجل له التاريخ موقفاً فريداً لم يشهده العالم أجمع، وعلا صوت الحق، وعز العلماء وتم تطبيق شرع الله تعالى، وهزم الباطل وطاشت سهام السلطة والقوة المادية، أمام سلطان الله تعالى، وأحكامه، وصدق على العز حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'أفضل الجهاد كُمة حق عند سلطان جائر'². وعاد العز إلى عرينه في كنف الله تعالى ورعايته وهو الثقاتل: "إن الله يدفع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفر" (الحج، آية : 38)، والثقاتل: "والله غائب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (يوسف، آية : 21).

12 - عصر الأفتاد:

هذه التسمية انفرد بها علي حسب علمي اشيخ محمد محمد حسن شراب حيث قال: لا أنري من الذي أضاف هذا العصر إلى لفظ (المماليك) ولا أعرف من أول من أعطاهم هذا لقب، إن كان الذين وضعوا هذا الوصف (المملوكي) هم العرب، فإنهم والله أساءوا إلى من أحسن إلى بلادهم، وإن كان الذين وضعوا هذا الوصف هم التخربيين الأوربيين كان علينا أن نعرف أن الأعداء لا يصفون عهودنا التاريخية إلا بأحسن الصفات إليهم، وأبغض الصفات إلينا، فما كان لنا أن نقلدهم ونسير على هديهم، فالغربيون الصليبيون يحققون على عصر صلاح الدين، وعلى عصر (الأفتاد)، وقولهم (المماليك) إنما هو لقب (نم)، هم يحققون على هؤلاء الأفتاد، لأنهم حرموا الصليبيين من تحقيق أطماعهم في العودة إلى القدس،

¹ المصدر نفسه.

² العز بن عبد السلام ص 182 للزحيلي.

ذلك أن الحملات الصليبية لم تفتقر بعد صلاح الدين وذكرنا قول هذا أنهم دخلوا القدس مرتين بعد أن حرره صلاح الدين، وكانت بقيت لهم ممالك وحصون كثيرة على الساحل وهؤلاء الذين نلقبهم (المماليك) هم الذين نظفوا البلاد من الصليبيين وأزالوا آخر مملكة صليبية سنة 690هـ/1291م أي: بعد فتح القدس بمائة سنة.. وهؤلاء الذين نصفهم بالمماليك، هم الذين هزموا أكبر غزو وحشي على البلاد الإسلامية، بعد الغزو الصليبي ألا وهو الغزو المغولي، ومعركة عين جالوت تتحدث عنها الركبان، وتعد رمزاً لقوة الإسلام.. وعهد هؤلاء الأفاضل العلمي من انجهد الزاهرة وأثارهم العلمية والعمرانية شاهدة لتاريخهم المجيد، فقد عدت لهم في القدس وحدها خمس وثلاثين مدرسة لتعليم العلوم النافعة، وعشرات المساجد، والبنيات والأوقاف والأريطة والإصلاحات¹، إنهم إذا كانوا مماليك، فإنهم في رأيي مماليك الإحسان عل معنى قول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسان إحسان

فأولئك أحسوا في قرارة نفوسهم إن الله أحسن إليهم عندما جلعهم مسلمين وحكاماً، فامتلك قلوبهم هذا الإحسان، لم يفخروا بنسب ينتمون إليه، وإنما فخروا بأعمالهم التي خلقتهم، ومن حقهم علينا، أن نلقبهم بأحب الألقاب إليهم في حياتهم، ومن حقهم علينا أن نذكرهم في التاريخ بالنسبة التي تكال على الوفاء لهم جزاء ما قدموا للعرب والمسلمين، ومن الأوصاف المناسبة لعصرهم أن نقول: عصر الأفاضل².

ثالثاً: جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة:

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة توفي الملك الصالح

¹ بيت المقدس والمسجد الأقصى ص 424 - 425.

² المصدر نفسه ص 426.

أيوب، وكانت محنة عظيمة أمت بالمسلمين¹، وكان عمره عند وفاته 44 سنة، وقد عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ولم يكن موجوداً في مصر، وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجرة النر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين علي الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة، ولم يعرف ذلك إلا الخاصة وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين اسمه تورانشاه قنطاً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان أثناء مرضه، وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر 1249م، ومنها تقدموا إلى شبر مساح ثم البرامون وأصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين، وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية واقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشمون، ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين، فقد أمطرهم تسلسون وإيلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة - نلهم عليها أحد العربان وفي رواية أحد الأقباط²، بعدما رشوه بالمال، تمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو ولخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة؛ وعبرت القوات للصليبية في عجز الثامن من فبراير عام 1250م وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات

¹ الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ص 353.

² تاريخ الأيوبيين ص 85.

الصليبية الكونت آرتو الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغسل بذلك عار إسحاياه من جيزة دمياط واعتبر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية وأراد أن ينفرد بشرف النصر نفسه¹.

1 = معركة المنصورة:

اغتر روبرت آرتو بقوته، ونابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توصلات الرلوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيلة والحذر، ثم بادر: باقتحام المنصورة²، فأضحت المنصورة ساحة لحرب الشوارع وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري فأقام جنده في مراكز مضيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ونما أتركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي إتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خرج عليهم تمسانيك في شوارع والحدارات والتدرب وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرنسيين ولم يفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يقتل في أطراف المدينة³، وكانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي⁴، وأول ابتداء النصر على الفرنج، وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة لكنه تمكن

¹ تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد ص 312.

² الحملات الصليبية الرابعة الخامسة، السادسة والسابعة ص 356.

³ الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون ص 150.

⁴ السلوك (I - 448)، تاريخ الأيوبيين ص 386.

نفسه، وبندر إلى إقامة خط إمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فرسان المماليك ضد قواته، كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير عبر عليه النيز مع رجاله ووزع رساته على انطرف البعيد بالنهر حتى يكفلوا الحماية للجنود عند عبورهم متى دعت الضرورة إلى ذلك، لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه وأجبر المسلمين على التراجع نحو المنصورة؛ وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا موقف الصليبيين أخذ يزداد سوءاً بسرعة واضحة، بعد أن قلت المؤن، كما فقدوا نسبة مرتفعة من فرسانهم في معركة المنصورة، وانتشرت الأمراض في معسكرهم، وظن الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، أملاً بأن يحدث انقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي.¹

2 - تورانشاه يقود المعركة:

وصل تورانشاه إلى المنصورة في 17 ذو القعدة 647هـ/21 شباط 1250م بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، فأعلنت عندئذ وفاة الصالح أيوب وسلمته شجرة ندر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين². وكان وصوله إلى مصر إيذاناً بإحداة إرتفاع الروح المعنوية عند المصريين وبين صفوف المماليك وتيمّن الناس بطالعه³. وأمر بإنشاء اسطول من السفن الخفيفة نقلها إلى فروع النيل السفلى وأزنها في القنوات المنقرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقطع بذلك الطريق

¹ المصاحف الصليبية لتصلاحي ص-356.

² السنوك (1 - 449)، تاريخ الأيوبيين ص-387.

³ شجور الزاهرة (6 - 364).

عليها وحال دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط¹، وقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم قذرتها المصادر بما يقرب من ثمان وخمسين سفينة، انقطع المدد من دمياط عن الفرنج ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرّون على الذهاب وتشمع المسلمون وطعموا فيهم وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة في ظل هذه الأوضاع وبدأ يفكر في العودة إلى دمياط وفعلاً أسر بالإرتداد وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يطاردون جيشه لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع تورانشاه على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس²، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة وكان طبيعياً لأن يرفض تورانشاه هذا الاقتراح وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح المحرم عام 648 هـ / نيسان عام 1250م بدأت عملية المهندسون الصليبيون على أن يدمروا الجسر الذي أقاموه لإجتياز البحر الصغير فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية سطردة منظمة، وهجموه من كل ناحية³، وبفضل ثبات الملك الفرنسي وحسن إدارته بعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عنماً في فارسكور ولم يقو السلك على القتال، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، ووقع كل أفراده تقريباً بين قتلى وجرحى وأسرى، حيث سيق مكبلاً إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم

¹ المصدر نفسه (6 - 364).

² تاريخ الأيوبيين ص 288.

³ انحورم الزاهرة (6 - 364)، تاريخ الأيوبيين ص 388.

بن لقمان وعُهد إلى الطواش صبيح بحراسته وخصّص من يقوم بخدمته، وكانت معظم الحرب في فارسكور، فبلغت عدّة القتلى عشر¹ آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثّر وأسر من الأفرنج عشرات الألاف بما فيهم صناعهم وسوقتهم، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة وأبليت الطائفة المملوكية البحرية - لا سيما ببيرس البندقاري - في هذه المعركة بلاء حسن وبنان لهم أثر جميل¹.

3 - صور من شجاعة المماليك:

تعددت صور شجاعة هؤلاء المماليك في التعدي لأعداء الإسلام وشهد التاريخ ببسالة النور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين فذكر حوانقيل أن الكونت بوتيه وللكونت فلاندر وبعض قادة قواتهم كان يرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه: أن يقصر عن الجريمة لعجزهم عن متابعتها لضغط المماليك الشديد عليهم². ويقول ثم جاء للكونت بل جندي كان يعمل صولجائاً ويرتجف خوفاً وأخبره أن الترك قد أحرقوا بالملك وأنه في خطر عظيم فرجعنا، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك والملك قريب من النهر والمماليك يدفعون قواته ويضربون السيوف والصونجانات وأرغم القوات الأخرى على التقهقر³، وقد وصفهم أحد المؤرخين عن تلك المعركة بقوله: والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف فله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه من حديد، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالأفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين وأسود الترك لأكتاف خنازير الأفرنج

¹ نهاية الأرب في فنون الأدب (356/29).

² السلوك (450/1) الحملات الصليبية للصّلبي ص 358.

³ الجوزي والغلمان في مصر، نجوى كمال ص 403.

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة وأزروها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم فاستحالت عودة لفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط نجلب المؤونة، وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً مما أضعفهم وطلبوا الصلح².

4- لويس التاسع في الأسر وشروط الصلح:

لم يهتم المسلمون كثيراً، بعد انتصارهم، بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك ففكروا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بن تخلص الملك كوراد ابن الإمبراطور فريديريك الثاني³، وعبثاً حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف وأصرّ لويس التاسع على رأيه، وقال: أنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون⁴، فبأمر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع لكنه قرّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح، إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن:

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مليون بيزنطة وهذا مبلغ كبير.
- يطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يسلم دمياط إلى المسلمين.

¹ المصدر نفسه ص 404، كثر التردد (376/7).

² الجواربي والغلمان في مصر ص 405 — 406.

³ مكرت جوائقيل ص 157، 159 — 161.

⁴ تاريخ الأيوبيين ص 389، حملة لويس التاسع ص 206.

— يستمر الصلح مدة عشر سنوات¹.

ووفق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها²، وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمينط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو بعدما ظنت في أيدي قوات لويس. ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر انشركي إلى جزيرة دمينط، ثم تابعهم باقي الصليبيين.

وفي يوم الأحد الرابع من صفر عام 648هـ الموافق الثامن من مايو عام 1250م أُنشعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة قلوب الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم وحلت بها الكوارث³.

5 - من أسباب هزيمة الصليبيين في الحملة الصليبية السابعة:

ساهمت مجموعة من الأسباب في هزيمة الحملة الصليبية السابعة

والتي من أهمها:

أ — لتضيق العسكري في الجيش الأيوبي.

ب — وحدة الصف الإسلامي.

ج — هبة للقيادة الإسلامية.

ح — نزول العلماء والفقهاء أرض الجهاد.

خ — جهل الفرنجة بجغرافية البلاد الإسلامية.

د — خطأ كبير في تقدير العامل الزمني.

ذ — العصيان وعدم الطاعة عند الصليبيين.

ر — إنحلال الحملة السابعة خفياً.

¹ تاريخ الأيوبيين ص389.

² المصدر نفسه ص389.

³ تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد ص315.

ز - فتور الروح الدينية عند الصليبيين.

س - التهور وقصور النظر.

وقد فصلت في شرح الأسباب المذكورة في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة¹.

6 - من نتائج الحملة الصليبية السابعة:

لقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام 1250م/648هـ مجموعة

من النتائج من أهمها:

أ - إرتفاع شأن ومكانة المماليك: فقد تبين بوضوح الدور البارز الذي قام به المماليك في معركة فارسكور وكيف أن جهادهم أعداء الإسلام كلل بالنجاح، وفي حقيقة الأمر، أن ذلك الدور كان له أثره في ارتفاع شأنهم وبذلك سيصبح لهم السند التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريباً أن النعم الذي شهد الانتصار على الغزاة وهو عام 1250م/648هـ هو ذاته الذي شهد نهاية نورانشاه حريقاً غريباً تنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك الأفاضل لتدافع عن الإسلام²، بقوة وعزم ونشاط وحيوية جهادية رائعة.

ب - عجز فرنسا عن تحقيق أهدافها: والملاحظ أن فعاليات فرنسا في دعم الحركات الصليبية وفي التوجه إلى البعد الأفريقي نالها الخسران المبين وعجزت فرنسا عن صنع واقع حربي وسياسي في المنطقة على حساب الأيوبيين وبذلك تؤكد للدارسين كيف أن كافة المحاولات الصليبية لاختضاع مصر سواء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي/ السادس والسابع الهجريين لم تحقق أدنى نجاح، ولا شك في أن صورة أسرة آل كاثبة الحاكمة في فرنسا، ضعف أمرها بين الأسر الحاكمة في أوروبا

¹ الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة ص 360.

² الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 371.

بسبب الهزيمة الشنيعة التي تعرض لها نوبس التاسع ووقوعه في الأسر¹ وغير ذلك من النتائج التي ذكرتها في كتابي عن الحملات الصليبية الرابعة والخامسة، السادسة والسابعة.

7 = مقتل تورانشاه وزوال الدولة الأيوبية:

تباينت الآراء واختلف المؤرخون حول شخصية تورانشاه وتعددت أسباب قتله في نظرهم ولكنهم اجتمعوا على قتله على يد مماليك أبيه البحرية²، ويرى المؤرخ المصري الدكتور قاسم عبده قاسم: بالرغم من الانتصار الإسلامي الزائع على الحملة الصليبية فإن السلطان الأيوبي تورانشاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التي شادها المماليك، لقد فشل تورانشاه في الإستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يدبر لتخلص ((من شجرة الدر)) وكبار أمراء المماليك³، وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب أدت لقتل تورانشاه منها:

— أن هؤلاء المماليك خدموه أتم خدمة وانتظروا مجازاتهم واعتقد أنه سيملاً فراغ والده ولكنه قدم أمراه وتوعد مماليك أبيه — الذين رباهم كأولاده — وقطع أذيالهم ونهب أموالهم ولم يعمل بوصية أبيه تجاههم⁴.

— ومن الأسباب التي ذكرت في قتله أن مماليكه أشاروا عليه بصنح الفرنج بعد أن كان ملكهم في يديه حتى لا يحتاج إلى شجرة الدر أو مماليك أبيه لأنهم مسيطرين على الحكم رسولوا نه لأن هؤلاء هم أعداءه وأن في

¹ الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 310.

² الخطط (2 - 236)، للجوم الزاهرة (6 - 364).

³ في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 148.

⁴ انجوازي والعلمان في مصر ص 408.

صلح الملك وتركه وأخذ الأموال والجواهر صلاح الحال وتسليم نياط،
فشعر أمراء أبيه بتغيره عليهم واستهتاره بما قاسوه حتى وصلوا إلى هذا
النصر على الصليبيين فدهروا قتله¹.

— وقيل أن من أسباب قتله أنه كان قد وعد الفارس أقطاي حين
ذهب إليه يستدعيه من حصن كيفا أن يزممه ولم يف بوعده فحقد عليه
أقطاي²، ولما ذكره بوعده، على لسان بعض خواصه رد قاتلاً: أعطيه جباً
مليحاً يئيق به³.

— وقيل من أسباب قتل المماليك له أنه تعرض لحظايا أبيه⁴، فساداً
حظايا أبيه وقد كان في عصر من الممكن الحصول فيه على أكبر عدد من
المماليك والجوزي والحظايا وكان طبيعياً أن لكل سلطان حظايا، فلم تكن
ثروة ثمينة لا يستطيع الحصول على مثلها⁵.

— وقيل من أهم أسباب قتله أنه طالب زوجة أبيه شجرة الدر بمال
أبيه والجواهر⁶ وهددها فخافت منه فتلاقت مخاوفها مع مخاوف زعماء
المماليك وغضبهم بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم فاستقر
الرأي على ضرورة التخلص من آخر سلاطين الأيوبيين في مصر⁷.

— وكان حبه لشرب الخمر أحد تصرفات تورايشاه التي اثار حنق
المماليك البحرية عليه وذكرها معظم من أرخ لتلك الفترة فقد كان يشرب
الخمر حتى تدور رأسه ويأتي بالشموع ويسميها بنسم ممالك أبيه ويطيح بها

¹ السلوك نقلاً عن الجوزي والغلمان ص 409.

² نهاية الأرب (29 - 360)، الجوزي والغلمان ص 409.

³ كنز الدرر (7 - 381 - 382)، الجوزي والغلمان ص 409.

⁴ شفاء القلوب نقلاً عن الجوزي والغلمان ص 409.

⁵ الجوزي والغلمان في مصر ص 409.

⁶ السلوك نقلاً عن الجوزي والغلمان ص 410.

⁷ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده ص 148.

بسيفه وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلنت إليك أمور المسلمين، فأفعل فيهم ما أمرك به الله وبه رسوله يا ولدي إياك والشراب فإن جميع الآفات وما تأتي على الملوك إلا من الشراب¹.

— وذكر ابن العبري أن أحد تصرفات توراتشاه التي أثارت حفيظة البحرية ضدّه حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه وندت له أيناً في دمياط فسير إليها المعظم عشرة آلاف دينار ذهباً ومهداً للطفل ذهبياً وحلاً منكبياً²، وغير ذلك من الأسباب واثمهم أن نعرف حقيقة هامة وهي أنهم شعروا باختلاف شديد في معاملة السلطان لهم ومعاملة توراتشاه المختلفة فقد كان الملك الصالح يحب مساليكه ويهتم بهم ويفدق عليهم الكثير من الإنفاق وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه توراتشاه؛ الولد يتوصى بالتخدم محسن ورشيد والخدم المقدمين لا تغيرهم فما قمت أحد من الخدم ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته واستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم وكذلك الحسام لا تغيرهم فإني اعتمد عليهم في جميع أموري³؛ وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم وتعطي كل واحد منهم كوس⁴ وعلم وتحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت اعتمد عليهم واثق بهم وهم ظهري وساعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي ونولا المماليك ما كنت قدرت اركب فرسي ولا

¹ نهاية الأرب (29 — 347)، تجواري والعلمان ص 410.

² تجواري والعلمان ص 410.

³ المصدر نفسه ص 411، نهاية الأرب (29 — 350).

⁴ الكوس؛

من شعرات السلطنة والإسرة وهي صنوج من نحاس.

أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم فتكرمهم، وتحفظ جانبهم¹، وجاء في الوصية: والوصية بجميع الأمراء وأكرمهم واحترمهم وأرفع منزلتهم فهم جناحك الذي تطير به وظهرك الذي تركن إليه وطبيب قلوبهم وزيد في إقطاعهم وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً، وأنفق الأموال وصب قلوب الرجال يحبوك وتنان عرضك في دفع هذا العدو²، ومن الراجح أن هؤلاء السماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها بالصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر اتصليبي وحفظ البلاد لسلطان وحتى مجيئه وحلفهم له وتصويبهم إياه سلطاناً على البلاد أن يقدر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه³، ويبدو أن الأمر كان مغايراً تماماً لما توقعوه وبعد أن كان لهم الحل والعقد والأمر والنهي اثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه⁴، وكانت أكبر أخطاء تورانشاه أنه أقام بنبابة السلطنة الأمير جمال الدين أفوش النجيبى بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي الذي كانت له هنية في عهد الصالح وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لتورانشاه على السناير يوم الجمعة بعد اندعاء لأبيه وهو الذي حرص على استدعائه في سرعة حتى لا يتخلف الأمير فخر الدين على انبلاء عقب وفاة الصالح⁵، فكان من الممكن أن يسانده ويتقوى به⁶.

¹ نهاية الارب (29 - 351)، الجوارى والغلمان ص 411.

² الجوارى والغلمان ص 411.

³ مرآة الزمان نفلأ عن الجوارى والغلمان ص 413.

⁴ الجوارى والغلمان ص 414.

⁵ المصدر نفسه ص 414.

⁶ المصدر نفسه ص 414.

8 - كيفية مقتل تورانشاه:

ونتيجة لبعض التصرفات الغير مسؤولة وعدم أخذ الحيطة اللازمة من تورانشاه قرر المماليك البحريةية التخصص من تورانشاه وترغم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحريةية منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري، وقلوون انصالحى وأبيك التركمانى وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين 28 سحر 648هـ / 2 أيار 1250م وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بانتصاره ويتهياً لإستعادة دسليطاً، وجلس على عذته ليتناول طعامه، فتقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده، فقطعت بعض أصابعه، فأسرع تورانشاه إلى برج الخشي الذي أقامه على النيل نيمضي فيه بعض وقته وإحتفى به وهو يصيح، من جرحني؟ فقالوا: (الخشيشية) فقال: لا والله إلا البحريةة! والله لا أبقيت منهم بقية، وضمد جراحه، فاجتمع أمراء المماليك، وقرروا قتله وقتلوا: بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها ودخل ركن الدين بيبرس وفارس أقطاي وغيرهما من أمراء المماليك البحريةية إلى البرج وهم شاهرون سيوفهم ففر تورانشاه إلى أعلى البرج، وأغلق بابه وأتم يسيل من يده، فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب، فالقى تورانشاه نفسه من أعلى البرج، وهو يصيح مستنجداً: ما أريد ملكاً دعوني أرجع إلى انحصن يا مسلمين، أما فيكم من يصطنعني ويجبرني²، فلم يجبه أحد وأخذ يركض نحو النيل ونبال المماليك تأخذه من كل جانب حتى ألقي بنفسه في الماء على أمل أن يمتج إلى إحدى سفنه الزاسية ليعتصم بها، ولكن سرعان ما لحق به أقطاي فقتله، وتركت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام دون أن يتجاسر أحد على دفنه إلى أن شفع فيه رسول الخليفة العباسي، فحمل إلى الجانب الآخر من النهر ودفن، بعد أن

¹ تاريخ الايوبيين ص 390.

² النجوم انزاهرة (6 - 371).

حكم واحداً وستين يوماً¹ موقبل مدة سلطته بالمنصورة نحو أربعين يوماً، لم يتخذ فيها بني القاهرة ولا طلع قنعة الجبل ولم يعتلي سرير الملك²، وبوفاة نورانشاه انقضت نولة بني ايوب بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً، وكان نورانشاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب³، على أن بعض المصادر ذكرت أن الدولة الأيوبية بخلع شجرة الدر⁴، فقد ذهب مجموعة من المؤرخين أن حكم شجرة الدر استمرراً لحكم الأيوبي؛ وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى⁵.

رابعاً: أسباب سقوط الدولة الأيوبية:

إن أسباب سقوط الدولة الأيوبية كثيرة جامعياً هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في ائتراف وحدث بينهم نزاع عظيم سفكت فيه الدماء وأدى ذلك إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله في أمور الحكم — كما حدث في الدولة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين — يجنب للأفراد والدولة تعاسة وضنكاً في الدنيا وأن أثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية، والاقتصادية، وأن ائفقتن نطق تتواني تقرى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم⁶، قال تعالى: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» (النور، آية: 63). لقد كان في ابتعاد سلاطين الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين عن تحكيم الشرع في

¹ كتب الروضتين بطلاً عن الدولة الأيوبية د. عكور ص 262.

² بدائع الزهور نقلاً عن الجوارى والغلان ص 416.

³ المصدر نفسه ص 416.

⁴ عجائب الآثار (1 - 51)، للجبرتي الجوارى ص 416.

⁵ الدولة الأيوبية د. عكور ص 266.

⁶ الدولة العثمانية للصلاحي ص 520، للدولة الأموية (2 - 568).

فزاعاتهم وخلفاتهم آثار على أفراد البيت الأيوبي والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف، والشقاق والخلاف ونزع منهم الأمن وأصبحوا في الضنك من الحياة، إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثاً في حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذه الأسرة الحاكمة أو الدولة، أو الأمة الظلم والانحراف وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحقق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن إنحرافهم، وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم والآيات صريحة في ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة أيًا كانت فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها¹، قال تعالى: "ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (الأفقال، آية : 53)، والآيات في هذا كثيرة سواء ما يخص الأفراد أو الأمة، بل أن القرآن الكريم يذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استعراج حين يمهلهم الله تعالى وتواترهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها فينسون ما هممتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسون ما عندهم لجهدهم وذكائهم، وقد بفسقون الأمر فيقولون: لو لم تكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفي هؤلاء يقول الله تعالى: "قلما نسوا ما نكروا به فتحنا لهم ابواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" * فقطع دابر القوم الذين ظلموا وناحمد الله رب العالمين" (الأنعام، آية : 44 - 45)، فقد نسي هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجد فيها، قال تعالى: "ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها" (آل عمران، آية : 45). ولكن هناك من يريد الآخرة بحق ويسعى لذلك فهو الفائز "من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصليها مذموماً محذوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * وكلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً" (الإسراء،

¹ في التفسير الإسلامي لتاريخ نعمان السامرائي ص 88.

آيات : 18 — 20). وقال تعالى: "وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس النجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون" (الاحزاب، آية : 112 — 113). ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة: "ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا عجرسين" (هود، آية : 52). وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب 'ي' أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير * (المائدة، آية : 19)، فكل إنسان وكل مجتمع وكل أمة مسنونة عما يصدر عنها؛ ولا يتحصل أحد جزيرة غيره تلك أمة قد خلث لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئنون عما كانوا يعملون' (البقرة، آية : 134). المهم أن الله تعالى لا يحجب نعمة عن أحد، بل يوزعها على السويين والكافرين، ثم يراقب تصرف الكل فيها. فمن طغى وظلم، ومن كفر بها واستعملها استعمالاً سيئاً فإن العقاب العادل سيفزل به في الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد قبل نزول العقاب ولكنه يكون في الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" (البقرة، آية : 286)، ومثل هذا في الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد فإن الله خلق النصوص ملهماً إياها طريق الخير والشر، يقول تعالى: "ونفس وما سواها * فأنهها فجورها ونقاها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها" (الشمس، آيات : 7 — 10). وقال "وهديناه النجدين" (البقرة، آية : 10)، ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد كما لا تقوم بسبب واحد، بل بتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل ببطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر، ولا تسقط

الدولة والحضارة بضرية واحدة، بل بتضافر جملة من العوامل¹، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام 648هـ وأهم هذه الأسباب في نظري:

1 . توقف منهج التجديد الإصلاحي:

كان صلاح الدين رحمه الله رجل المرحلة، وجدت فيه صفات عظيمة، ساعده على ذلك الأجواء التي هيأها نور الدين محمود من حبه للجهاد والعلم وتقريب العلماء، وإشاعة العدل، وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة إلى إتجاه عام في الدولة حتى لا ينفطع بوقاة القائد أو المؤسس² وذلك يرجع إلى أمور منها:

أ - نقص الفقه الحركي الذي وجه نشاطات المدارس الإصلاحية:

فإن مدارس الإصلاح في هذا العصر ركزت نشاطاتها على تحقيق عنصر "الإخلاص" في العمل، أي أنها ركزت على انتربية أكثر من الاستراتيجية، ولذلك لم تفرز ((فقه الحكمة)) اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة والإدارة والاقتصاد وتنظيم مسئوليات العاملين فيها وأداهم وحسن استثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان، وإنما اكتفت بـ((فقه)) الآباء الذي يركز على ((المظهر الديني للقيادة)) دون ((المظهر الاجتماعي))، وصار شيوخها ومتعلموها يسلكون طريق ((انزهاو)) وينتمون إلى مذهب من المذاهب الفقهية التقليدية في آن واحد، ولهذا يوصف الواحد منهم بأنه - مثلاً ((قنري السلوك)) ((وشافعي المذهب))، كذلك لم تطرق هذه المدارس ميادين ((الفقه)) المتعلق بالمظهر الكوني للعبادة والمؤدي إلى تطور العلوم الطبيعية، وتسخير تطبيقاتها في ميادين الحضارة المادية

¹ ايعيد للتاريخ نفسه صـ 134.

² هكذا ظهر حيل صلاح الدين صـ 322.

المختلفة، وهذا النقص في الفقه السياسي والإداري جعل المنجزات التي حققها جيل صلاح الدين تعتمد على الشخصيات أكثر من فاعلية المؤسسات، فلما غابت الشخصيات انقيادية على مسرح الحياة برز تأثير العامل الإنشائي، أي أثر العصبية الأسرية والقبلية التي عادت لتوجه مؤسسات الحكم والإدارة بما فيها مدارس الإصلاح نفسها، وهذا التطور السلبي حقق إفراز ظهور غير إيجابية منها:

— حين لم يجد جيل الأبناء فقهاً سياسياً وإدارياً ينظم عملية تعيين الحاكم ومؤسسات الحكم والإدارة إرتد إلى نقاب العصبية الأسرية والقبلية وزوابط الدم التي تعتبر الحكم وقيادة المؤسسات التربوية والعلمية ميراثاً يرثه الأبناء عن الآباء، الأمر الذي أدى إلى تفكك الدولة وانقسامها حيث تقاسم الأبناء ما رحدّه جيل الآباء، وأدروء طبعاً نقاب العصبية الأسرية التي سبقت جيل صلاح الدين والتي كانت تعتبر أراضي الدولة ومدنها وسكانها إقطاعات يتصرف بها الحكام ويتبادلونها بالبيع والشراء وصفقات الحرب والصلح.

— أدى النقص في الفقه السياسي والإداري إلى إنفجار الفتن بين الملوك وأمراء الجيش من ذلك ما حدث بين الملك الكامل وبين عماد الدين أحمد بن المشطوب الكردي الهكاري الذي يصغه ابن خلكان بأنه كان صلاح الدين أظعمه وهو شاب إقطاع نابلس إكراماً لوائده سيف الدين أبو الهيجاء المشطوب الهكاري الذي كان من كبار أمراء الجيش الصلاحي وقادته، فقد تفق عماد الدين بن المشطوب مع الأكراد الهكارية على خلع الملك الكامل وتمليك أخيه الفايز، ولكن المحاولة لم تنجح ودب الاضطراب في معسكر الجيش الذي كان في مواجهة الصليبيين وانسحب عماد الدين إلى قلعة حران حيث بقي فيها حتى وفاته عام 610هـ¹، وبالخلاصة أن الجذب في انقعه

¹ هكذا ظهر جيل صلاح الدين ص 322.

السياسي والإداري أفرز - بعد جيل صلاح الدين - قيادات وإدارات متسلطة فردية عملت على أن تحكم الأمة بغير القوة فوق انشريعة، والفردية بدل العمل الجماعي، والتسلط بدل الشورى والإرتجال بدل التخطيط¹.

- قامت الدولة الأيوبية على تبني فكرة الجهاد وتحرر ديار المسلمين من الغزو الصليبي، وكانت التغيير العملي على مدى إصالة فكرة الجهاد الإسلامي وعن مدى عمق هذه الفكرة في نفوس المسلمين في كل من مصر والشام وقد انعكس هذا العمق وتلك الأصالة في الصفحات المشرفة التي سجلها بجهاده صلاح الدين، إذا انتقلنا إلى الصورة التي كانت لها في سنواتها الأولى وهذا يعني أنها قد أصبحت في وادي والفكرة التي قامت عليها في راد آخر، ولو قدر واستمرت الدولة الأيوبية بالصورة التي كانت عليها في سنواتها الأخيرة لكان معنى ذلك نهاية أو سقوط فكرة الجهاد الإسلامي وتترك الساحة للصليبيين يرسمون مستقبلها ومقدرات شعوبها كما يريدون، وإنه فإن إختفاء الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك مقامها كان التعبير العملي لرفض زوال فكرة الجهاد، ونخلص من هذا إلى القول بأن إختفاء الدولة الأيوبية، وقيام دولة المماليك مقامها كان رفضاً عملياً لسقوط فكرة الجهاد، كما كان أيضاً تأكيداً عملياً لقوة هذه الفكرة وضرورة إستمرارها حتى تحقق أهدافها كاملة، وخير للأجيال أن تستمر الفكرة حتى ولو على حساب سقوط الدولة والرجال مهما كانت درجة التعاطف مع هذه الدول وهؤلاء الرجال².

ب - ومن الظواهر السلبية:

التي ساهمت في توقف حركة التجديد والإصلاح، تسأل قيم العصبية الأسرية إلى مدارس الإصلاح نفسها، إذ استفاد مما كتبه مؤرخو تلك الفترة

¹ المصدر نفسه ص 322.

² الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات ص 395.

كابن الموردي وابن السننوفى، إن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحين الآباء دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية: الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية، وعصبيات مذهبية؛ وأدى إلى إنصراف التبيين ائمتين من صفوفها وإجتماع العامة فيما عرف باسم ((الطرق الصوفية)) التي اشتقت اسماءها من أسماء الآباء المؤسسين، كالطريقة القادرية والطريقة البينيه والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال¹.

2 - الظلم:

إن الظلم في الدولة كالمريض في الإنسان يعجل في موته، بعد أن يقضي المدة المقررة له وهو مريض، ويإنتهى هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها، مما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها، وإضمحللها من خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر له، أي الذي قدره الله بموجب سنته العامة التي وضعها لأجل الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل أو من عوامل الهلاك كالتظلم الذي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله²، قال تعالى: "ونكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون" (الأعراف: آية: 34). قال الألويسي رحمه الله في تفسيره هذه الآية ((ونكل أمة أجل)) أي لكل أمة من الأمم الهلكة أجل: أي وقت معين مضروب لاستئصالهم ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين وهو محدد عند

¹ هكذا ظهر جوار صلاح الدين ص 323.

² السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان ص 121.

الله تعالى¹: " ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم الهتيم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبئت* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها ليم شديد" (هود: آية: 100 - 102). إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليم مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة بل أن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصراً بأولئك الظالمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة" (هود: آية: 102) فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك الظالمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فلاية تحذر من خطورة الظلم، إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يظالمون فيما بينهم فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته إهلاك الدولة بكفرها ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكمها شرعية وتظالم الناس فيما بينهم³ تزول قال تعالى: " وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (هود: آية: 117) فإن الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره: إن المراد من انظلم في هذه الآية الشرك والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد⁴، وفي تفسير القرطبي رحمه الله قوله ((بظلم)) أي بشرك وكفر ((وأهلها مصلحون)) أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم

¹ المصدر نفسه ص 121.

² الدولة الأموية للصلابي (2 - 571).

³ السفن الإلهية ص 121.

⁴ تفسير الرازي (18 - 16).

يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى يضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب
 بيخس التمكين والميزان وقوم لوط باللواط، قال ابن تيمية رحمه الله في
 هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: أمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي
 يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في
 الحقوق وإن تشرك في إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت
 كافرة ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل
 والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام وذلك إن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم
 أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من
 الإيمان ما يجزي به في الآخرة²، وقد حدثت مظالم عظيمة في عهد
 الأيوبيين، فقد سفكوا الدماء فيما بينهم، فقاتل الأخ أخيه والعم بني أخيه ظلماً
 وجوراً وتسلطوا على العباد والبلاد وحصرت دمشق وتعرض أهلها للمجاعة
 بسبب الأهواء والنزوات وإبراف بعض سلاطينهم في المال انعام وتم
 الإعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق وقد بينا ذلك
 في مناسبات عديدة في كتابي ((الأيوبيون بعد صلاح الدين، والحملات
 الصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة)).

3 - الترف والإنغماس في الشهوات:

قال تعالى: "قلوا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن
 الفساد في الأرض إلا قليلاً مما أنجيناً منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه
 وكانوا مجرمين" (هود، آية : 116)، قال تعالى: "واتبع الذين ظلموا ما
 أترفوا فيه" أراد الذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات أي لم يهتموا بما
 هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 وإنما إهتموا بالتتعم والترف والإنغماس في الشهوات والتلذذ إلى الزعامة

¹ تفسير القرطبي (9 - 114).

² رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص 40.

والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيئ¹، وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب قال تعالى: "وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين* فما أحسروا بأسنا إذا هم منها يركضون* لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعدنكم تستلون" (الأنبياء، آيات : 11 – 13)، ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها قال تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" (الإسراء، آية : 16)، وجاء في تفسيرها "وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها: أي : متعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أمة الفسق ورؤساء الضلال وما وقع من سوءهم، إنسا وقع بإتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم أكد².

إن أمر بني أيوب مازال مستقيماً في عهد صلاح الدين حتى أفضى أمرهم إلى إبنائه، فوقع بعضهم في الترف وأثروا الشهوات، وأقبلوا على اللذات والدخول في المعاصي والتعرض لسخط الله، والشواهد على ذلك كثيرة نذكر منها ما كان في عهد الملك الأفضل وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ما فعنه أستاذ الدار وهو كبير أمناء الملك أو الرئيس والذي كان يجمع إلى منصبه إختصاصات الوزير وقاد أنجيش في المعارك وفتح دمشق وكان متحلاً وعابثاً ومعتاداً بقوته ومنصبه وتجراً على منكر كبير، يخانف أحكام الدين ويسخر بالشرع ويسئ إلى مشاعر المسلمين، فبني فوق أحد مساجد القاهرة طبلخانة أي قاعدة لسماع الغناء والموسيقى، وقد تصدى لذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام كما بينا ذلك في الكتاب الذي قبل

¹ السنن الإلهية في الأسم والجماعات والأفراد ص 186.

² تفسير الألويسي (42/15).

هذا، ومن صور الترف في عهد الدولة الأيوبية التوسع في المآكل والمشرب وما يترتب على ذلك من أفات، وحب التكثر من المال والتوسع في الركوب وفي المسكن والمنسج والتكاح لدى بعض أمراء وملوك البيت الأيوبي.

4 ■ تعطيل الخيار الشوري:

ضرب الأيوبيون نظام الشوري في الحكم بالحائط ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة والذي كانت القيادة الرائدة نفذته التزاماً بمعطيات القرآن والسنة في هذا المجال ولقد ولدت خطوة الأيوبيين هذه ردود أفعال خطيرة في الدولة الأيوبية، بل أصبح التسلط والعلية هو الطريق لتسطة والحكم، فهذا الملك العادل بعد أن تغلب على بني أخيه قال لوزرائه ومعاونيه إنه قبيح بي أن أكون أتياً مع الشيخوخة والتقدم مع أن الملك ليس هو بالميراث وإنما هو لمن غلب ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر - رحمه الله - صاحب الأمر، غير أنني تركت ذلك إكراماً لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدي، ويد أولاد أخي: فمشيت الأمر إلى أخره، ثم أن الملك العادل ورث أبنائه من بعده وحدث قتال بينهم ورجع إلى نظام التوريث الذي كان نه سلبات خطيرة، ساهمت في سقوط الدولة الأيوبية منها:

- إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسباً وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتي:
- تفيد حق الأمة في إختيار من ينص بحصره في أسرة معينة.
 - تفيد مبدأ شوري بحصره في أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.
 - دفعت المفضل إلى تولي السلطنة مع وجود الأفضل، بل وبمن إفتقد بعض شروط السلطنة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط وفقاً لما

¹ في التأصيل الإسلامي للتاريخ ص(60).

سلف ذكره.

- وضع الحكام موضع تهمة وشبهة، كما أشار المشك – عند بعض الناس – حول مشروعية البيعة بولاية العهد والبيعة للسلطان.
- أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين البيت الأيوبي وذلك مما أدى في النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم¹.

5. النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية:

إن سنة الله تعالى مأضية في الشعوب والأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم وزوال الدول الاختلاف؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا، وفي رواية ((فأهلكوا))، وعند ابن حبان عن ابن مسعود رضي الله عنه: فاتما أهلك من كان قبلكم الاختلاف²، إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك يتوقى أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة الأيوبية وهلاكها وإنتثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع في البيت الأيوبي أسبابه منها: ضعف لوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين الأتانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها والحرص على السلطة والجاه والمنصب وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون، حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة إنقسامها، وأن التنازع بين اقرباء يقلص نطاقها، كما يؤدي إلى قسمتها ثم

¹ نظام للحكم في الإسلام ص: 307.

² صحيح البخاري بشرح العسقلاني (9/101-102).

إضمحلتها¹، لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الأيوبية بعد وفاة صلاح الدين وسرعان ما انغمس الأيوبيون في صراعاتهم الداخلية فلم يحترم الأخ أخيه والعم بني أخيه، واستغل الملك العادل الأيوبي الجهل والطيش الذي إتسم به أبناء صلاح الدين، إذ أنه إستخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستل جندي واحد سيفه من عمده، إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية (أمراء صلاح الدين) والأمراء الأستية، أمراء أسد الدين شيركوه الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين²، وقد وصف القاضي الفاضل الخلاف في البيت الأيوبي بقوله: أما هذا البيت فإن الآباء منه انفقوا فملكوا وإن الأبناء منهم اختلفوا فهنكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه، وإذا بدأ تحريق في ثوب فما يليه إلا تمزيقه، وهيهات أن يسد على طريقه، وقد قدر طروقه، وإذا كان مع خصم على خصم فمن كان معه فمن يطيقه³، واستمر الصراع في الأسرة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل، حيث اشتد النزاع بين أولاده الملك المعظم والملك الكامل أبناء البيت الأيوبي.

6 - مولاة النصارى:

من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء، فكانت الدولة في عصر صلاح الدين عاملة بقول الله تعالى: "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير" (أل عمران، آية : 28). وقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منكم فإنهم إن لا يهدي القوم الظالمين" (المادة، آية :

¹ التضعض المعنوي وأثره في سقوط الأمم ص 118.

² في تاريخ الأيوبيين والتمثيلك قاسم عبده ص 82 - 83.

³ نور الفقهاء ص 174.

(51)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوثق عرى الإيمان، التوالة في الله، والمعاداة في الله والحب في الله واليغض في الله، أما في عصر الملك الكامل فضعف الولاء والبراء ويظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني على طيق من ذهب وبدون إزقة للدماء، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الغم والهم والتألم ما لا يمكن وصفه وكان الملك الكامل لديه استعداد لتتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل الذي دخل في صلح مع الصليبيين وسلم لهم أحد الحصون وتصدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب فاعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما وتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب في مقابل تسليم القدس وإعادة سلكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين بالمر فوراً بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة الشقيف وأربون وأعمالها، وقلعة صفد وبلانها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل، وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل، حتى إن حاميات بعض القلاع رفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل في تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تسلّم بيت المقدس وأعدوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان، ثم رايضوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها، فسأل لعابهم لذلك، واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر². وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور

¹ صحيح الجامع.

² النجوم الزاهرة (322/6) الدولة الأيوبية دكتور ص 233.

إبراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر¹.
ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين فما كانوا
يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة حتى تخلوا عن الصالح
إسماعيل والمنصور إبراهيم وسأقت عساكر انشام إلى عسكر مصر طائفة
ومالوا جميعاً على الفرنج فهزسوهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون²؛ وهكذا
تحالف الملك الصالح إسماعيل مع الصليبيين وتنازل لهم على مدن المسلمين
من أجل انحكم والسلطن، إن بعض ملوك بني أيوب أمنعوا في موالاة
النصارى الصليبيين وأقوا إليهم بالمودة وركنوا إليهم واتخذوهم بضانة من
دون المؤمنين وعملوا على اضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة
وأصابوها وفقدت أبرز مقوماتها وسهل بعد ذلك زوالها من الوجود.

7 - فشل الأيوبيين في إيجاد تيار حضاري:

حاول صلاح الدين بإيمان صادق، وذكاء متميز حمل لواء المشروع
الإسلامي الحضاري الذي ترعمه نور الدين محمود زنكي وحرص على
الفتوحات العسكرية والدعوية، بحيث لا تطنى الأرض على الحضارة ولا
الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم من مبادئ الدين وتقيد
بالسياسة الشرعية، وعمل على إيجاد تيار حضاري عقدي يملأ أركان
الحياة، ومهما يكن من أمر، فإن الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين، لم
تستوعب قانون الامتداد الحضاري، فبعد الامتداد والانتصارات كان عليها
أن تمتد بالدعوة وتطور المدارس الإصلاحية حتى تواكب احتياجات العصر
العلمية والتربوية والثقافية والحضارية إلا أن خفاء صلاح الدين لم
يستطيعوا أن يقدموا مشروعاً حضارياً يحدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها
ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة أنتهت بزوال دولتهم لقد

¹ النجوم الزاهرة (305/1) الدولة الأيوبية ص 233.

² السلوك (305/1) الدولة الأيوبية ص 233.

فشل ملوك بني أيوب بعد صلاح الدين في إيجاد تيار حضاري ولم يستطيعوا أن يحققوا التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والتعبئة والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالته سامية تأخر فيها الأيوبيون وغلبتهم الظروف والتحديات فأصبحوا أمام قانون التاريخ الحضاري الذي لا يجامل ولا يحابي أما أن يتفكروا أو يزولوا من الوجود، فلا سكون في تاريخ البشرية.

8 - ضعف الحكومة المركزية:

قسم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين لقتال يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعتبر عنه في مفهومنا الحديث (نظاماً مركزية إدارية)¹. والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير نفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطات يجعل من كل سلطة رقيباً على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكتفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازة²، وقد ارتبطت الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، فحين توارت هذه الشخصية من على مسرح التاريخ في المنطقة حدث فراغ كبير أضرباً بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي إذ كانت شخصيته ومواهبه وأدائه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه

¹ تاريخ الأيوبيين طغوش ص 210.

² المصدر نفسه ص 211.

الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسم دولته، كما يُقسم الإرث، بين أبنائه وأخوته وبني عمومته على نحو ما كان سالفاً هي تلك العصور وكان طبيعياً أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسي الناتج عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين، لقد كان خليفة صلاح الدين في مصر ابنه أبو الفتوح عثمان وكان وقت وفاة أبيه مقبلاً بالقاءرة، وعنده جلّ العساكر والأمراء من الأسيدي والصلاحية والأكراداء، وتولى أخوه الأفضل نور الدين علي حكم دمشق، على حين تولى إمامك العادل الكرك والشموك وولي الظاهر غزني حكم بلاد الشام الشمالية وكانت حلب عاصمته وتولى بنية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته، ففي حمص حكم أفراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاد²، وهكذا تفككت عرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، لقد كان تقسيم الدولة على نحو، كتقسيم التركات الخاصة سبباً في انهيار الوحدة السياسية للمنطقة وإطالة عمر الكيان الصليبي من ناحية أخرى³، فتفتت دولة صلاح الدين، وضعفت الحكومة المركزية بعد وفاته، وقامت الحروب بين ملوك بني أيوب بدافع إتمامك والتوسع.

9 . ضعف النظام الاستخباراتي:

كانت مؤسسة التزويد والاستخبارات في عهد صلاح الدين قد اشتهرت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبيين واتصفت بالدقة والسرعة حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة فصاعة، إلى الصبح، لا سيما في حصار عكا، وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين الذين استأنهم

¹ السلوك (114/1) في تاريخ الأيوبيين والمماليك صـ80.

² تاريخ مصر الإسلامية (96/2) جمال الشيال.

³ في تاريخ الأيوبيين والمماليك د. قاسم عبده صـ80.

السلطان في مناسبات مختلفة، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال صلاح الدين، بسبب من سحتهم ومظهرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يصعب عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين فذات مرة أخبروا صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من كسب العسكر الإسلامي نيلاً، وأخبروه عن المنجنيق لصليبي الهتل الذي أنفقوا عليه ألفاً وخمسمائة ديناراً والذي أعدوه للهجوم على عكا وكذلك زودوا صلاح الدين بأخبار الحملة الألمانية، إلا أن بعد ذلك ضعف جهاز الاستخبارات، بل نجد أن الحملة الصليبية الخامسة تصل إلى نيباط ولم يعلم بها الملك تعادل إلا بعد وصولها ولم تكن اختراقات الجهاز الاستخباراتي بعد صلاح الدين بالمستوى الذي كان عليه، فكان ضعف الجهاز الاستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

10 - غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسي:

مع مجيء الملك الأفضل لحكم الدولة الأيوبية تغيرت بعض الوسائل الاستراتيجية التي كان يعتمد عليها صلاح الدين بعد الله تعالى في إدارة الحكم وحركة الجهاد وهي اعتمده على العلماء الربانيين فأبعد الملك الأفضل القاضي الفاضل وأقصى أمراء والده ومستشاريه، بتأثير الوزير ضياء الدين ابن الأثير أخو المؤرخ المشهور ابن الأثير عن إدارة الدولة في عهد الملك الأفضل ولم يكن موفقاً أبداً بل جرّ البلاد والسخط والغضب والكرهية على الملك الأفضل وأصبح القاضي من بعد المبعدين عن القرار السياسي، وهو الذي قال فيه صلاح الدين: ما فتحت بدأً بسيفي ولكن بقلم القاضي الفاضل، ولم تكن مكانة العلماء والفقهاء بعد صلاح الدين بالمكانة التي كانوا عليها في عهد نور الدين وصلاح الدين، ولقد خسر الأيوبيون

¹ صلاح الدين الأيوبي للصليبي ص 381 - 382.

الكثير بإبعاد القاضي الفاضل ومن على شاكلته من دائرة القرار السياسي وقد قال أبو شامة عن القاضي الفاضل: كان ذا رأي سديد، وعقل رشيد ومعظماً عند السلطان صلاح الدين يأخذ برأيه ويستشيره في المهمات والسلطان له مطيع وما فتح السلطان الأقاليم إلا بأقليد آرائه وكان كتابيه كتاب النصر¹.

11 - وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وعدم كفاءة ورثته:

استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أن يدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي والتي ساهمت في تقوية الجيوش وانعكس ذلك على الدولة ومن أهم الإجراءات التي اتخذها الملك الصالح نجم الدين أيوب، اهتمامه الكبير بشراء المماليك والعلمان والأثرياء بشكل نم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف سلوياً تركياً وعمل منهم جيشاً قوياً ساعده في فرض إرادته على الأقاليم والقضاء على حركات التمرد الداخلية وكان ولاء المماليك للملك الصالح نجم الدين أيوب مطلقاً واستطاع إعادة هبة الدولة الأيوبية من جديد ونجح إلى حد كبير في إعادة قوتها وسلطانها إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته 44 سنة وعهد لولده المعظم تورانشاه وقامت شجرة الدر زوجة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن معها من الوزراء والأمراء بتثبيت الملك المعظم تورانشاه إلا أنه لم يكن رجل المرحة وفشل في التحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية وبدلاً من تركيز جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً بدأ يدبر لتخلص من شجرة الدر وكبار أمراء المماليك فاحتقر خصومه واستبد برأيه وابتعد الأولياء ولم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة في تفتيت خصومه

¹ كتاب الروضتين (241/2).

وضعفت الشقة بيده وبين رجاله وفش في كسب ولاء قادة الجيش فتم قتله
وزالت الدولة الأيوبية بموته، هذه هي أهم الأسباب في زوال الدولة
الأيوبية.

الفصل الثالث

سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين أيبك

أولاً: شجرة الدر:

1 — شجرة الدر أيوبية أم مملوكية؟ إن معظم المؤرخين وعلى رأسهم المقرئزي، صاحب السؤك لمعرفة درن الملوك، يعتبرون شجرة الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر ولقد يطلق عليها إسم دولة المماليك الأولى بإزاء دولة المماليك الثانية التي هي دولة المماليك البحرية، اعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم أي من المماليك البحرية، جيء بها جارية مملوكة، فصارت حظية الملك الصالح أيوب، وإن كان من الأرجح، أنها ليست من المماليك وهذا ما ذهب إليه عصام شبارو في كتابه السلاطين في المشرق العربي، مملوكة من أصل أرمني، لا تركي، فهي ليست مملوكة تماشاً بما في كلمة مملوك من معنى، إنها قريبة من المماليك، بجهة النشأة، وإن كان المماليك البحرية الصالحة يأترون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب، هذا فضلاً عن كونها وائدة ونده خليل الذي سانت وهو طفل صغير¹. ويعتبر ابن ياس صاحب بدائع الزهور، شجرة الدر آخر سلاطين بني أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد تورانشاه وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه².

2. سلطنة مصر:

كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب وتصرفها حيات الصليبيين وأمر الملك نوبس التاسع أبلغ الأثر لدى المماليك

¹ السلاطين في المشرق العربي ص—9.

² بدائع الزهور (1 — 89).

بعدها شاهداً ما تتصف به من حماس سياسي وحكمة ومهارة في تصرف أمور الدولة في ذلك الوقت العصيب الذي كادت أخطار الحرب والاستيلاء على دمياط أن تقت في عضد أي حاكم آخر¹، لقد عملت شجرة الدر على تحرير دمياط من الصليبيين، لما أخفت موت نجم الدين أيوب عن الجيش المصري الذي كان يقاتل الغزاة، إذ نو أعلنت نبأ وفاة الملك والجيوش المسلمة والصليبية في التحام وعراك الأفتت الأمر من أيدي القادة المماليك وبعث فيهم نبأ وفاة الملك شيئاً من الضعف والتخاذل والتواكل، الأمر الذي لم يحدث — بفضل الله — ثم بسبب حكمة شجرة الدر، وحكمتها وهي انني تمت الوفاة بحضرتها فكتمت هذا الأمر، وأمرت العبيد أن يحمل الملك سراً في محفة دون علمهم بموت الملك، ثم أن يوضع في قارب حمله إلى قلعة الروضة، ريثما تجلي المعركة، عن نصر قريب، ولم يفت شجرة الدر أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش وأن تبعث فيه روح المثابرة والعزيمة والجهاد ومواصلة الحرب لاسترجاع دمياط من أيدي الصليبيين هذا من جهة، ومن جهة ثانية، راحت شجرة الدر، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم والأطباء تعمل على إدخال كبار الموظفين والأضباء إلى قاعة الملك، بحجة أن السلطان حي يرزق، بل راحت توقع الأوامر والمراسم بتوقيع السلطان وهي التي حذقت تقليد توقيعه، ومحاكاة خطه، وإن قال بعضهم إن الذي حذق تقليد الملك وتوقيعه، هو خادم لشجرة الدر اسمه سهيل، كتم الأمر وخضع له، خدمة لمولاته السلطانة² بهذا التدبير الحكيم، وذلك الأسلوب المميز والحكمة الفريدة استطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحول دون تصدع صفوفه، وانفراط عقده، كما استطاعت أن تبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما

¹ شجرة الدر القاهرة الملوك نور الدين خليل ص 75.

² موسوعة تاريخ مصر (2 - 671) لأحمد حسين.

ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع¹ والاستسلام، كان الرصيد الجهادي لشجرة الدر مؤهلاً لها للتربع على كرسي السلطنة بعد مقتل تورنشا، ويتبارى المؤرخون في سرد الأسباب والدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطانه عليهم، فهل يرجع ذلك إلى العلاقة التي تربطها بزوجها الناحل نجم الدين أيوب وابنها خليل؟ أم لزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات؟ أم لحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية؟ لت رفعوها للتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب ((أم خليل))²، وهكذا أصبحت هذه الجارية أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب، والتي تزوجها بعدما أعتقها ملكة المسلمين في مصر وسلطنة المماليك البحرية، يخطب لها على المنابر، ويدعون لها عليها من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي³.

3. الدعاء لها:

كان مما يدعى لشجرة الدر قول المسلمين اللهم أحفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين أم خليل أمير المؤمنين، المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح⁴، أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون باسمها على منابر مصر وأصماليها، فيقولون من بعد الدعاء لأمر المؤمنين الخليفة العباسي: اللهم أحفظ الجهة الصالحة: ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل، والستر الجميل، والدة المرحوم خليل، إذ أن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان توفي في حياة والده

¹ شجرة الدر، د. يحيى الشامي ص 52.

² شجرة الدر، نور الدين خليل ص 75.

³ شجرة الدر د. يحيى شامي ص 54.

⁴ الفجوم الزاهرة (6 - 374).

صغيراً¹، وفي رواية أن الخطبة التي كان يخطب بها لشجرة الدرّ على المنابر، لما بويعت بالحكم من بعد الدعاء لخليفة العباسي هي التالية: ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة النبيّ وآلآه، الجهة الصالحة، أم خليل المستعصية، صاحبة السلطان تملك الصالح².

4 - نقش توقيعها:

وأيا يكن، فإن شجرة الدرّ، هذه هي التي راح الناس يدعون لها، ويخضبون، نقشت إسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان، وكانت صيغة النقش هي التالية: المستعصمة الصالحة، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل³.

5 - الاحتفال بتصيبها:

ما إن تمّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين حتى راح كبار القادة والأمراء يقدون على السليكة وقد تربعت على دسك الحكم في قاعة الإيوان التي كان بناء الملك الصالح حيث انقوش الذهبية، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأبفوس والرخام، وحيث القُرش والزرابي والصنائع والأرائك، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس الذي أهلمهم الإعلان عن شجرة الدرّ أنها ملكة المصريين ما بين مصدق للخبر، أو مكذب له، فكانت ترى مواكب الصنّاع والتجار، والفلاحين والجند، والراقصين والمغنيين والخدم والحشم⁴، على أية حار، قبضت ((شجرة الدر)) على زمام الحكم بيد من حديد، ووجهت إهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من

¹ يدائع الزهور (1 - 286).

² موسوعة تاريخ مصر (2 - 671).

³ المصدر نفسه (2 - 671).

⁴ شجرة الدرّ د. يحيى الشامي ص56.

6 . رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدر السلطنة:

تفجرت ثورات من الغضب في العالم الإسلامي وحاولت شجرة الدر أن تُجمَل الصورة قدر استطاعتها وتقربت إلى العلماء والعامة، إلا أن ذلك ذهب في إدراج الرياح وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحاءها، وقام العلماء والخطباء بنددون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم وفي المحافل العامة، وبخاصة وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجنيل ((العز بن عبد السلام)) رحمه الله²، وأرسل الخليفة العباسي من بغداد إلى الأمراء الذين كانوا بمصر يقول لهم: إعلمونا إن كان ما بقي في مصر عندكم من الرجال من يصلح لسلطنة، فحن نرسل إليكم من يصلح لها، أما سمعتم في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يفتح قوم ولوا أمره امرأة³، ومما قاله الشعراء في إنكارهم على تولي شجرة الدر السلطنة:

النساء ناقصات عقل ودين

ما رأين لهن رأياً سنياً

ولأجل الكمال لم يجعل الله

تعالى من النساء نبياً⁴

7 . شجرة الدر تخلع نفسها:

لقد اضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس ((شجرة الدر)) على عرش السلطنة، وأدركت السلطنة

¹ السلطان المظفر سيف الدين قطز ص 76.

² قصة انتار ص 229.

³ بدائع الزهور (1 - 287).

⁴ المصنف نفسه (1 - 287).

وزعماء الشمالك أنهم يمشون ضد تيار عزم، لا بد وأن يفرقهم في موجاته¹، وبعد ثمانين يوماً تنازلت ((شجرة الدر)) في الحكم لوحد اختارته بحماية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركماني الصالح، الذي اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقيل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدر وجلوسه على عرش السلطنة، بن أن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته²، وبالفعل تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة 648 هـ. وهكذا في غضون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة سنوك وهم السلوك الصالح أيوب — رحمه الله — ثم مات، فتولى توران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالح³.

8 - حكم تولى المرأة للولاية العامة.

اتفق فقهاء الإسلام على اختلاف مذاهبهم — على عدم جواز المرأة لمنصب الإمامة العظمى، وأن الذكورة شرط أساسي فيمن يتولى هذا المنصب⁴، حتى الذين يذرون بحقوق المرأة السياسية، ويؤيدون تدخلها في أمور السياسة، أكثرهم لا يجيزون توليها لهذا المنصب ويقولون بقصر الرياسة أو رياسة الوزارة على الرجل دون المرأة⁵، ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يرون رياسة الوزارة في النظام البرلماني مثل منصب الرياسة أو

¹ السلطان المنظر سيف الدين قطز صـ77.

² المصدر نفسه صـ77.

³ قصة لفتار صـ331.

⁴ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ83.

⁵ المصدر نفسه صـ84.

الإمامة الكبرى في النظام الإسلامي¹، واستدلوا على صحة هذا القول بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول.

أ. الكتاب:

— قوله تعالى: "الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم" "النساء، آية: 34". وجه الاستدلال: جعل الله تعالى في هذه الآية القوام للرجال على النساء وهم قوامون عليهم: والقوام على الأمر، أو المال أو ولاية الأمر، والتفيم: من يقوم بالأمر، والقوام: صيغة مبالغة، أي احسن القيام بالأمر²، فلما جعل الله تعالى القوام للرجل دون المرأة، فهو يعني حصر قيام بانتظام الأمور، وتدبير الشئون، وولاية الأمر في الرجل، وهذه القوام عامة تشمل ولاية الأمور العامة والشئون السياسية، بما فيها الإمارة والوزارة والخلافة ونحوها كما تشمل الشئون الأسرية ورعاية أهل البيت، فالرجال قوامون على النساء: أي القائمون بانتظام أمورهن، وكفالة نفقتهن، ومسؤولون عن الذب عنهن وحفاظتهن وأمرهم نافذ عليهن، فهم الحكام والأمرء، وعليهن طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم يكن في معصية الله³.

ومما يدل على أن القرآن لم يفيد قوامية الرجال على النساء بالبيوت فقط، أنه لم يأت بكلمة (في البيوت) في الآية حتى يحصر الحكم في دائرة الحياة العائلية⁴، والله لم يعطها حق القوام على بيتها وإنما جعله للرجال، فكيف تجعل على مجموعة من ملايين البيوت⁵.

¹ المصدر نفسه صـ 84.

² تفسير الطبري (8/290).

³ ولاية في المرأة في الفقه الإسلامي 85.

⁴ تكوين الدستور الإسلامي صـ 71.

⁵ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي صـ 91.

قوله تعالى: "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة" البقرة، آية: 228، ووجه الاستدلال إن الله تعالى في هذه الآية نفى ما كان في الجاهلية من عدم المبالاة بالمرأة وعدم اعتبار حقوقها وشخصيتها، فبين الله تعالى هنا أن النساء كالرجال في الإنسانية ولهن حق حسن المعاشرة كالرجال، ويجب لهن حق عليهم تجاه الواجب ولكن المراد بالمعاملة معاملة الواجب بالواجب في كونه ما يردده البعض في العصر الحاضر من كرم مساواة المرأة للرجل في جميع الأمور، لأن الله تعالى قال: "وللرجال عليهن درجة" وهذه الدرجة هي القوامة التي جاء بينها في الآية تساقطة الإمرة والطاعة¹.

— قال تعالى: "إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم" البقرة، آية: 247، وجه الاستدلال: إن الله تعالى بين في هذه الآية الكريمة صفات الاستحقاق للملك، وذلك أن بني إسرائيل لما طغوا في استحقاق طالوت للملك، قالوا: إنه لا يستحق لأنه ليس من أهل بيت الملك، ولأنه فقير ليس عنده مال، فرد الله عليهم بأنه استحق للملك لأمرين، لكون زيادته في العلم، وقوته في الجسم، فهذا دليل على أن قيادة الأمة تستند إلى من لديه علم واسع، وهو قوي جسم حتى يتحمل مشاق هذا المنصب²، ومن المعلوم أن المرأة ضعيفة الجسم والبنية لا تستطيع تحمل المشاق مثل الرجل، وهذا أمر فطري، فلهذا لا يستند إليها قيادة البلد³.

ب - السنة:

قال صلى الله عليه وسلم: إن يفتح قوم ولو أمرهم امرأة⁴: إن

¹ جامع البيان (2/454).

² تفسير الرازي (6/174) مدارك التنزيل (1/163).

³ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص-93.

⁴ البخاري، كتاب المغازي رقم 4425.

الذكورة شرط في أهلية الولاية العامة بالاتفاق، وأجمعت الأمة في العصور الأولى من انصحابه والتابعين، وتابعيهم والأئمة والفقهاء والعلماء والمحدثين والمفسرين على اختلاف مذاهبهم، أجمعوا على أن لا تصلح امرأة للأمامة الكبرى، ولا تجوز توليتها رئاسة الممنكة، كذلك رئاسة الوزارة في النظام البرلماني لأن لها صلاحيات مثل صلاحيات الإمام. وعلى هذا دلت الأئمة الصحيحة من الكتب، والسنة وهي ظاهرة في دلالتها ويقتضيه العقل والقياس، والحكمة في خلقه المرأة وتكوينها النفسي والجسدي، والاعتراضات الموجبة إلى حديث صحيح البخاري مردودة، ليس فيها شيء من القوة، إذ تلقته الأمة بالقبول، وانعترضون لا يريدون إلا التشكيك في الحديث النبوي وأما القول المعارض الذي حدث متأخراً فليس له دليل صحيح من كتاب والسنة، بل هي شبهات من اجتهاد بعض أفراد الأمة، أو أفعال من لا ينظر إلى عمله ولا يحتج بفعله¹.

ثانياً: سلطنة عز الدين أيبك:

تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني وتلقب باللقب السلطاني "الملك المعز" ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أسراء السلاطين سناً أو تقدمهم خدمة، أو أقواهم مكانة ونفوذاً إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس تدين أقطاي والظاهر بيبرس وهذه الحالة الإستثنائية في نظام التتبع المملوكي جعلت بعض المؤرخين مثل أبي المحاسن في كتابة النجوم الزاهرة؛ يتهم أيبك بضعف النفوذ والشوكة وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا² غير أن الحوادث دلت على أن أيبك رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما يصوره بعض المؤرخين، ويبدو أن أبا المحاسن نفسه قد شعر بالخطأ الذي

¹ ولاية المرأة في الفقه الإسلامي ص 161.

² قيام دولة المماليك الأولى لتعبادي ص 124.

وقع فيه حينما وصف أيبك بالضعف في كتابه النجوم الزاهرة، إذ أنه عاد واستدرك ذلك في كتابه الآخر: المنهل الصافي، فمدح أيبك فيه ووصفه بالديانة والصيانة والعفء والسياسة. وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق، وإذا تناولنا المشاكل والمصاعب التي واجهت السلطان أيبك، نجد أنها تتمثل في تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الأعراب في الداخل ثم خطر زملائه المماليك في داخل البلاد وخارجها¹.

1 - الخطر الأيوبي والصليبي:

رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر، وانسلخت عنها دمشق والكرك والقنوبك والصنية وغيرها من ممتلكاتها التابعة لها في الشام وأصبح في الشرق الأوسط إسلامي قوتان متنازعتان، ولايات الشام ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك، وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السلطة الشرعية وأن المماليك دخلاء عليهم، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم لإعادة المياه إلى مجاريها²، وشنوا حملة إعلامية مركزة على المماليك وقتلوا بأنهم هم الذين سحروا تملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً طمعاً في القدية التي أعطاها لهم وتلك التي تعهد بدفعها، وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة التسمين³، ولما توجه إلى الإمارات اللاتينية في الشام عمل على بث الخلاف وإثارة الفتن والقتال في الشرق الإسلامي، وأما المماليك البحرية فقد وجدوا أنهم لأصحاب الفضل الأول في إحرار النصر على لويس والتكليف به وبقواته على ضفاف النيل، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة وفارمكور ما تم النصر للمسلمين⁴، حتى وصفهم

¹ المصدر نفسه ص 124.

² العنوان الصليبي على بلاد الشام د. جوزيف ص 144.

³ المصدر نفسه ص 145.

⁴ العدوان الصليبي على بلاد الشام ص 145.

ابن راصل بأنهم كانوا دائرية الإسلام¹، ودافعوا عن اتهام الأيوبيين لهم بإخلاء لويس طمعاً في ماله، بأنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه في الأسر أن تثار ثائرة العالم المسيحي ويقوم بحملة صليبية جامعة ضد المسلمين قد لا يستطيعون دفعها²، خاصة وأن لويس لم يكن محبوباً في فرنسا، فحسب وإنما في أمم الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني أيضاً، ثم هم لم ينسوا بعد ما اقترفه تورانشاه³ ابن مولا هم الصالح أيوب في حقهم وفي زوجة أبيه شجرة الدر من إساءاته، كان من الضروري وضع حد لها قبل أن يفتن الزمام من أيديهم وييطش³ بهم، وأنهم بتخلصهم منه إنما انقذوا مصر من معاسده ومناذله، ولذا فهم يبرزون أنهم أحق بالملك من غيرهم⁴.

أ- لويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين:

ففي هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه كان الملك الفرنسي في عكا يسعى لتأليف حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس. وحري بالذكر في هذا المجال أن المسيحيين في المعازل اللاتينية في سورية وعلى رأسهم لويس كانوا يدركون حقيقة الحال في مصر وانشام وكانوا مطمئن إماماً تماماً بأحوال للعالم الإسلامي المضطربة إبان فترة الانتقال هذه، إذ سجل لويس في رسالته إلى شعبه أن هذا التناقض قد انعش أماله⁵، كما وجد انفرصة موتيه لتعويض ما خسره في مصر⁶، ومما يدنا على اهتمام الغرب المسيحي بما كان يجري في الشرق الإسلامي

¹ المصدر نفسه ص 145.

² المصدر نفسه ص 146.

³ المصدر نفسه ص 146.

⁴ المصدر نفسه ص 146.

⁵ المصدر نفسه ص 146.

⁶ المصدر نفسه ص 146.

من أحداث وقتذاك أن المؤرخين الغربيين المعاصرين لهذه الفترة أمثال جوانفيل وروتلان ووليم دي نايجي، ووليم دي شارتري، ومتى الباريزي وغيرهم، قد تتبعوا مراحل الخلاف بين مصر والشام، وسجلوا الكثير من ظروف الحال بينهما مما لا يقل قيمته عما خلفته لنا المصادر الإسلامية في هذا الشأن، وهي فضلاً عن ذلك تعطينا فكرة واضحة عن هذا النزاع من وجهة النظر المسيحية وعن موقف لويس منه¹، من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات التي قام فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر هي استغلال الفرصة، وترقب الأمور عن كثب، واتخاذ خطة السياسة والدهاء، عساه أن يعوض من وراء ذلك ما فاتته في حملته الفاشلة على الديار المصرية².

ب . تردد السفارات بين ملوك مصر والشام ولويس التاسع:

هكذا ترددت الرسل وتعددت السفارات بين كل من أمراء مصر والشام وبين الملك الفرنسي في عكا وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة وكل منهما يبتغي بالتعود المغربية طمعاً في كسبه إلى جانبه، ولكنه اتخذ سياسة الحرص والحذر، متوخياً في ذلك ما يطمئنه عليه المصلحة المسيحية قبل أن يتخذ قراراً حاسماً، فقد كان بوسع الإلتصام إلى أحد الفريقين أو الوقوف موقف الحياد أو أن يستمر على سياسة مزارجة أملاً في استتراف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن³، على أية حال؛ لم يكف لويس يستقر في عكا حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحنبل مبعوثين من قبله يسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم في قتاله ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم تورانشاه وتعهد له الناصر إذا تحالف معه بإعادة بيت

¹ العدوان الصليبي على بلاد الشام ص 147.

² المصدر نفسه ص 147.

³ المصدر نفسه ص 148.

المقدس التي كانت تحت إمرته آنذاك إلى المسيحيين¹، كان السلطان عز الدين آيبك يراقب الأحداث عن كثب وقرر مواجهة الخطر الأيوبي بالطرق السلمية أولاً وحتى يتمكن قمة الأيوبيين، إختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب، هو الأشمرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد وأقامه سلطاناً ليكون شريكاً له في السلطة، فكانت المناسبات والتواقيع والتمراسيم تخرج عنهما، ويخضب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضربت لهما السكة على الدنانير، والدرهم²، ويبدو أن آيبك عم بأنباء المفاوضات بين الملك الناصر ونويس التاسع، وخشي وقوع تقارب أيوبى صليبي، فرسل إنذار إلى الملك نويس التاسع بأنه سوف يقدم على قتل الأسرى الصليبيين الذين ساروا في مصر منذ أيام الحملة الصليبية السابعة على دمياط، وهم بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم، إن قام بأي عمل عدائي ضده وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف، غير أن الملك الفرنسي لم يشأ أن يترحم بشيء نحو أي من الطرفين وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية، لكن كان لزاماً عليه أن يفكر في أسرى الصليبيين الذين ساروا في مصر³، ولما ينس الناصر يوسف من إسقاط الملك نويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، ونسي زعماء البحرية خلافتهم الداخلية، وتكتلوا وراء آيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً، وخرج آيبك من القاهرة على رأس الجيش المملوكي للتصدي للتقدم الأيوبي، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط

¹ المصدر نفسه ص 149.

² تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة ص 396

³ مذكرات جونفيل ص 208-209.

مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المتداعين عنها فأمر بهدم نجرها، حتى خرب كله، ولم يبق من المدينة سوى الجامع وأكواخ من القش على شاطئ النيل يسكنها الصيادون وضعفاء الناس: وسموها ((المنشية))¹.

2 . معركة بين المماليك والأيوبيين:

والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في انعاشر من ذي القعدة 648هـ/ الثالث من شباط 1251م عند العباسية بين مدينتي بلييس، والصالحية، إنتصر فيها الناصر يوسف، في بداية المعركة، على الرغم من استيصال المماليك: غير أنه حدث أن فرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك العزيزية تخلفت عن مواقعها في عمرة القتال وانحازت: بذافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي²، ولما لم يكن الناصر يوسف مشهوراً بالشجاعة، لم يلبث أن تراجع ولاذ بالفرار عائداً إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين وسعهم الأمرى إلى القاهرة³، كن لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة، فقد إستثمر آيبك إنتصاره هذا، فأرسل بعد شهر، جيشاً، بقيادة فارس الدين أقطاي، استولى على غزة⁴، ثم قرر انزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها، ولكي يضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب نوبس التاسع، ووعده بإعطائه بيت المقدس فور إبتلائه عليه من الناصر يوسف⁵، ومن جهته رأى الناصر يوسف نفسه مضطراً للإعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود وإستمرارية الصراع مع المماليك، فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على

¹ السالك (466/1) تاريخ الأيوبيين ص398.

² تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص398.

³ تاريخ الأيوبيين طغوث ص398.

⁴ المصدر نفسه ص398.

⁵ المصدر نفسه ص398.

لويس التاسع التتازن له عن بيت المقدس، مقابل الحصول على مساعدته¹.

3. تحالف مملوكي - صليبي:

استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي تمصلحة الصليبيين، ونجح في الضغط على أيك، فأطلق سراح الأسرى الصليبيين، ثم عقد الطرفان معاهدة في 650هـ/1252م بهدف مناصرة الناصر يوسف، جاء فيها:

— وافق آيك على إطلاق سراح بقية الأسرى للصليبيين.

— إعفاء لويس التاسع من بقية التبع المتيقي عليه من القدية.

— وعد آيك الملك الفرنسي بأن يعيد للصليبيين كل مملكة بيت

المقدس التي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن².

غير أن التحالف المملوكي - الصليبي لم يؤد إلى شيء من النتائج

إذ بعد توقيع المعاهدة إتفق كل من أيك ولويس التاسع على القيام بحملة

مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام، وكان من المتفق عليه أن

يستولى لويس التاسع على يافا، في حين يستولى أيك على غزة، ثم يتم

الاتصال بينهما، ويقوم الجيشان بعد ذلك بهجوم مشترك على الإمارات

الأيوبية³. وتنفيذاً لهذه الخطة خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة

مقاتل إلى يافا واستولى عليها دون مقاومة وكانت تحت الحكم الأيوبي⁴،

بينما تقدم جيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر

في الصالحية، ويبدو أن الناصر يوسف علم بأبناء هذا التحالف، وما أعده

من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول

¹ المصدر نفسه صـ398.

² المصدر نفسه صـ399.

³ المصدر نفسه صـ399.

⁴ تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـ399.

دون إنتقاء الخليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تل العجول قرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، إرتدت إلى يافا لإستعادتها من يد لويس التاسع¹. وبفعل سيطرت الأيوبيين على غزة ظل المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر إحتكاك واستمر كل منهما يتحفظ بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصلح تم بين الطرفين في أوائل 651هـ/1253م، فما الذي تغير على الساحة السياسية؟²

4 ـ الخليفة العباسي وسعيه في الصلح:

الواقع أنه لم يقدر لتعداء بين الأيوبيين والمماليك أن يستمر في هذه الأونة وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى وتطلب منهم أن يتحدوا وهو ظهور المغولي الذين اكتسحوا العراق ووصلت طلائعهم قرب بغداد، ولم يبق من قوة في العالم الإسلامي يمكن أن تدعم الخليفة سوى الشام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح وتثبيتته بين الناصر يوسف والمعز أيك³، وتمكن رسول الخليفة من عقد صلح بينهما تقرر فيه:

— إعتراف الناصر يوسف بسلطة أيك، وبميادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن على أن تدخل مدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفسطيني كله في حوزته.

— إعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا بإتجاه العالم الإسلامي، وأخبار وحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة

¹ المصدر نفسه صـ399.

² المصدر نفسه صـ399.

³ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (1 — 400).

الخليفة، وكان المعز أيبك قد استغل إتصاره على الناصر يوسف، وإزدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتنصل من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف اسمه من الخطبة، وقبض عليه، وسجنه في قلعة انجيل وذلك في عام 650هـ/1257م، واستقل بالسلطنة¹. ومهما يكن من شيء فقد إتضح للملك الفرنسي واللاتيني أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا إتحدت جهودهم، واتفتت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل، وكان الصلح التي تم بين الناصر والمعز أيبك في صفر 651هـ/أبريل 1253م بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية وإلى لويس التاسع نفسه، إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل بانه، لتلقين الفرنج درساً قاسياً، وكان من لطبعي أن يبدأ التصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع، بعد أن كشف الأخير عن نيته واتخذ من أمراء مصر حلفاء له ضد خصومهم في الشام وساعد على ذلك أيضاً أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة على مقربة من المعسكر الصليبي يافا، ومع أن هذا التصدام لم يكن فيه معركة حاسمة، إلا أنه كان مقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي سنكيلها القوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم بعد إقرار الصلح بينها وبين مصر². لقد فشل لويس التاسع في الاستعادة من الإنشقاق الذي حدث بين الشام ومصر إلا أنه اضطر أخيراً العودة إلى فرنسا، فعانر قنسطين في ربيع الأول سنة 652هـ/24 نيسان 1254م مجروحاً في كرامته وعزته وكبريته بعد هزيمته في مصر، وكان ذلك إيذاناً بإضمحلال الروح الفرنجية العسكرية وموتها فيما بعد في وقت كانت

¹ تاريخ الأيوبيين في مصر والشام ص 400.

² الجوان الصليبي على بلاد الشام ص 192.

³ المصنر نفسه ص 200.

تكاد فيه طور النزع الأخير¹.

5 - تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر:

ومن المشاكل التي اعترضت السلطان آيبك، هي ثورة بعض القبائل العربية أو ما يسمى بالعربان في مصر سنة 1253م. من المعروف أن القبائل العربية استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي وتأثرت بالبيئة المصرية الزراعية، وأخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر، ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية وأطلق عليهم إسم العرب المزارعة، وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القرى القديمة الأهلة بالفلاحين من أهالي البلاد، غير أنه يلاحظ أن هؤلاء الأعراب كانوا يتمتعون بمركز إجتماعي أعلى مرتبة من الفلاحين بسبب المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب ولا سيما إبان الحروب الصليبية وكان مشايخ العربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القرى والأرياف كذلك ماهتمهم في الإنتاج الزراعي ودفع الخراج، وكان تصسف أمراء المماليك في تحديد ثمن المنتجات الزراعية وإحتكارها والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طول العصر المملوكي وهذه الثورات عرفت في الكتب المعاصرة باسم ((فساد العربان))، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العرب، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال²، وتجريد العرب من وسائل الدفاع المؤثرة، ففي منشور صدر في عصر المماليك جاء ما يلي: ... فلا يمكن أحداً عن العربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً وإنما بعدها للخيانة مختسماً ولا يكون لها مرتبطاً ولا محتسباً، وكن لهم ملاقياً مراقباً، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقباً ولا تمكنهم من حمل السلاح، ولا ابتياعه ولا استعارته

¹ معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنجة ص 78.

² قيام دولة المماليك الأولى ص 129.

ولا استبداعه ونفقد من بالأقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ما عند
التجار، وأقمع بذلك نفس العجار وأخرم نار العذاب على من أخرج لعمل ذلك
النار¹، وورد في منشور آخر ما يلي:

... ولا يمكن أحداً من العربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً
ولا يقننيه ويكفي بذلك الأيدي المعتدية فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها
مقتضية ... ومن وجد من العربان خالف المرسوم الشريف من منعه من
ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه وأرهبه من البطش بما أرهبه
ليرتجع به أمثاله، ولا يسع لأحد في الشرق مجاله²، ويرجع أسباب الصراع
انقائم بين العرب والمماليك إلى أن المماليك الذين استولوا على الحكم لم
يكونوا من أهل البلاد وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية، فحسب،
كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة والنتسب وظنوا
منعزلين عن أفراد الشعب ومع ذلك فإنه إذا كان للمماليك دور فعال في
الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها فإن للمصريين والعرب دورهم أيضاً
في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك ولذلك فقد رأى العرب أنهم أحق
من المماليك الغرباء بحكم مصر³، فقامت الثورات ضدّهم واستخدم المماليك
في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنضوي على القسوة والقهر، من وسائل
قتل وتعذيب معروفة في ذلك العهد وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد
كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى بغية التسول أو السرقة أو الإشتراك
في المنازعات والإضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك،
وكانت دوافع تلك الثورات اقتصادية وسياسية، ولا شك أن الدافع السياسي
وسعى بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولذا ردة فعل لديهم

¹ أصبح الأعمش نقلاً عن تاريخ القبائل العربية، محمود السيد ص 124.

² المصدر نفسه ص 125.

³ تاريخ القبائل العربية، د. محمود السيد ص 125، 126.

مما جعلهم يستخدمون سياسة العنف والقسوة في قمع الثورات خوفاً على سيطرتهم وأول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان إيبك الأتراكمانى عام 651هـ / 1253م وأسباب هذه الثورة ترجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية كما أسلفنا، فالمماليك منذ أن انتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية وتدخلت الخلافة في صانحهم اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجة أن بعض المؤرخين أمثال المقرئزي وأبي المحاسن، فضلوا عليهم الصليبيين وقالوا لو أن الفرنج ملكوا مصر ما فعلوا فعلهم¹. وهذا كلام لا يستقيم أمام الوقائع التاريخية فالفرنج لما تمكنوا من غزى دمياط في الحملة الصليبية، عملوا ما تقشع منه الأبدان وتشيب منه الرؤس، وفصنا كثيراً من أعمال الفرنج في كتبنا السابقة عن الحروب الصليبية، وقد حاول بعض المؤرخين أن يقدم لنا صفحات التاريخ المملوكي بلون أسود مظلم قائم، ومع اعترافنا بالحقيقة المرة أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك وبين الأسراء المماليك أنفسهم وولاعتهم المتعددة، فإن إشراقه من الإيمان تطل علينا وشموحاً تضاء في دهاليز الذات لدى هذا القائد أو ذلك، عندما يمس الإيمان شغاف قلبه، ويحرك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد، إن من التجني أن ننسى الدور الرائد الذى قام به الظاهر بيبرس والمظفر قطز في قيادة جيش إسلامي وقف كالطود الشامخ في وجه الزحف المتري، الذى كان يستهدف عقيدتنا، وديارنا وأمتنا ويمسى لإجتثاث ذلك كله من الوجود، وكانت النتيجة إندحار الغزاة وهزيمة المعتنين بوحدة الصف ودافع الإيمان الصالح المتين². إن معركة عين جالوت تمثل معنماً مضيئاً في خضم الظلمات ومثلها معالم

¹ السلوك (1 - 280)، النجوم الزاهرة (7 - 9)، قيام المماليك ص 130.

² تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء ص 180.

أخرى، كتحرير بلاد الشام من المشروع الصليبي في عهد المنصور بن قلاوون والمدارس التي بنيت والمكاتب التي أوقفت والمساجد التي شيدت وصرح الخير والبر والمرحمة، والحركة العلمية الموسوعية التي قادها علماء ذلك العصر، كالتنويري وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير والبزري والسبكي والسقريزي وابن خلدون والسيوطي وغيرهم كثير، وهذا ما سوف نعرفه في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

الحقيقة هناك تجاوزات حدثت في عهد المماليك منها استخدام العنف الغير مبرر ضد المعارضين مما ولدت ردة فعل عكسية قال أبو المحاسن: إن أهل مصر لم يرضوا بسultan مسه الرق؛ وظنوا إلى أن مات السلطان أيك وهم يسمعون ما يكره حتى في وجهه إذا ركب وهر بالطرقات، ويقولون لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة¹. وترجم تلك الثورة الشعبية شريف عنوي وهو حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء²، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدة تعرف بذروة سريام أو ذروة الشريف ((نسبة إليه)) وتقع بين النيل وترعة المنهي التي هي الآن بحر يوسف³. واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام يطلب مساعدته في محاربة أيك في تلك الوقت، إذ كانت رسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيول والمال بفضل الله ثم مشاركتهم في حروب الصليبيين، فكونوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيم حصن الدين وحفوا له،

¹ النجوم الزاهرة (7 - 13).

² القبائل العربية ص 131.

³ التعريف بالمصطلح الشريف ص 188.

واضطرب السلطان أيك أن يرسل حملة تذكيبية للقضاء على هذه الثورة، ومن عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية، وخرج أقطاي من القاهرة بخمسة الآلاف فارس من خيرة المماليك وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان، وعلى الرغم من قلة عدد السالك بالقياس إلى العرب، تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم أقطاي، وتهدمت المقاومة العربية في بلبس سنة 1253م¹، غير أنها بقيت على حالها في مصر الوسطى، حيث ظل حصن الدين طليقاً وأقام حكومة مستقلة هناك ولم يتمكن أيك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه إلى أن خدعه السلطان بيبرس البندقداري وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية²، وكيفما كان الأمر في نهاية الأمر حصن الدين، فالتمهم هنا أن أيك تغلب على أحد العناصر المهددة بقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر³، وذكر المقريري في السلوك أن من نتائج ثورات العرب ضد المماليك: أن تبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ⁴.

6 - خطر زملائه المماليك ومقتل فارس أقطاي:

ومن العوائق التي هددت حكم أيك وديولته الناشئة، خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي وكان أيك يتوجس خيفة من هذه الطائفة لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه "الملك المعز" كما عين مملوكه قطز المعزى نائباً للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من تكتاتهم بجزيرة الروضة، وعزل السلوك الأيوبي النفل موسى

¹ السلوك (387/1).

² لتعريف بالمصطلح الشريف ص 88؛ قيام دولة المماليك ص 132.

³ قيام دولة المماليك ص 132.

⁴ تاريخ القبائل العربية ص 133.

شريكة في الحكم، وانفرد بالسُّنَّة¹، على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مجرد احتياطات شكلية لم تقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية، ويجمع المؤرخون على أن أقطاي وصل إلى قمة انعجده خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العرب، وأصبح لا يظهر في مكان إلا حوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين كأنه منك متوج، وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شيء عنده وكان كثيراً ما يذكر الملك المعز في مجلسه ويستقصه ولا يسميه إلا أيكاً، وقد بلغ ذلك المعز فكان يعضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية²، وتقي المصادر التاريخية الضوء على القوة التي كان يمارسها ويتمتع بها أقطاي، فاثمريزي يقول عنه: واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، وقد استولى على الأمور كلها، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد بفتح كتاباً ولا يتكلم بشيء، ولا يبرم أمراً إلا بحضور أقطاي.

لكثرة خشداشيته³، وابن تغري بردي يقول عنه: فإنه كان أمره قد زاد في العظمة والتفت عليه المماليك البحرية وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك وحدثه نفسه بالملك وكان أصحابه يسمونه الملك الجواد⁴، فيما بينهم وعملوا على تزويجه من أحد أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، بل إنهم تَمَرَّوا على قتل أيبك ليخلفه الجواد لأقطاي⁵، قال الذهبي عنه: فعظم، وصار نائب المملكة للمعز وكان بطلاً شجاعاً جواداً، مليح الشكل، كثير الثمّل،

¹ قيام دولة المماليك الأولى ص 133.

² المصدر نفسه ص 133.

³ التجهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية ص 412.

⁴ النجوم الزاهرة (10/11/7).

⁵ قيام دولة المماليك الأولى ص 133.

أبيع بألف دينار، وأقطع من جملة إقطاعه الإسكندرية، وكان طائشاً ظلوماً
 محالاً على السلطنة، بقي، يركب في دست الملك، ولا ينفقت على المعز،
 ويأخذ ما شاء من الخزائن، بحيث إنه قال: اخلوا لي القلعة حتى أعمل
 عرس بنت صاحب حماة بها¹، وفهم منها المعز أنه يستهدف لإزالته من
 الحكم فقرر التخلص منه، واتفق مع مماليكه على ذلك وأرسل إلى أقطاي
 يستدعيه موهماً له أنه يستشير في مهمات من الأمور، وأكمن له كميناً من
 سائيكه وراء باب قاعة الأعمدة بالفتحة وقرر معهم أنه إذا مرَّ مجتازاً
 بالدهليز يبتدونه بسرعة، فلما وردته إلى أقطاي رسالة المعز بادر
 بالركوب في نفر يسير من مماليكه من غير أن يعلم أحد من خشداشيته²،
 لبثته بتسكن حرمة وطلع القلعة أمناً ولم يدر بما كان له كامناً فلما وصل
 إلى باب القلعة مُنع مماليكه من الدخول معه، ووثب عليه المماليك المنعزية
 فذاقوه كأس المنية³ وكان قتله يوم الاثنين حادي عشرين من شعبان واسر
 المعز بغلق باب القلعة، فركبت مماليكه وحاشيته وكانوا مبعماتة فارس
 ومعهم جماعة من البحرية وقصدوا قنعة الجبل، بناءً على أن المعز قبض
 عليه فبينما هم كذلك أزمي نهم برأسه من فوق السور فالتفت بعضهم إلى
 بعض وقالوا على من تقاتلوا فتفرقوا جميعهم، ولما شاع الخبر يقتله، أجمعوا
 البحرية على الخروج إلى الشام، وكان من أعيانهم يومئذ ركن الدين بيبرس
 البندقدار ي، وقانون الأنفي، وسنقر الأستقر، وبنسري، وسكر، وبرامق⁴،
 فتمسروا ويلاً وخرجوا نيلاً فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه

¹ سير أعلام النبلاء (197/23).

² خداشيته:

الإميل في الخدمة.

³ نزهة الأندلس في تاريخ الإسلام ص 220.

⁴ نزهة الأندلس في تاريخ الإسلام ص 220.

مغلقاً، فأضرموا فيه النار، وهو الباب المعروف بباب القارطين فأحرقوه، وخرجوا منه نحو الشام، فسمي من يومئذ الباب المحروق¹، وقصد البحرية الملك الناصر صاحب الشام ليُكونوا عنده ولما أصبح المعز، بنعه هروبيهم من المدينة فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسوانهم وعلمائهم واتباعهم، وإسبكتصفت أموالهم ونخائزهم وشؤونهم وخزائنتهم، واستتر من تأخر منهم، وحمى من موجود الأمير فارس أقطاي الجمال المستكثرة من الأموال ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع، وتمكن الملك المعز من المملكة وارتجع ثغر الإسكندرية إلى الخاضع السلطاني، وأبطل ما قرره من انجبايات وأعلى الرعية من المصادرات والمطالبات وأما البحرية، فإنهم وفدوا على الملك الناصر، فأحسن إليهم، وأقبل عليهم وأعطى كلأ منهم إقطاعاً يلائمه، ثم عزم على قصد الديار المصرية، فجرد عسكرياً صحبة البحرية فساروا ونزلوا الغور واتخذوا العوجاء منزلاً، وبلغ المعز مسيرهم إليه وانفاقهم عليه، فبرز بالعساكر المصرية وبمعه جماعة ممن حضر إليه من العزيزية، ففرز الباردة بالقرب من العباسية وانقضت هذه السنة وهو مخيم بها²، وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم وبمعه بنت السلطان علاء الدين كيقياد بن كيخسروا صاحب الروم وكان الناصر قد خطبها لنفسه، فزفت إليه بدمشق، ودخل بها واحتفل بها احتفالاً كبيراً³.

وتدخل الخليفة العباسي من جديد بين الأيوبيين والمماليك ووصل نجم الدين البادراني لتوسط بين الطرفين وتجح في تجديد معاهدة الصلح على أن:

— يستعيد المعز أبنك ساحل بلاد الشام.

¹ المصدر نفسه ص 220 نرايات في تاريخ مصر سحر عند العزيز ص 239.

² المصدر نفسه ص 221.

³ التحفة الملوكية في الدولة التركية، ببيرس المنصوري ص 360.

— ألا يأوي الناصر يوسف أحداً من المماليك البحرية.

7 - مقتل السلطان أيبك وشجرة الدر:

يبدو أن أيبك أخذ يشعر بما بين زوجته شجرة الدر والمماليك البحرية بالكرك من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها وأرسل سنة 1256م ميلادية إلى بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل يطلب إليه حنفاً زواجياً لم يعلم عنه إلا ما تداولته الشرايع من خطبته أيبك لابنة بدر الدين وليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في الزواج إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول عن طريق صاحب الموصل، وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة لعهد أيبك، وذلك نئن شجرة الدر لما علمت ما بيئت لها أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته، فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج، فقبض أيبك على عند كبير، منهم أيدكين الصالحي، وسيرهم قلعة الجبل لسجنهم في الجب، فلما وصلوا إلى قرب نافذه القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدر، احنى الأمير أيدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية (والله يا خوت! ما عملنا ذنب وجب مسكناً ولكنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ما هان علينا لأجلك، فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم الصالح أيوب، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين، فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها بما معناه قد سمعت كلامك وعندما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين؛ إن كان قد حبسنا فقد قتلناه¹، ومعنى هذا أن شجرة الدر كانت قد بيئت هي الأخرى لايبك جزاء وفاقاً، وأن قبضه على أولئك لم يكن مجرد معارضتهم في الزواج، بل لأنه

¹ الخوتد:

السيد أو الأمير ويخاطب به التذكور أو الإناث.

² السلوك (1/401 - 402).

علم بمؤامرتهم، فأراد أن يقضي على الحركة كلها بالفصل بين أمراء المماليك وزعيمتهم غير أن شجرة الدر كانت قد دبرت ما لم يكن في الحسبان إذ أرسلت سراً أحد المماليك العزيزية إلى الملك الناصر يوسف بهدية ورسالة تخبره فيها أنها عازمت على قتل أليك والتزوج منه وتمليكه عرش مصر، ولكن الناصر أعرض عنها خوفاً أن يكون في الأمر خدعة، ولم يجيبها بشيء، وعلم بدر الدين لؤلؤ باخبار هذه المفاوضات السرية فبعث بها إلى أليك ينصحه أن يأخذ حذره، وخاف أليك على حياته فترك القلعة وأقام بمناظر اللوتي وصمم على قتل زوجته قبل أن تقضي عليه وأخذ الزوجان يتسابقان في نسج المؤامرات بعد القبض على البحرية في القاهرة، وانتهى السباق بانتصار المرأة في ميدانها، إذ أرسلت شجرة الدر إلى أليك رسالة رفيقة تتلطف به وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة، فاستجاب لدعوتها وصعد إلى القصر السلطاني بالقلعة حيث أعدت له شجرة الدر خسة من الغلمان الأشداء لاضتياله، منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزي، وسنجر وكان آخرهم من مماليك أقطاي¹، وقد قام هؤلاء الغلمان بما أمروا به وقتلوه في الحمام في أبريل سنة 1257م، 655هـ²، قال الذهبي عن السلطان المعز كان ديناً عاقلاً، كريماً، ثاراً للشرب³.

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أليك بملابس لائقة ووضعها على فراشه. والإدعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدوه، وسبب ذلك في إصابات أنهت حياته، وسرعان ما أنتشر نبأ وفاة السلطان وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروري واقعة سقوطه من على ظهر جواده، لكنهم استمعوا إليها

¹ قيام دولة المماليك الأولى للعبادي ص 139.

² انمصر نفسه ص 139.

³ سير أعلام النبلاء (198/23).

في زبية، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها وهو يحارب من على ظهر جواده لكنها في كل مرة كانت تصير وتؤكد الواقعة¹، وأحيط بشجرة الدر، وواجهها أمراء المماليك فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الإنتقام، لكن لم يخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون، لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر، وصنعوا منها ملكة وسلطانة، وأحاطوها برعايتهم وحمائيتهم، حتى في أصعب الأوقات، وباركوا زواجها من عز الدين أيبك، وساعدوها على أن تصبح زوجة السلطان، فكيف ترتكب هذه الفعلة النكراهة؟ وتتكرر على هذا النحو البغيض على أنهم انفسوا على امرهم، وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلظة وجبروت، فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمز للشرعية، فهي أرملة نجم الدين أيوب وأم ابنه خليل، ولها من الأيدي على مصر وعلى المماليك انفسهم الشيء الكثير البادي للعيان ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة سرعية، وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريفيين، وأخيراً انتصر أعداؤها وحُست في أحد أبراج القلعة، ونودي بعلي، بن عز الدين أيبك السلطان الراحل، سلطاناً جديداً ليخلف والده الراحل ويحدثنا أحد المؤرخين أن شجرة الدر كانت قوية في مواجهة الموت كما كانت قوية في مواجهة للمداهمات، فلما لقيت من نهايتها أسرع إلى خزانها واستخرجت حلبيها ومجوهراتها جميعاً، وسحقها سحقاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي زوجة السلطان الأولى وفي هذه الرواية شك كبير كذلك؛ فكيف لشجرة الدر، وهي سجين في برج بالقلعة أن تسرع إلى خزانها وتستخرج حلبيها، ثم تسحقها جميعاً حتى لا تتزين بها غريمتها أم علي كما يقول المؤرخ²؟ وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها

¹ شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر ص 85.

² شجرة الدر قاهرة الملوك ومنقذة مصر ص 86.

انتشار النبأ ورضي الجيش بالسلطان الجديد بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ومذكر لها، وتوقفت أعمال للشعب التي كانت قد انتشرت في القاهرة، وتجنب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت، تهددهم، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد حيث كانت غريمته أم علي، زوجة أيك الأولى قد أصبحت منها أم السلطان الجديد، وتمألت أم علي فرحاً فكانت تنتظر فرصة كهذه منذ سبع سنوات، منذ أن هجرها زوجها أيك وجر معها أبنهما علي. إن ساعة الإنتقام قد أوفت، وأمرت خادمتان القصر بالدخول على شجرة الدر وضربها بالبقايب حتى تفارق الحياة، يقول المقريزي: فضربها الجوارى بالبقايب إلى أن ماتت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها سوى سروال وقميص، فبقيت في الخندق أياماً وأخذ بعض الرائل العامة تكة سراويلها ثم دفنت بعد أيام — وقد ننتت — وحملت في قفة، بثربتها²، قال عنها تذهبي: ودفنت بثربتها بقرب قبر السيدة نفيسة، وقيل: إنها أودعت أمولاً كثيرة فذهبت، وكانت حسنة السيرة، هناك تكن هلكت بالغيرة³، وقال ابن العماد فيها: كانت بارعة الحسنة، ذات ذكاء وعقل ودهاء... نالت من السعادة أعلى المراتب، بحيث أنها خطب لها على المنابر، وملكوها عليهم أياماً، فلم يتم ذلك، وتملك المعز أيك فتزوج بها وكانت ربما تحكم عليه، وكانت تركية ذات شهامة وإقدام وجرأة وآل أسرها إلى أن قتلت⁴. وأما غريمته أم السلطان الجديد، أم علي، فكانت قد نذرت أن تدعو كل سكان القاهرة، إلى وجبة من الخلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمته، وعندما ماتت شجرة الدر. أمرت طهارة القصر

¹ سير اعلام النبلاء (199/23).

² السنوك (494/1).

³ سير اعلام النبلاء (200/23).

⁴ شذرات الذهب (464/7).

بإعداد تلك الوجبة، لكن الوقت لا يسمح بالإنتهاء في نفس اليوم، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية، كما كميّات ضخمة الخبز، يجري تسخينها إلى درجة الإحمرار وتغمر في اللبن والعسل، ثم تغطى بطبقة سمكية من النوز والزبيب والصنوبر، وإلي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدم في المطاعم في أيامنا هذه، وقد سميت بإسم أول من صنعها، أم علي¹.

8 - سلطنة علي ابن اعرثم تولى سيف الدين قطز:

صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، علي أن يقيموا علي العرش الذي بات شاغراً بمصرع آيبك صبيّاً في الخامسة عشر من عمره هو (نور الدين علي) ابن سيدهم المعز آيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة 655هـ/1257م ولقبوه الملك المنصور علي، وقد رفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة، استجدت بعض الفئات المتزعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيّب عمر صاحب إمارة الكرك - في الأردن حالياً - غزو مصر مرتين، لكن انقضى كان من نصيبه²، بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز، فقد قام قطز بالقبض علي الآتابك سنجر الحلبي وحبسه في الحب بقعة الجبل، لأنه كان يطمع في السلطنة بعد مقتل المعز آيبك، ولأنه كان يتحين الفرصة لوثوب علي العرش، وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والقوضى، فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام، وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا علي عدد منهم وأودعهم سجون القلعة، وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان... وصار مدبر دولة الملك المنصور علي³. وكان جلسو

¹ شجرة الدر، قاهرة الملوك ومنقذة مصر ص 87.

² السلطان المنصور سيف الدين قطز ص 80.

³ المصدر نفسه ص 81، السلوك (1 - 405).

السلطان الصبي على العرش مسألة قصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه، وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت بإعتراف الجميع طوال ذلك العصر ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثته العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء في ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به اقواهم، واقتربهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقاً لمبدأ (الحكم لمن غلب)، وكنت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التناقص والمنازعات بين كبار الأمراء، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان، وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك ولم يشأ ((سيف الدين قطز)) أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها.. ولا شيء أكثر من ذلك وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه، على حين كانت الإشاعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبي يريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد، واجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم، وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز.. وخلع عليه وطيب قلبه وهكذا توطلدت مكانة سيف الدين في الدولة²، وفي الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارها طوائف المماليك في القاهرة، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيبي عمر في

¹ المصدر نفسه ص 81.

² لتجوم الزاهرة (7 - 43).

ذي القعدة 655هـ/1257م وفي ربيع الأول سنة 656هـ/1258م يفتلق باله، بحيث خرج في المرتين لتقاء الماليك البحرية وحليفهم الأيوبي ويفضل شجاعة ((سيف قطز)) تم القضاء على هذا الخطر الأيوبي بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل وبعد أن واجه الخطر الخارجي، فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى ((الملك المغيث عمر)) في هذا الشهر نفسه، وهم: الأمير ((عز الدين أيبك للرومي الصالحي))، والأمير ((سيف بلخان الكافوري الصالحي الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بكتوت الأشرفي))، والأمير ((بدر الدين بلغان الأشرفي)) وغيرهم، وضرب أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها¹، وبذلك إزدادت الغامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً، ولكن الدولة التي يحكمها سلطان في سن الصبي بدت واهنة ضعيفة وغير قادرة على تحمل مزامرات الصغار ونعيمهم بأقدار البلاد والعباد، ثم بدأ صدى طبول الحرب التتارية يتردد على حدود السلطنة الوليدة، ولم يكن بوسع السلطان الصبي ((نور الدين علي)) أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة. ويلعب بالحمام مع الخنم²، ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد إضطراباً والقلق يفترس نفوس الناس³. وتعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو للخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية وتدعيم نفوذه السياسي الداخلي من ناحية أخرى والاستعداد لمواجهة التتار، من ناحية ثالثة⁴، ومع اقتراب جحافل التتار من الشام أرسل الملك للناصر

¹ السلوك (1 - 411)، السلطان المظفر سيف الدين قطز ص 83.

² السلطان المظفر سيف الدين قطز ص 83.

³ المصدر نفسه ص 83.

⁴ السلطان المظفر سيف الدين قطز ص 84.

المؤرخ والفقيه المعروف كمال بن العديم إلى عصر يستجد بعساكرها وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب، على الساحة السياسية في مصر، وكان النجم المطاع في تلك الساحة هو الأمير ((سيف الدين قطز))، ولما قدم ابن العديم إلى القاهرة، عقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة، مثل: قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين، وسألهم الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لانفقتها على الجنود ففتى الشيخ عز الدين بفتوته المشهورة التي يأتي تفصيلها عند الحديث عن عين جالوت بإذن الله تعالى، وكان هذا الاجتماع من الأنوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي، عرش مصر وقاتل التتار، وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطوات قطز صوب عرش مصر وقاتل التتار¹. وبينما كان هولاء يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعاً وتزداد قامته السياسية طولاً، وكأني على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته الكبرى في هزيمة الجحفل التتارية الطائفة، لقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان للصبي، وأخذ يتحدث عن مساوي المنصور علي، وقال: لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبي صغير لا يعرف تدبير الملك²، وساعده على الوصول لهذا الهدف أن مغنم الملك المنصور علي كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله واستهتر في اللعب وتحكمت أسه فاضطربت الأمور وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي

¹ المصدر نفسه ص 88.

² السلطان المعظم سيف الدين قطز ص 89، النجم الزاهرة (7 - 55).

غزة، وعلى رأسهم سيف الدين بهادر والأمير علم الدين سنجر الغنمي، في يوم السبت 24 ذو القعدة سنة 657هـ/1259م وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما واعتقلهم في أحد أبراج القلعة، فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام¹. وهكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش، وصار سلطاناً على الديار المصرية، وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل في نفس اليوم؛ واتفق الحاضرون على توليته، لأنه كبير البيت ونائب السلك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضي به الأمراء الكبار والخوشداشية وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر².

9 - ترتيب سيف الدين قطز للأموال الداخلية:

ثم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان، إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه في الداخل قبل أن يتوجه للقاء عنده في الخارج، فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز، وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب عبد الرقيق بن يزيد بن الزبير، ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور، ووثبه على للملك، فخافهم واعتذر إليهم بحركة انتار إلى جهة مصر³ والشام، وقال سيف الدين قطز في سياق تبريره لما حدث: وإني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال انتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطنة من شئتم⁴، وأخذ يرضي أسراء

¹ السلوك (1 - 417)، النجوم (7 - 55).

² السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ90.

³ السلوك (1 - 417، 418)، السلطان للمظفر سيف الدين قطز صـ92.

⁴ السلوك (1 - 418)، السلطان المظفر صـ92.

السمايك حتى تمكن علي حد تعبير المقريري، وما أن شعر أن سلطته قد
 رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه،
 فأرسل المنصور علي وأخاه وأمه إلى دمياط، واعتقلهم في برج بناء هناك
 وأطلق عليه اسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعاً إلى القسطنطينية، بعد ذلك
 قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغنمي،
 والأمير عز الدين أينغر تنجيسي الصغير، والأمير شرف الدين فيران
 المعزي، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير
 عز الدين أيك النجسي الصغير، والأمير سيف الدين اندو خال المنك
 المنصور علي بن المعز والطوائش شيل الدولة كقور لا لا الملك المنصور،
 والطوائشي حسام الدين بلال المغيبي الجمناز، واعتقلهم، وهكذا تمكن من
 التخلص من رؤوس المعارضة، ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان استنظر
 سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوظف دعائم حكمه، فحلف الأُمراء
 والحسك لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع، وأقر
 الأمير فارس الدين أقطاي الصغير الصانحي المعروف بالمستغرب أتابكا
 وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد،
 وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار، لقد ضمن سيف الدين
 قطز هدوء الأحوال داخل دولته، بيد أنه كان ما يزال متوجساً من ملوك
 الأيوبيين في بلاد الشام، خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق
 وحنبل، وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر
 بدمشق، خف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطاباً رقيقاً يحاول فيه تجنب
 المواجهة وأقسم قطز بالإيمان أنه لا يفتزع الملك الناصر في الملك ولا
 يقاومه، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حل بها أقعدت علي
 الكرسي وقال قطز أيضاً: ... وأن أخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن

معى من العسكر نجدة لك عل القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاروا¹. وهكذا ظهرت سن قطز معاني من التضحية والتواضع والحرص على وحدة الصف ساعدته للتصدي للمشروع المغولي وكسره في عين جالوت يأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في الفصل القادم.

¹ السلطان المنظر سيف الدين قطز صـ92، 93، 94.

الفصل الرابع

معركة عين جالوت الثالثة

إنكسار المغول

المبحث الأول:

إحتلال المغول لبلاد الشام و الجزيرة:

أولاً: صعود ميافارقين:

انتهى انتشار من غارت الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها وملوكها وكثرتا قد فرغوا من أمر بغداد، فوجهوا جيوشهم بنقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العام لتعلميات في المنطقة هولوكو خان، لم يضيع انتشار الوقت في عام 656هـ / 1258م بعد سقوط بغداد، توجه هولوكو مباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دبنمسر ونصيبين، ومن ثم حران، وكلف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش انتشار والسير باتجاه ميافارقين وكلف معه القائدين إيلكا نويان وسوندي نويان، ووجه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد¹.

1. آمد بمواجهة انتشار:

في عام 655هـ / 1257م كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين صاحب ميافارقين قد عاد من زيارة منكوقآن انتشار الأعظم، بعد أن قدم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يكاتب أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة للملك السعيد صاحب

¹ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 - 47).

مزددين، وأرسل عسكره، فطردوا عسكر سلاجقة الروم واحتلوا آمد¹، وفي عام 557هـ وبينما كان التتار يحاصرون ميافارقين، وصل هولاءكو إلى آمد واستدعى سيف الدين بن محني نائب الكامل فيها، فخرج إليه، وطلب منهم هولاءكو تسليم المدينة، فلم يمانع، وقام هولاءكو بتسليمها إلى ابني كيبضرو سلطان سلاجقة الروم المتوفي، وهما ركن الدين وعز الدين ولما اقتبما البلاد أصبحت آمد مع ركن الدين قليج أرسلان، وفيها نوابه مع نواب التتار، ثم انتقلت بعد مقتله إلى ابنه عيانت الدين².

2 . تحدي ميافارقين للتتار:

وبعد عودة الملك انكاسن بن خان التتار إلى ميافارقين أعلن انحصان على التتار، وحبس نوابهم وخرج بتهجاه دمشق لمقابلة الملك الناصر يوسف وقال له: إن هولاء التتار لا تقيد معهم مُدارة، ولا تتجح فيهم خدمة، وليس لهم عرض إلا في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد، ومولانا السلطان قد بذل لهم الاموال من سنة اثنتين وأربعين وإلى اليوم (656هـ)، فما الذي أثمرت فيهم من طووس المودة؟ فلا يغتر مولانا بكلام بدر الدين - صاحب الموصل، ولا بكلام رسولك - الزين الحافظي، فإنهما جعلاك خبزاً ومعيشة وأحذرك كل أحذر من رسولك فإنه لا يناصرك ولا يخترك عليهم، وغرضه إخراج ملكك من يدك وأنا فقد علمت أنني مقتول سواء أكنت لهم أو عليهم؛ فاخترت بأن أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله، وما الانتظار وقد نزلوا على بغداد، وانمصلحة خروج السلطان - الناصر - بعسكره لإتجاد المسلمين وأنا بين يديه، فإن أدركناه عليها فيها، ونعمت وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم نركه أخذنا بثأره³.

¹ المصدر نفسه (2 - 48).

² المصدر نفسه (2 - 48).

³ العلاقات الدولية (2 - 50).

3 - مشروع الكامل لمواجهة النصار:

كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع النصار، وقد تجلت في المشروع الذي قدمه للملك الناصر الأيوبي عند زيارته له في دمشق، وهو مشروع هجومي وليس دفاعي:

أ - أدرك الناصر أن نزول هولاكو على بغداد لحصارها هو الهدف الأكبر للنتار، وإنهم بعده سيتوجهون إلى الجزيرة والشام.

ب - تأكد الكامل أن سقوط بغداد سيكون نهاية للدولة الإسلامية بكن رموزها ومعانيها وممالكها وبمزاراتها.

ج - نكل ذلك كان شروعه يبدأ من بغداد، فقد طلب من الناصر يوسف التوجه بجيشه وسيكون الكامل معه إلى بغداد نذجتها؛ فمركة بغداد هي التي ستصم الصراع مع بغداد.

د - كان يبدو من كلام الكامل ثقته - إلى حد - ما بالناصر، فإن لم يمكن نجدة الخليفة وإنقاذه فالتار له.

هـ - قام الكامل بتحذير الناصر من تضليل بدر الدين لؤلؤ المتعامل مع النصار، ومن خيانة رسول الناصر إلى النصار وزيره الزين الحافظي ((فقد جعلوك خبزاً ومعيشة))¹.

نقد كان الكامل واحداً من الملوك القلة الذين تجرؤوا على سجد التفكير بالمقاومة وربما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف فقد قتل النصار الملوك المستسلمين والخاضعين والمقرومين على أسوء، وهذا ما ثبتت الأيام صحته².

4 - رد الناصر على مشروع الكامل:

ما إن علم الملك اناصر بتوجه الكامل لستمر على النصار نحوه

¹ 'العلاقات الخطيرة لابن رشد، نقلاً عن العلاقات الدونية (2 - 5).

² العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 - 51).

حتى جمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك الزين الحافظي والصلاح نور الدين بن السجاهد والملك الأشرف بن المنصور صاحب حمص، فإنهم كانوا متفقين مع التتار وقال الزين الحافظي للناصر: متى بلغ هولاءكو خروجك إليه جعله سبباً إلى قصد بلادك والمصلحة اعتذارك إليه، وردّه، فلم يمكن الناصر إلا موافقة الجم الغفير، فخرج إليه، وتلقاه وأنزله بدار السعادة،¹ إن ما تستتجه من ما دار في مجلس الملك الناصر هو أن أعوان التتار يشككون حزياً له وجوده حتى في حاشية الملوك، ولكنهم قلّة، وأن معظم الناس كان مشاعرها ضد التتار، وتميل للمقاومة مهما كنت الفتاح، لقد استمع الملك الناصر ولم يوافق على مشروع الكامل، فبعد أن عرض الكامل مشروعه لتفسير إلى بغداد أيد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التتار، فقد كانت لهم جزأة في المعارضة، أما الملك الناصر، فكان رده متخاذلاً أكثر من تحاذئه على أرضه، إذ عرض على الكامل أن يرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هولاءكو، فأجابه الكامل قائلاً: جئتك في أمر ديني تعرضني عنه بأمر ديني؟ فقال: متى نزلوا عليك أرسلت لك عسكرياً، فأجاب الكامل: هذا لا ينفعني حينئذ، إذ لا وصول له إلي²، فقد مثل الكامل إرادة الجهاد والمقاومة مهما كلف الثمن، واختار الشهادة بجزء إن لم يكن النصر، أما لملك الناصر، فقد عبّر عن جبنه وتخاذله وحيرته وتردده وانعدام قدرته على اتخاذ قرار ناجح في لحظة تحتاج إلى قرار، وبقي الكامل في دمشق حتى سمع سقوط بغداد، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب، حيث التقى به ابن شداد وقال له: أصبت في قصدك الملك الناصر، وما أصبت في رجوعك، هلا قصدت مصر؟ فيرد الكامل:

¹ الإغلاق للخطيرة لابن رشد نقلًا عن العلاقات الدولية (2 - 52).

² الإغلاق للخطيرة (2 - 52).

لقد خفت على قلب الملك الناصر، فيشير عليه ابن شداد أن يخرج حريمه من ميافارقين، ويستخلف نوباً، ويعود للملك الناصر، لعل تنهض عزمته. ويتضح لنا من هذا الحديث بين الكامل وابن شداد أن فكرة قصد مصر كأمل أخير لثوقرف في وجه التتار قد خطرت على بال الكامل، لكنه لم ينفذها حتى لا يغضب الناصر في وقت هو بأمن بحاجة إليه، كما نثين أن ابن شداد كان مطلعاً على التوضع العام، فقد عرف أن وضع الجزيرة ميؤوس منه فنصح الكامل بإخراج حريمه من ميافارقين، وعرف أن الناصر ستخاض ختف يحتاج لاستنهاض عزمته¹.

5 - سقوط ميافارقين واستشهاد الكامل:

بعد أن تم للمغول الاستيلاء على اربيل، أمر هو لآكو الأمراء يشموت واينكا نويين وسونتاى بانوجه إلى مدينة ميافارقين، ولما بلغوا حدودها أرسلوا رسلاً من قبهم إلى الملك الكامل الايوي صاحبها يدعونه إلى الخضوع، والطاعة لهم ويتعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم، إلا أن الملك الكامل قابل ذلك التهديد بالرفض الشديد، وذلك لما كان يعرفه عن المغول من الخيانة ونكت العهود حيث رد عليهم قائلاً: إنني لن أخضع بكلامهم المعسور، ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف ما دمت حي²، ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل، إتفق الأمراء المغول على مهاجمة ميافارقين، وإنتزاعها بالقوة من يد حكامها وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر، حيث عمد إلى تطييب خواطر سكان مدينته ورفع روحهم المعنوية، بإعطائهم وعداً ببذل كل ما يملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن في سبيل الدفاع عن مدينتهم، فاتحد معه سكان المدينة جميعاً وأعتنوا له أنهم رهن إشارته، وعلى

¹ جهاد المماليك ص 53.

² جامع التواريخ نقلًا عن جهاد المماليك ص 75.

إستعداد للجهاد ضد العدوان المغولي الذي بات يهدد مدينتهم بالخراب والدمار، واستطاع مسلمو ميافارقين أن يصمدوا واستبسلوا في انقتال¹، وصمدت المدينة الباسلة، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد، وكان من المفروض في هذا التحصار البشع الذي ضرب على ميافارقين أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها، ولكن هذا لم يحدث لم تتسرب إليها أي أسلحة ولا أطعمه ولا أدوية، فقد احترم الأسراء المسلمون النظام الدولي الجديد الذي فرضته القوة الأولى في العالم - انتار - على إخوانهم وأخوانهم وبناتهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم المسلمين والواقع أنني أتعجب من رد فعل الشعوب، أين كانت الشعوب؟

— ثم يكن الشعوب تملك حريتها وفراها بل كانت خاضعة لإرادة حكامها.

— كانت هناك عمليات ((غسيل مخ)) مستمرة لكل شعوب المنطقة فلا شك أن الحكام ووزراءهم وعلماءهم كانوا يقتعون الناس بحسن سياستهم وبحكمة إدارتهم.

— من لم يفتح العلماء والخطب والحدج فيقناعه يكون بالسيف، فقد تعودت الشعوب على القهر والبطش والظلم من الرلاة².

أقبل المغول على فرض حصار شديد على مدينة ميافارقين، اشتركت فيه فرق أرمينية ومسيحية شرقية وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود هائل عجز أمامه المغول على اقتحامها مدة طويلة، وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارغان أذجلا قادة المغول ودوخاهم وأرقعاهم في الدهشة والحيرة، إذ كان لبساتيها وأحكامها الرماية سبباً في إنزال أفدح

¹ جهاد المماليك ص 76.

² قصة انتار ص 178.

الخشائر في الجيش المغولي، حتى اضطر هولوكو الذي أحرك عجز قواته عن اقتحام المدينة إلى إرسال مدد جديد بقيادة الأمير أرققو، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه إلى الجهة التي فيها جيش الأمير المغولي إيلكيا تويان، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، نفذت الأرزاق من داخلها وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من سدة ضرب السنجنيقات، حتى هلك أكثر سكان المدينة¹، فقد وقعت المجاعة فيها بسبب تحصار الطويل وفي عام 658هـ - 1260م سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة ودخل انتشار ميفارقين "فوجدوا جميع سكانها موتى، ما عد سبعين شخصاً نصف أحياء، وقبضوا على الكامل الأيوبي؛ فعنفه هولوكو وأمر بتقطيعه²، وأخذوا يقضون لحسه قطعاً صغيرة ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطأوا به في البلاد وذلك في سنة 657هـ/1259م³، حتى وصل دمشق، فعلقوه على باب الفرائيس، حتى أنزله الأتاعي ودفنوه وقتل المغول كل من وجدوه في ميفارقين وهدموا، وهذا يدل على شدة حنق المغول من العنك الكامل، ومن مقاومته نهم وربما كان أيسر ما كلفتهم إباد هو الخشائر البشرية والمادية فهي - بلا شك - ساهمت في تحطيم شمعتهم الحربية المرعبة لأن مقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المقاومة ضد انتشار، وأصبح انكامل بموته قوة ومثالاً للتضحية والشهادة⁴. وكذلك مدينة ميفارقين التي تقع الآن في شرق تركيا إلى الغرب من بحيرة وان" فقد كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا، بالإضافة إلى منطقة الجزيرة، وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة

¹ جهاد المماليك ص 76.

² المصدر نفسه ص 76.

³ المصدر نفسه ص 76.

⁴ العلاقات النولية (54/2).

والفرات من جهة الشمال، أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق وعلى الشمال الشرقي من سوريا¹.

6 - مآزدين:

بعد أن تمكن هولانكو من إنهاء الأمر في ميافارقين أشار على امرائه بالزحف على مدينة مآزدين، التي كانت تتمتع الأخرى بحصانة كبيرة، إذ تعجب المغول من ارتفاع قلعتها واستحكاماتها لذلك عمد هؤلاء القادة إلى اتباع نهجهم التقليدي بإرسال أرسال إلى صاحبها الملك السعيد، بالتهديد والوعيد إلا أن الملك السعيد نجم الدين ايلغازي الأرتقي، أبي الانصياح إلى أوامره ورد عليهم قائلاً: كنت قد عزمت على الضاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين، ثم قتلتموهم بعد أن اطمئنوا إلى عهدكم وامانكم، فبني الآن لا اثق بكم، وأن القلعة بحمد الله تعالی مشحونة بالبخائر والاسلحة ومليئة برجال الترك وشجعان الكرد² وضرب الحصار الشديد على مآزدين وعلى كل فإن هولانكو استنصاع خلال تلك الفترة أن يستولي على آمد وحران والرها وسروج وعدد كبير من مدن وحصون اقليم الجزيرة، ومن ثم قرر هولانكو إرجاء أمر مآزدين ريثما يصفى حسابه مع الشام، فعبر الفرات على رأس قواته قاصداً حلب فاستولى عليها في المحرم من عام 658هـ / 1259م وعاد الحصار من جديد واثاء الحصار توفي الملك السعيد بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة فهلك أكثرهم فتولى الحكم ابنه الملك المظفر، وتمت مفاوضات بين الملك المظفر والمغول وتم الصلح مع المغول وكان هولانكو قد أرسل بكوهداي أحد كبار أمراء المغول إلى مآزدين وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر وزوجه الأخير أخته وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى

¹ جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك ص 77.

² الاغلاق الخطيرة (3 - 566 - 568)، جهاد المماليك ص 84.

هولاكو في رمضان من السنة نفسها يحمل الهدايا إليه، فاجتمع به هولاكو وأكرمه، ثم قال له: بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك، فترك أصحابك الذين رافقوك عندي، فإني لا آمن أن يحرفوك عنى، ويرغبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر، وإذا ما دخلت تلياد فاصطحبهم معي¹، فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى بلاده وفي الطريق أرسل هولاكو في طلبه بأمره بالعودة إليه ثانية فعاد إليه يرتجف خوفاً، فلما اجتمع به قال له هولاكو: إن أصحابك أخبروني إن لك باطناً مع صاحب مصر، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل إليهم، ثم عين نذلك أمير يدعى ((أحمد بغا)) وأعادهما إلى ماردين، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين والخابور، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر ضمت إلى آمد وميافارقين، كما ألحق بهمارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة كقرقيسيا حيث ابقى المغول قوة لحفظ المعابر²، وفي الوقت نفسه أمر هولاكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين وما أن غادر الملك المظفر معسكر هولاكو حتى أقدم الأخير على ضرب رقاب أصحاب الملك السعيد، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين، ولم يكن لأي من هؤلاء ذنب ينكر، ولكن قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر³. وهدت مدينة ماردين ولاية مغولية، ينفذ حكامها ما يأمرهم به قادة المغول، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياساتهم الخارجية وبحركاتهم العسكرية، ويقدمون لهم المال والإمدادات العسكرية ويضربون النكسة باسمهم ويخطبون لهم وحقق المغول بتدخلهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود وهو السيطرة على منطقة

¹ جهاد المماليك ص 84.

² امصدر نفسه ص 84.

³ امصدر نفسه ص 84.

ديار بكر واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي¹.

ثانياً: السلطان الناصر بين المقاومة والاستسلام:

أقدم الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق انذي يعد أعلى الأمراء الأيوبيين شأناً في بلاد الشام على إعلان الخضوع لهولاكو بعد سقوط بغداد مباشرة، فقد استجاب لأمر هولاكو، فأنفذ إليه ابنه الملك العزيز يحمل الهدايا والتحف معه عدد من الأمراء فلما وصل العزيز إلى معسكر هولاكو وسلمه ما معه من الهدايا والتحف التي تعبر عن الولاء والتبعية لهولاكو، طلب منه العزيز على نسان وانه أن يرسل إليهم نجدة لمساعدتهم في استعادة الأراضي المصرية، من أيدي المماليك².

1 - رد هولاكو على الملك الناصر:

رأى هولاكو أن عدم إستجابة الملك الناصر يوسف لأوامره، بالخروج إليه بنفسه، يعد تمرداً على أوامره، وأن الوفد الذي أرسله الملك الناصر إليه لا ينسب مقامه، ولم يكتف بعدم الاستجابة لطنبه هذا، بل أصر هذه المرة على خروج الملك الناصر إليه بنفسه لتقديم الولاء والطاعة ومعه قوة قوامها عشرون ألف فارس، حيث أعاد هولاكو الملك العزيز إلى أبيه ومعه رسالة ذكر فيها من صنوف العذاب والدمار والهلاك³ وجاء فيها: الذي يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعته

¹ للمصدر نفسه صـ 87.

² السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ 69.

³ جهاد المماليك صـ 69.

النعم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خبيسة، فجمع المال: ولم يعبأ بالترجاء، وكان قد نما ذكره وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والتكامل:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ دَنَا نَقْصَهُ

تَوَقَّ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمَّ

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا

فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النِّعَمَ

وَكَمْ مِنْ فَتَى بَاتَ فِي نِعْمَةٍ

فَلَمْ يَدْرِ بِالْمَوْتِ حَتَّى هَجَمَ

إذا وقعت على كتابي هذا فسارع برجائك وأمواتك، وفرسانك إلى طاعة سننن الأرض (شاهنشاه روي زمين) أي ملك الملوك على وجه الأرض، تأمن شره، وتتل خيره، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: 'وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى *' ثم يجزاه الجزاء الأوفى¹، ولا تعوق رسلنا عندك كما عوقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم إنهمزوا بحريتهم إلى كروان سراي¹، فإن كانوا في الجبال نسفناها وإن كانوا في الأرض خسفناها².

أَيْنَ النِّجَاةُ وَلَا مَنَاصُ لِهَارِبٍ

وَلِيَّ البَاطِنِ الثَّرَى وَالمَاءِ

ذَلَّتْ لِهَيْبَتِنَا الأَسْوَدُ وَأَصْبَحَتْ

فِي قُبُضَتِي الأَمْرَ وَالبُزْرَاءَ³

¹ كان هذا هو الاسم التاريخي لمصر.

² السلوك (1 - 506).

³ المصدر نغمه (1 - 506).

هذا طرف من الحرب النفسية التي كانت انتار يشنونها ضد أعداهم¹.

2 - إستنجاد الناصر بالمماليك:

رفض الملك الناصر دعوة هولاکو وأرسل إليه رداً مليئاً بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأساً على عقب، حيث ألقم عندما بلغه عبور القوات المغولية نهر الفرات على إرسال رسول من قبله هو الصحاح كمال الدين بن العنيم إلى المماليك في مصر يستجد بهم ضد جيوش هولاکو التي باتت هجومها وثيقاً على بلاد الشام، وأمام هذا التصرف الجريء لتسلك الناصر يوسف، أدرك هولاکو - على ما يبدو - فشل سياسة التشنج التي إتبعها مع الملك الناصر، والتي أدت به إلى الارتقاء في أحضان المماليك في مصر، وبدأ هولاکو يفكر في تلافى ذلك الخطأ حيث سارع بإرسال نجدة سريعة إلى الملك الناصر في دمشق، ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاکو، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك والأيوبيين، إذ يذكر المقرئزي أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما علم بوصول تلك النجدة المغولية إلى الملك الناصر بدمشق، بعث إليه كتاباً أقسم له فيه بالإيمان أنه لا يغازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر، وختم كتابه هذا بقوله: وإن إخترتني خنمك، وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صعبة من تختار².

3 - سقوط حلب:

كانت مدينة حلب أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية، فقد أصدر هولاکو أوامره بقواته بعبور نهر الفرات، ومهاجمة بلاد الشام،

¹ سيف الدين قطز ص 86 قاسم عيده.

² جهاد المماليك ص 70.

ووصل الخبر بذلك إلى حلب وكان يحكمها الملك المعظم تورانشاه نائباً عن الملك الناصر، فجدف الناس خوفاً من المغول إلى دمشق، وعظم الخطب على من بدخلتها، وقبل وصول القوت المغولية إلى حلب، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها، إلا أن الملك المعظم الأيوبي رد علي بقوله: نيس لكم عندنا إلا السيف¹، ثم احتزز على حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعة، بأسوارها المحكمة البناء وقلاعها المنيعة، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية². وفي العشرة الأخيرة من ذي الحجة سنة 657هـ نوفمبر 1259م، قصد المغول مدينة حلب ونزلوا على قرية يقال لها سلمية واستدروا إلى قريتي حيلان والحاري وهما قري حلب، ثم سيروا فرقة من عسكرهم بإتجاه حلب، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمع غفير من العوام والسوقة، وأشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الأمكن، وقد ركبوا جميعهم لإنتظار عسكر حلب، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة وأصبح الملك المعظم تورانشاه بعد ذلك أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب، وعدم الخروج منها³، وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طائفة حلب، ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل نزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم، فلما شاهد المغول ذلك تراجعوا أمام الجيش الإسلامي سكرأ وخديعة لاجتذابهم بعيداً عن البلد، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار، ثم كر الجيش المغولي وخرج من مكانه فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد والعدو في أثرهم، ولما حازوا جبل بانقوسا وعنيه بقية الجيش الإسلامي اندفعوا جميعاً نحو المدينة والعدو مستمر في مطاردتهم، فقتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام، ونازل المغول حلب ذلك

¹ المحتصر في أخبار البشر (3 - 201)، جهاد المماليك صـ89.

² النجوم الزاهرة (3 - 201)، جهاد المماليك صـ89.

³ جهاد المماليك صـ89.

اليوم إلى آخره، ثم رحلوا عنها إلى أعزاز فتسلموها بالأمان¹.

أ - الإضطرار إلى التسليم:

عاود المغول هجومهم على حلب في ثاني صفر من 658هـ/يناير 1260م وأحكموا حصارها بحفر خندق حولها عمقه قامه، وعرضه أربعة أذرع، وبنوا حائطاً بارتفاع خمس أذرع، ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً وشرعوا في رميها بالحجارة ونقب أسوارها ومهاجمتها من كل الجهات، حتى اضطر - إلى التسليم في التاسع صفر من 658هـ/يناير 1260م، ولم ملكوها غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ونهبوا الثور وسبوا النساء والأطفال، ثم إستباحوا المدينة خمسة أيام عاثوا فيها فساداً حتى إمتلأت الطرقات بجثث القتلى، ويقال إنه أسر من حلب زيادة على مائة ألف من النساء والصبيان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من إلتجأ إلى دار شهاب الدين بن عمرو، ودار نجم الدين أخي مردكين، ودار البازياد، ودار علم الدين قيصر الموصللي، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي وكنيسة اليهود بفرمانات كانت بأيديهم وقيل أنه سلم بهذه الأماكن من القتل ما يزيد عن خمسين ألف نفس².

ب - هدم أسوار المدينة وقلعتها ومساجدها:

لجأ الملك المعظم تورانشاه إلى القلعة ومع جمع كثير من حلب، واستمر الحصار على القلعة وشدد المغول مضايقتهم لها نحو شهر³، وبنو خيانة حدثت في جيش الملك للمعظم سهلت للمغول مهمتهم في تشديد حصارهم للقلعة ومعرفة مواطن الضعف فيها؛ ومن ثم تثبيط همم المقاتلين داخلها، الأمر الذي ترتب عليه تسليم القلعة إلى المغول رغم حصانتها بكل

¹ النجوم الزاهرة (7 - 75 - 77)، جهاد المالكي ص 90.

² السلوك ثمقريزي نقلاً عن جهاد المالكي ص 90.

³ المختصر في أخبار البشر ص 201، جهاد المالكي ص 91.

سهولة، ودخل هولانكو بعد ذلك إلى القلعة وخرّبها، وهدم أسوار المدينة وجوامعها ومساجدها وبساتينها وعفى آثارها، حتى غدت بلدة موحشة، بعد أن كانت تعد من أزهى مدن الشام، وخرج إليهم الملك المعظم تورانشاه، ويذكر المقرئزي أن هولانكو لم يتعرض له بسوء لكبر سنه¹، ولا يستبعد أن يكون الملك المعظم قد أصيب خلال حصار المغول للمدينة والقلعة بجراح بالغة أو بمرض لم يعد يرجى برءه، أو أن هولانكو قد دبر قتله سرّاً، بديلين ما ذكره المقرئزي نفسه من أن الملك المعظم توفي بعد ذلك بأيام قلائل².

جـ ـ غنائم لحنفاء هولانكو من النصارى:

لم يشأ هولانكو أن تمر فرصة إستيلائه على حلب دون أن يكافئ حليفه، هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وبوهيمند السادس الصليبي أمير أنطاكيا اثنين ساعدها في ذلك العمل، حيث قام بإعطاء ملك الأرمن جزءاً من الأنفال، وأعاد إليه الأقاليم والقصور التي كان مسلمو حلب قد استولوا عليها منهم، كما رد إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من إمارته، وعبر هيثوم عن إيتباهجه بذلك بإحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه إنتقاماً من المسلمين³. وهكذا سقطت مدينة حلب في يد المغول، وحقق هولانكو بذلك ما لم يستطع تحقيقه الأمراء الصليبيون والباطرة البيزنطيون وحطم حصناً عظيماً من حصون الإسلام، وغدت هذه المدينة، التي كانت تعتبر بحق من أروع وأزهى مدن الشام خربة يائسة، وعين عليها هولانكو حاكماً من قبله⁴، وقد أثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين، الفزع والوجل في نفوس المسلمين

¹ المقرئزي السبوك نقلاً عن جهاد المعاليك صـ91.

² السبوك نقلاً عن جهاد المعاليك صـ91.

³ تزيخ النولة المغولية في إيران صـ141 عبد السلام فهمي.

⁴ جهاد المعاليك صـ92.

ببلاد الشام، فوصل إلى هولاءو بطلب كثير من أمراء المسلمين، ليعلنوا ولائهم وخضوعهم، ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي، صاحب حمص، للذي سبق أن إنتزع منه الناصر إمارته، فأعادها إليه هولاءو، على أن تكون إقطاعاً وراثياً له من قبل هولاءو، ونما رفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام إلا نقاد حامية حلب، إعتبر هولاءو ذلك إهانة له وإنتقاصاً من مكانته، فأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم وسبي نسايتهم وأطفالهم ثم ألحق بهم رجال الحامية جميعاً¹.

4 • دمشق:

بعد سقوط حلب أرسل هولاءو رسلاً من قبله إلى دمشق دخلوها ليلة الإثنين السابع عشر من صفر سنة 658هـ/ فبراير 1260م وهم يحملون فرماناً منه تأمين المدينة وأهلها مقابل تسليمها، وقرئ هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر².

أ . موقف بيبرس البندقداري:

وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار أهل دمشق وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي، بمداواة المغول والدخول في طاعة هولاءو، لتجنيب دمشق وأهلها ما حل بحلب من الهلاك والدمار والخراب، ولكن ذلك للرأي نم يجد التأييد الكامل من أهل دمشق، حيث رفضه البعض³ وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس، وصاح في وجه زين الدين قائلاً: أنتم سبب هلاك المسلمين، ويبدو أن الملك الناصر كان على رأي زين الدين الحافظي، فحاول بعض أتباع بيبرس من طائفة المماليك البحرية، قتل الملك الناصر، وتولية حاكم آخر عالي الهمة، نافذ الرأي، يستطيع جمع الناس للجهاد في

¹ المصدر نفسه ص92.

² المصدر نفسه ص93.

³ المصدر نفسه ص94.

سبيل الله وقينتهم في ميدان القتال لصد العدوان المغولي والدفاع عن الإسلام وأهله، إلا أن بيبرس تخلى عن دمشق وذهب مع جماعة من المماليك البحرية إلى غزة، حيث استقبله أميرها أحسن إستقبال، وفيها سير بيبرس رسولاً من قبله إلى السلطان المظفر قطز ليحلفه على إعطاء الأمان ونجح في المصالح مع قطز الذي وعده التوجه الجميلة، ثم سافر إلى بيبرس إلى مصر وانضم إلى قيادة قطز وأصبح من أكبر أعوانه الذين ساهموا للتخطيط لمحركة عين جالوت وقيادة الجيوش الإسلامية وتحيق ذلك النصر المؤزر الذي بدد أحلام المغول بكاملها¹.

ب - تسليم دمشق:

خرج الملك الناصر من دمشق ومعه جمع من أتباعه يريد غزة وترك دمشق في حالة يرثى لها، وقد جمع من أكبر دمشق وأعيانها حضرة هولاکو ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق، وأظهروا الطاعة والخضوع له، وسلموا المدينة، وأمر هولاکو قاده كيتوبوقا إلى دمشق لإختبار أهلها، فاستقبله أهل المدينة وطلبوا منه الأمان، ثم أرسل أعيانهم إلى بلاط هولاکو وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال وولى عليها هولاکو جماعة من المغول وعين ثلاثة من أهلها لمساعدتهم في تصريف الأمور بها²، وأما قلعة دمشق فقد استحصت على المغول، ورفض من بداخلها التسليم لهم، وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حصن من عند هولاکو ومعه مرسوم بأن نائب السلطنة لدمشق والشام كلها، وتم حصار القلعة وضربها بالمنجنقات وخراب من القلعة مواضع وطلب من بداخلها الأمان، ودخلها المغول ونهبوا ما كان فيها من الكنوز والدفائن وأحرقوا مواضع كثيرة منها، وهنموا عدداً كبيراً من

¹ جهاد للمماليك ص 95.

² جمع التواريخ (2 - 307 - 308)، جهاد المماليك ص 96.

أبراجها، وأنفقوا سائر ما بها من الآلات والتعد¹.

جد - تسليم حماه:

أما مدينة حماه فإن صاحبها الملك المنصور الثاني كان قد حضر إلى بركة لوتجهز مع الملك الناصر، فلما سمع أهل البلد في غيبته بأخذ حنب أرسلوا رسولاً من قبلهم إلى هولاكو، يسألونه العطف، وسئموا له البك، فأعطاهم الأمان، وجعل عندهم شحنة من قبله، أما قنعة حماه فيبدو أن ما حل بحلب وأهنها وقتلتها من الأهواو فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول². وبعد أن تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه، وغيرها من البلدان المجاورة، أصبح باستيلاءهم على بقية مدن الشام مسألة وقت، كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهواو والفرع والخوف، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين، ففي الأسابيع القليلة التالية، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذي أوكل إليه هولاكو مهمة إتمام الإستيلاء على بلاد الشام بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة للمشاركة في إنتخاب الخان الجديد³، السيطرة على بلاد الشام حيث توجه إلى نابلس، وحينما حارو أهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم، ثم أغارت جموع المغول على سائر بلاد الشام، حتى وصلت إلى أطراف غزة، وبيت جبريل، والصلت، وبعليك وبنائياس وغيرها، واستولوا عليها وقتلوا وسبوا ما قدروا عليه، ثم عانوا إلى دمشق، فباعوا بها ما غنموه من هذه المدن⁴.

¹ دول الإسلام للذهبي تفلأ عن جهاد المماليك صـ97.

² مختصر (3 - 201)، جهاد المماليك صـ97.

³ جهاد المماليك صـ97.

⁴ أخبار البشر (3 - 202)، جهاد المماليك صـ98.

ب - موقف النصارى في الشام:

جاءت سيطرت المغول شديدة الوطأة على المسلمين في بلاد الشام، إذ أنهم بادروا قبل كل شيء إلى تدمير الاستحكامات والأسوار والقلاع في البلاد التي خضعت لهم مثل حلب ودمشق وحمص وحماء وبعليك وبيانيس وغيرها، وحققوا بذلك ما لم يستطع تحقيقه الصليبيون من قبل¹، ولقد مال المغول منذ اللحظة الأولى لغزورهم للشرق الأدنى إلى العنصر المسيحي النسطوري، ولعل وصية منكو خان لأخيه هولاکو التي نصت على إستشارة هولاکو لزوجته دوقوز خاتون التي كانت مسيحية نسطورية خير دليل على ذلك، وقد أدى وجودها في ركاب زوجها هولاکو إلى انفتاح المسيحيين الشرقيين حول المغول، إذ ان معروف أن المناطرة إزداد عددهم في الجيش المغولي ووصلوا إلى حد قيادة جيوش امغولية، فكيوتوبوقا كان من عناصر انيمان المناطرة، وكان من الطبيعي أن يتأخى هؤلاء المناطرة مع الجماعات الأرمنية واليعاقبة وغيرهم التي تكاثرت عددها في كبرى مدن الشام²، وقد أدى هذا التلاحم إلى مشاركة العنصر المسيحي على مستوى قيادة الجيوش في إقتحام مدن الشام، وهولاکو عندما اقتحمت جيوشه مدينة حلب كان بصحبته ملك أرمنية هيثوم الأول وصهره يوهيمند السادس أمير أنطاكيا، كما شهدت عاصمة الخلافة الأموية دمشق لأول مرة منذ ستة قرون ثلاث أمراء مسيحيين هم: كيتوبوقا وهيثوم ويوهيمند يشقرون بمواكبهم شوارعها³، ويصح أن نؤكد أن غزو المغول لبلاد المسلمين في الشام إتخذ طابعاً صنيبياً، وقد ذكر أن هولاکو عندما غزا بلاد الجزيرة قدم عليه جاشليق الأرمني ومنحه البركات، ولما كان هيثوم الأول ملك أرمنية

¹ المغول للعريبي ص 248.

² للمغول ص 248 للعريبي.

³ المصدر نفسه ص 248.

الصغرى في إتصاله مع المغول يتحدث بإسمهم وإسم صهره بوهيمند السادس أمير أنطاكيا انصليبي فإن هذه الحملة قد إتخذت صفة حملة صليبية أرمينية - مغولية¹، والواقع أن سقوط المدن الثلاث الكبرى، بغداد وحب ودمشق في أيدي المغول يعتبر من الكوارث المفاجئة التي هزت العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وترتب على سقوط دمشق في أيدي المغول أن أعلن المسيحيون بها التمرد وانتسوخ، ولم يخفوا فرحتهم بما حل بالمسلمين من نكبة، ولم يخف القائد المغولي كيتوبوفا نفسه ما يمكنه من التميل نحو هؤلاء المسيحيين وترزده إلى كنائسهم، وذهب بعضهم إلى هولوكو وأحضروا من عنده ((فرماناً)) ينص على الاعتناء بأمرهم ودخلوا به البنت وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بإرتفاع دينهم وانتضاع دين الإسلام، ورشوا الخمر على ثياب المسلمين وأبواب المساجد وأتزموا المسلمين في حوائبهم بالقيام للصليب، ومن لم يفعل ذلك أهانوه وأقاموه غضباً، وطافوا وهم يحملون الصليب ويدقون النوليس في الشوارع إلى كنيسة مريم، وقام بعضهم أثناء المسيرة باللقاء الخطب فيجل دين المسيح وانتقص دين الإسلام، وضجر المسلمون من ذلك وصعدوا مع قضاتهم وشهودهم إلى نائب هولوكو بالقعة، فم يستجب لشكواهم وأخرجهم من القعة بالضرب والإهانة، وأخذت نائب هولوكو موجة من الإهتمام بالنصارى - فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها على اختلاف مذاهبهم، فاشتدت تائرة المسلمين، للانتقام لمقدساتهم، فقاموا بإحراق كنيسة مريم، وخرّبوا جزءاً من كنيسة اليعاقبة².

ويمكن القول أن هذا التلاحم بين القوى المغولية والقوى المسيحية الشرقية، الذي أثمر استيلائهم على بلاد الشام، وتحطيم استحكاماتها، ومن ثم التطاول على المسلمين بها والاعتداء على مقدساتهم، كان أحد العوامل التي

¹ المصدر نفسه ص 242.

² جهاد فماليك ص 102، البداية والنهاية (17 - 398).

نفتت المسلمين في الأراضي المصرية إلى تدارك الأمر واستنفار كامل قواهم، ومن ثم إعلان حركة جهاد إسلامي المقدس ضد المغول وحلفائهم حتى تحقق لهم ذلك النصر العظيم في معركة عين جالوت¹.

5 - نهاية السلطان الناصر الأيوبي:

أصبح السك الناصر مسئول الإرادة سرعياً، ليس له رأي، وعندما شاهد جنده ومماليكه هذه الحال، قرروا تحيته باغتياله أو انقبض عليه، وسلطنة أخيه الملك الظاهر غازي بن العزيز شهامته²، وعلم الناصر بالأمر، فترك المعسكر هارباً بالنيل إلى قلعة دمشق، فأستطع بيد مماليكه الناصرية، وأعاونتهم، قهرنوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزة³، وكان تسارع الأحداث في الشام أكبر من أن يترك صدى أو ذيولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتتار لا يهدؤون وقد انضم إليهم - علناً - الأشرف بن المجاهد، فأعادوا له حمص وأعمالها وكذلك الملك السعيد بن عبد العزيز، حيث أطلقه هولاءكو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته على بانياس، وقنعها التي تعرف بالصليبية⁴، فقرر الملك الناصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد تضمنت العسكر، ونصرمة، وقلت الحرمة، وطمع كل أحد، ولم يبق عند الناصر إلا قوم قلائل، وسار الملك الناصر عن دمشق على أمل جمع الكنمة مع المضفر قطز لقاءً تكتاراً، وأخذ ما بقي معه من الجيش، وترك دمشق خالية من العسكر، وأنها على الاسوار يشتمونهم ويدعون عليهم ويقولون: تركتمونا ضحمةً لتتار، لا كتب الله عليكم السلامة⁵، وعبر الزين الحافظي إلى دمشق

¹ جهاد المماليك ص 102.

² السارك للمقريزي (1 - 512)، جهاد المماليك ص 74.

³ العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 - 74).

⁴ المصدر نفسه (2 - 74).

⁵ المصدر نفسه (2 - 74).

وأغلق أبوابها وسير الناصر عليه، ليجتمع به، فامتنع عن الخروج إليه وجمع أكابر دمشق، واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاء¹، وسار الناصر ومعه المنصور محمد صاحب حماه، فوصل نابلس، حيث ترك بها حامية، ولما وصل غزة، انضم إليه مماليكه الفارون وتصالح مع أخيه غازي، وعلم الناصر في غزة أن التتار قد احتلوا نابلس فقصت العريش، وأرسل يخبر قطز ويمأله الاجتماع لمواجهة التتار، ويبدو أن جواباً شافياً مطمئناً لم يصل من قطز إلى الناصر ((فاستراب الناصر بأهل مصر))²، وكان قد بلغ قطية ((فخاف الناصر دخول مصر فيقبض عليه))³، فسمح الناصر لمن يريد من مرافقيه دخول مصر، فحزم المنصور محمد أمره ودخل المنصور والحسكر مصر، فالتقاهم قطز، واحسن للمنصور، وأعطاه سنجقاً ودخلوا القاهرة⁴، وأما الملك الناصر، فقد أعمته الحيرة فيما يفعل؟ وابن يتوجه؟ وأخذ يفكر بالتوجه نحو الحجاز، ثم عدل إلى ناحية الكرك، فتحصن به، ولكنه قلق، فركب نحر البرية، واستجار ببعض أمراء الأعراب⁵. وربما بسبب الطمع، أو نيل الخطوة لدى التتار، قام واحد من مرافقيه وخدمه هو حسين الطبردار الكردي⁶، بالتوجه إلى إحدى سرايا التتار التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين وأعلمهم بمكان وجود الملك الناصر ((فقصده التتار وأتلفوا ما هنالك من الأموان، وخرّبوا الديار، وقتلوا الكبار والصغار، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي وقتلوا

¹ اخبار الأيوبيين ابن العميد ص 51، العلاقات الدولية (2 - 74).

² العلاقات الدولية (2 - 75) نقلاً عن تاريخ ابن خلدون.

³ المختصر (3 - 201)، العلاقات الدولية (2 - 75).

⁴ عقدة الجمال للمعنى (1 - 232)، العلاقات الدولية (2 - 75).

⁵ البداية والنهاية (13 - 233)، العلاقات الدولية (2 - 75).

⁶ هو الحارس الشخصي للمسلطان.

منهم خلقاً وسبوا نسلهم ونساءهم وقبضوا على الملك الناصر وأرسلوه مع أخيه الظاهر غازي بن محمد وابنه العزيز محمد بن يوسف وإسماعيل بن شيركوه إلى كتبغا نوين الذي سيّره بدوره إلى هولانكو وأقام الناصر عند هولانكو حتى بلغهم أخبار هزيمة التتار في عين جالوت، فقام هولانكو بقتل الناصر ثم قتلوا بقية من كان معه ولم ينج من نقمة هولانكو إلا العزيز محمد بن الناصر يوسف لصغر سنه حيث بقي عند التتار حتى مات¹.

¹ العلاقات الدولية (2 - 76)، شفاء القلوب ص 420.

المبحث الثاني:

مفاهيم معرّكج عمن جالوت وسير أجد انها

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في ايدي المغول وحلفائهم ان عم الرعب والخوف سائر أرجائها، فهرب الناس باتجاه الأراضي المصرية، وفد انغرس داخل نفوسهم نتيجة ما شاهدوه من الاحوال وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك وأن انشيء انذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية تترجم نواياهم تلك بإنهاء خلافاتهم وتوحيد كلمتهم، وإعادة تنظيم جموعهم ومن ثم بحث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم لدرء ذلك العدوان الذي استشرى خطره ويات يهدد ما تبقى من انعالم الإسلامي بالدمار والهلاك والواقع أن مصر في ذلك الوقت كان كل شيء فيها ينبيء بظهور قوة جديدة¹.

أولاً: احتلال مصر هدف استراتيجي للمغول:

إن المتتبع لخط سير التتار سيدرك على وجه اليقين أن مصر هدفاً استراتيجياً للمغول وذلك لعدة اسباب منها:

- 1 - سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة.
- 2 - لم يبق في انعالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر، فقد سقطت معظم الممالك والحصون والمدن الإسلامية تقريباً وبقيت هذه القلعة الصامدة.
- 3 - الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الأهمية، فهي في قلب العالَم القديم، ومتحكم في خطوط التجارة العالمية.

¹ جهاد المماليك ص 105.

4 - احتلال مصر بولاية شمال أفريقيا وفي ذلك الوقت كان المغرب الكبير، قد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة المرينيين، ولم تكن لها القدرة على الوقوف أمام الإمبراطورية المغولية.

5 - القوة البشرية في مصر، والطاقت الكامنة بها، واستيعابها لفلول المسلمين الهاربين من المغول كان مصدر قلق بالنسبة للمغول.

6 - مقومات حركة الجهاد الناجحة كانت متوفرة في مصر من قيادة واعية، وحمية دينية، وتجمع للنعماء والفقهاء القارين من هول المغول، فكان المغول يخشون أن تتحول تلك المقومات إلى مشروع إسلامي لتحرير ديار المسلمين من الاحتلال المغولي¹.

6 - رغبة المغول في الهيمنة على العالم كله تستدعي منهم القضاء على دولة المماليك، ثم أن القرار باحتلال مصر أخذه امبراطور المغول في عاصمتهم بحضور كبار مستشاري الإمبراطورية المغولية.

ثانياً: خطوات سيف الدين قطز لتوحيد الصف الإسلامي:

بات سيف الدين قطز يدرك ادراكاً تاماً أن بقاء دولته الفتية يتوقف على اجتياز ذلك الامتحان الصعب المتمثل في الغزو المغولي للممالك الإسلامية الذي استشرى خطره، وأن يثبت أنه بحق أهل الثقة التي أولاهها إياه الأمراء في مصر ورجل الساعة بالفعل بعد اجتماعهم على عزل الملك المنصور علي ابن المعز أيبك وتصنيبه على دولة المماليك²، ولكي تتوحد الصفوف أمام الازمة اتخذ سيف الدين قطز الخطوات التالية:

الخطوة الأولى:

جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر وتناقشوا في أمر القيادة التي تتصدى للمغول وأجمع الحاضرون على أن

¹ جهاد المماليك ص 106، 105.

² المصدر نفسه ص 207.

الملك المنصور علي بن المعز أبيك الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية لم يكن لديه من الطاقة والقدرة ما يستطيع به مواجهة الاخطار والتحديات التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر، لذا قرروا عزل السلطان الصغير¹، وقال للحاضرين: إني ما قصدت (أي من السيطرة على الحكم) إلا نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك. فإذا خرجنا وكسرونا هذا العدو، فالامر لكم، اقيموا في السلطة من شئتم². فاستطاع قطز أن يجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة وفوق ذلك أعلن بوضوح أنه سيجعل الأمر في الناس، يختارون من يشاءون دون التقيد بعائلة معينة أو ممالك بذاتهم³، وسيرة الرجل تدل على أنه صادق فيما قال وأن الانتصار لهذا الدين ورغبته في قتال التتار أعلى بكثير من رغبته في الملك وقد جعل الله نصر الأمة على يديه، وليس من سنة الله - عز وجل - أن يكتب نصر الأمة على يد المنافقين، والفاستدين قال تعالى: "لئن الله لا يصلح عمل المفسدين" ((يونس: آية: 81))، ومع أن قطز - رحمه الله - قد استخدم الاخلاق الرفيعة، والاهداف النبيلة في تجميع القادة والعلماء حوله، إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الادارة وعن أخذه بأسباب النصر واختيار الفريق المساعد له وابعاد من يراه منسباً لعزل الوزير ((ابن بنت الاعز)) المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر، وولى بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته وهو ((زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع)) وحفظ الامانة ووسد الأمور إلى أهلها، وأقر قائد الجيش في مكانه وهو ((فارس الدين أقطاي الصغير الصالح)) مع أنه من المماليك البحرية الصالحية، إلا أنه وجد فيه كفاءة عسكرية وقدرة قيادية وأمانة وصدق وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة،

¹ المصدر نفسه ص 105.

² قصة التتار ص 245.

³ المصدر نفسه ص 246.

وهذا نكاه سيامي من قطر فهو بذلك يستميل المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام وتركيا، وييث الأطمئنان في نفوسهم، وهذا - ولا شك - سيؤدي إلى إستقرار الأوضاع في مصر، كما أنه سيجعل للمسلمين تمتعيد من الخبرات العسكرية النادرة للمماليك البحرية، كما قام قطر بالقبض على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يخرجوا على سيطرته وحكمه، وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر، وعلم قطر أن الناس إن لم يشغلوا بالجهاد شغلوا بأنفسهم، ولذلك فبمجرد أن إعتلى على عرش مصر أمر وزيره زين الدين، وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاي الصغير أن يجها الجيش، وبعداً لعدة وينظما الصفوف، فانتشغل الناس بالإعداد لمواجهة العدو، لقد ساهمت هذه الخطوة في تقوية الوضع الداخلي، وإبتغى الناس بالجهاد، وقام السلطان بإقامة تشريع والشفاع عن البلاد، وإلقيام بشؤون الرعية وحماية مصالح الناس، فاستقرت الأحوال المحلية، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة في تحقيق النصر¹.

الخطوة الثانية: العفو الحقيقي:

أصدر سلطان قطر قراراً بالعفو العام (الحقيقي) عن كل المماليك البحرية، لقد سر بنا كيف أنه قد حدث فتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، وكانت بدايات الفتنة من ست سنوات (652هـ)، عندما قتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ثم بدأت الفتنة تتفاقم تدريجياً إلى أن وصلت إلى الذروة بعد مقتل الملك المعز عز الدين أبيك، ثم شجرة الدر، ووصل الأمر إلى أن معظم المماليك البحرية - وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس - فروا من مصر إلى مختلف إمارات الشام، ومنهم من شجع أمرا الشام على غزو مصر، ووصل الأمر إلى حدٍ خطير، فلما إعتلى قطر عرش مصر أصدر قراره الحكيم بالعفو عن المماليك البحرية وبدعوهم إلى

¹ جهاد المماليك ص 248.

العودة إلى دولتهم¹، وإستطاع قُطر أن يقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية والانضواء تحت لوائه متناسين ما بينهم من الخلافات، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول²، وكان سيف الدين قُطر قد أدرك أهمية كسب ركن الدين بيبرس نصف المقاومة لأمر منها:

أ — الكفاءة القتالية العالية جداً، والمهارة القيادية رفيعة المستوى لركن الدين بيبرس، والحمية الإسلامية لهذا القائد الفذ.

ب — الذكاء الحاد الذي يتميز به بيبرس، والذي سيجاول قُطر أن يوظفه لصالح معركة التتار بدلاً من أن يوظف في معارك داخلية ضد المماليك المعزية.

ج — ولاء المماليك البحرية لركن الدين بيبرس، وأنه إن ظل هارباً فلا يأمن أحد أن ينقلب عليه المماليك البحرية في أي وقت، لذلك فمن الأحكم سياسياً أن يستقطب بيبرس في صفه، ويعظم قدره ويستغل قدراته وإمكاناته، وبذلك يضمن إستقرار النفوس وتجميع الطاقات لحرب التتار بدلاً من التحول في معارك جانبية لا معنى لها.

لذلك لما فُتم بيبرس إلى مصر بعد إستخدام قُطر له، عظم قُطر من شأنه جداً وأُنزله دار الوزارة وعرف له قدره وقيمه وأقطعه (قُليوب) وما حولها من القرى، وعامله كأمرير من الأمراء المقدمين وجعله على مقدمة جيوشه فيما بعد، فنلاحظ من صفات قُطر القيادية، العفو عند المقدرة وإنزال الناس منازلهم، والفقہ السياسي الحكيم، والحرص على الوحدة، وقد إستطاع سيف الدين قُطر أن يستفيد من طاقات المماليك البحرية وإمكاناتهم وتقوية

¹ قصة التتار ص 249.

² جهاد المماليك ص 106.

الجيش بهم¹. وفتح أبواب مصر أمام فلول المماليك الإسلامية في الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي، فدخل جموع الخوارزمية انغارة من وجه المغول لمصر، ورحب بهم سيف الدين قطز، وكذلك جموع الشام، وسعه الملك المنصور صاحب حماة² وغيرهم.

الخطوة الثالثة:

حرص على التواصل مع الدولة الأيوبية، فقد كانت العلاقة بين المماليك والأيوبية متوترة إلى حد كبير، بل أن الناصر يوسف الأيوبي أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر، إلا أن سيف الدين قطز سعى لإذابة الخلافات بينه وبين أمراء الشام، وكان يسعى إلى الوحدة مع الشام أو على الأقل تحييد أمراء الشام، ليخلو بينهم وبين التتار دون أن يطعنوه في ظهره، فتواصل سيف الدين قطز مع الملك الناصر الأيوبي وعرض عليه أن يكون تابعا للناصر ثم أن قطز - رحمه الله - علم أن الناصر يوسف قد يتشكك في أمر الوحدة الكاملة أو في أمر القدوم إلى مصر، فعرض عليه بإمداده بالمساعدة لحرب التتار، فتحققت المصلحة المشتركة في هزيمة التتار وإن لم تتحقق الوحدة الكاملة بين مصر والشام: قال قطز في أدب جم وخلق رفيع: وإن إخترتني خدمتك وإن إخترت قدمك ومن معي من اعسكر نجدة لك على انقادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره³. لكن الناصر يوسف لم يستجب لهذه النداءات النبيلة من قطز، وأثر التفرق على الوحدة، فماذا كانت النتيجة؟ سقوط حلب ودمشق، ووقوع الملك الناصر في الأسر ثم قتله بعد عين جالوت، ولم يكتف قطز بهذه الجهود الدبلوماسية مع الناصر بل

¹ قصة التتار ص 253.

² جهاد المماليك ص 106.

³ قصة التتار ص 255.

راسل بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماه والتحق بعض جيشه بقطز، وأما المغيث عمر صاحب انكرك بالأردن فقد أثر أن يقف على الحياد، وقد حاول مرتين قبل ذلك أن يحتل مصر، وصدده قطز في المرتين، وأما الأشرف الأيوبي صاحب حمص فقد رفض الاستجابة تماماً لقطز، وفضل التعاون المباشر مع التتار، وبالفعل أعطاه هولاكو إمارة الشام كلها ليحكم باسم التتار، وأما الأخير وهو الملك السعيد ((حسن بن عبد العزيز)) صاحب بتياس فقد رفض التعاون مع قطز هو الآخر رفضاً قاطعاً، بل إنضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين، وهكذا استطاع قطز أن يكسب أسير حماه المنصور وانضم إليه جيش للناصر، وحيداً إلى حد كبير المغيث عمر صاحب الكرك، وبذلك يكون قد إنضم الكثير من الجنود الشاميين مع سيف الدين قطز¹.

الخطوة الرابعة:

أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح محاذياً لهم، لتخوفه من إنضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تطلب من الصليبيين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وشرا ما تحتاجه من المؤن، والواقع أن الصليبيين لم يخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول بعن أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونهبها، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألقواها، بل ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر استعدادهم ليدل المساعدة العسكرية لسلطان قطز إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا

¹ قصة التتار ص 258.

عليه¹، واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم، وجعلته في مأمن من تلك الجانب، وتجنب خطر إشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة².

الخطوة الخامسة: تحكيم الشريعة في أموال الحرب:

كانت النفقات للإعداد كبيرة، من تجهيز الجيش، وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي لتسبب في حال الحصار، وكانت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد طاحنة، وليس هناك وقت لمخطة خمسية أو عشرية، والتتار على الأبواب وقد وصلوا غزة والدولة تحتاج للأموال، فجمع سيف الدين قطز مجلسه الاستشاري ودعا إليه إلى جانب الأمراء والقادة والعلماء والفقهاء وعنى رأسهم سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام، وبدأوا يبحثون عن حل لتجهيز كئائب المسلمين، واقترح سيف الدين قطز، أن تفرض ضرائب لدعم الجيش³. إلا أن الشيخ العز بن عبد السلام تحفظ على هذا المقترح ولم يوافق عليه إلا بشرطين وأصدر هذه الفتوى: إذا طرق العدو البلاد وجب على للعالم كنه قتالهم (أي العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي فوق الزكاة)، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب، وأن تبيعوا مالكم من ممتلكات والآلات (أي يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه وتساولوا في ذلك أنتم والعامّة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما

¹ الملوك (1 - 430)، جهاد المالكيك ص108.

² جهاد المالكيك ص109.

³ قصة التتار ص281.

في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات فلأ¹. فقد بين الشيخ العز بن عبد السلام، بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جزر هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي بتجهيز الجيش نيس أكثر من ذلك². لقد قيل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام ببساطة وبدء بنفسه وبإع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كلفة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ونما جمعت هذه الأموال وضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، ولم تكف هذه الأموال نفقة الجيش، فقرر قطز على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس ولتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأخذ من الترك لأهلية ثلث المال، وأخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد، وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار³. فجمع بذلك الأسلوب الفردي للمال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه⁴. وكان هذا العمل الجليل من أسباب النصر في عين جالوت قال تعالى 'إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم' (محمد، آية : 7) ونصر الله لا يكون إلا بتطبيق شرعه، والجيش المسلم الذي يتعد عن شرع الله يكون بعيداً عن نصر الله عز وجل، إن ما قام به سيف الدين قطز في الاستمتاع لرأي الشيخ العز بن عبد السلام ثم تنفيذ ترويب عليه شحنة معنوية قوية شحذت هم الناس للجهاد

¹ بدائع الزهور (1 - 302)، جهاد العماليك ص 110.

² قصة التتار ص 283.

³ بدائع الزهور (1 - 305)، جهاد العماليك ص 110.

⁴ الأيوبيون بعد صلاح الدين ص 439 للصلاحي.

وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، إذ يمكن القول أن تلك الفتوى التي أصدرها العز بن عبد السلام، في ذلك الوقت الذي كان الشرق الإسلامي بلا خلافة شرعية، أدت الدور نفسه الذي كانت الخلافة مستوديه فيما لو كانت قائمة، إذ كانت فتواه تلك بمثابة سلطة روحية ساعدت المظفر في الحصول على استجابة عامة المسلمين بدفع ما قرر عليهم من أموال، مستشعرين بأن ذلك وأجب يفرضه عليهم دينهم الحنيف¹، وكان الشيخ العز بن عبد السلام وعلماء مصر يحثون الناس في سبيل الله تعالى، ووعظ الأُمراء والحكام وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى بذل الجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدة وجمعوا السلاح، وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان واهتزت أبلدة بالهتاف والتكبير، وصار كل مسلم يشتهي الوصول إلى المعركة، وهذا درس مهم في أهمية التكامل بين أُمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار².

ثالثاً: رسالة هولوكو إلى سيف الدين قطز:

أرسل هولوكو رسالة إلى سلطان مصر كلها تهديد ووعيد قال فيها: من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم، باسمك الله باسط الأرض ورفع السماء يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتعممون بانعامه، ويقفون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وبتر أُمراء دولته وأهل مملكته بالنديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، وأسلموا إلينا امركم، قبل أن ينكف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرفق لمن شكى قد

¹ جهاد المماليك ص 110.

² للمستمعون من التبيحة والفتنة إلى القيادة والتمكين الدكتور عبد الحليم عويس ص 122.

سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم التعبد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطنب، فأبي أرض تأويكم وأي طريق تتجركم، وأي بلاد تحميكم، فما من سيفنا خلاص، ولا من مهابتنا خلاص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقتلونا كالجبال، وعدنا كالمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر نقتلنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عن الكلام، وخنتم العهود والإيمان وقشا فيكم العقوق والعصيان فأبشروا بالمدنة والهوان "قاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير حق وبما كنتم تفسقون" وسيعلم الذين ظنوا أي منقلب ينقلبون" فمن طلب حريتنا ندم ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم نشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مائنا وعليكم ما علينا، وإن خلفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أندر وقد ثبت عندكم ان نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدره والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير المدنة ما نملوكم عنينا من سبيل، فلا تطيرو الخطاب، واسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجنون مناجاها ولا عزاً ولا كافيأ ولا حرازأ، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصح بلادكم منا خالية، فقد انصفناكم إذ راسلناكم، وايقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم والسلام عنينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هلاون¹ قد أتى

بحد سيف تضى وبواتر

يصير أعز القوم منا أننة

ويلحق أطفالاً لهم بالأكبر 1

¹ السوك للمعريزي (514+515/1) صيغة لاسم هولاء.

1 . مجلس سُورَى خَرَبِي:

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لأخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي وضعها كدح القرون الطوال، كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستلام للتحدي والإذعان لضروراته.. ولكنه الإيمان له منطلق آخر، أنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام، فحسب، لكنه بصيرة تخترق حجب العمى والظلام، لكي تطل على الأفق يثبغ ضياءه، وبالحركة القديرة، والروية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته، فتخرج منها ظافرة، وتحقق بالاستجابة فقرة نوعية في مجرى الفعل والتحقيق¹، قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى الأمراء ليعرض الأمر عليهم وجرى هذا الحوار:

قطز: ماذا ترتون؟

ناصر الدين قميري: إن هولاءك فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان، فإن شهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان وإن البلاد للمعتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمن فأيس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت، أمران بعيدان عن حكم العقل، أنه ليس الإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن إحتراز الرذوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة تخليفة وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل.

قطز: والحالة هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممثلة بالمناحات الفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خراباً يباباً، وقضى

¹ المصدر نفسه(515/1)، أبطال ومواقف ص 441.

² دراسات تاريخية عمدة الدين خليل ص 84.

على جميع ما فيها من حرث ونسل، فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً كبيراً من البلاد، ويذبحي أن تختار مع هذه الجماعة التي تريد بلانداً واحداً من الثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مفرأ إلا المغرب، وبيننا وبينهم مباحات بعيدة¹.

قميري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم، إذ أنه لا يوثق بعودهم².
عند من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مناومتهم، فمر بما يقضيه رأيك.

قطز: إن انزاعي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فنكون ملومين أمام الخنق.
الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل، ونقصد كتبنا — قائد المغول — متضامنين، فإذا إنتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في تلك للحالتين معذورين.

أيد الأمراء المجتمعون كافة هذا الرأي، وكان على قطز أن يتخذ قراره وقد إتخذة فعلاً³.

2. التغيير العام:

وفي هذه الأثناء أراد للمظفر أن يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول، فأصدر أولمره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطالب الولاة بإزعاج الأجنذ للخروج للسفر، ومن وجد

¹ سيف الدين قطز قاهر المغول، نور الدين خليل ص 112.

² المصدر نفسه ص 114.

³ دراسات تاريخية ص 85.

منهم من إختفى بضرب بالمقارع، وسار بنفسه حتى نزل انصالحية، حيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية، ومن انضم إليهم من عساكر تشام والعرب والتركمان وغيرهم، وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة 658هـ/ يوليو 1250م¹، وفي هذه المنطقة طلب قنظ الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم في المسير لقتال المغول، وهنا يبدو أن بعض هؤلاء الأمراء عزودهم بالخوف من مواجهة المغول وامتنعوا عن الخروج، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قنظ فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن إختار الجهاد يصحبنى ومن لم يخطر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطع عنيه وخطيئة حريم المسلمين هي رقاب المتأخرين²، وأمام هذا التصميم الذي أبداه قنظ لمواجهة المغول، والذي أعقبه تحنيط سن وافقه من الأمراء على المسير، ومن ثم إصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو مهما كانت الظروف حيث عبر عن ذلك بقوله: "أنا ألتقي القنظ بنفسى" لم يمع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة، ولتقضى تجمع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ المسلمين من ويلات الغزو المغولي المدمر³.

3 - قتل سفراء هولانكو:

وكان أول إجراء قام به المظفر قنظ ضد المغول هو إستدعاء رسل هولانكو واستقبالهم استقبالاً جفاً إيذاناً لإعلان الحرب عليهم، ومن ثم القبض عليهم وضرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة وتعنيق رؤوسهم على باب زويلة وأبقى على صبي من الرسل وجعله من مسائلكه، وكانت

¹ السلوك نقلًا عن جهاد المماليك ص 120.

² المصدر نفسه ص 120.

³ المصدر نفسه ص 120.

تلك انزوس أول ما علق على باب زويلة من المغول¹. ويبدو أن قُطر اعتبر الرسل محاربين وأنهم ليس لهم الحصانة الكافية لمنع قتلهم، حيث أن المغول قتلوا النساء والأطفال والشيوخ غير المقاتلين، وبأعداد لا تحصى في سمرقند وبخارى وبغداد وحب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين، كما أن رسل التتار أغلظوا القرون وأسبوا الأدب وتكبروا عليه وكان لهدف من تعليق رؤوس المغول على أبواب القاهرة الرئيسية رفع معنويات الناس وإعلان الحرب على التتار وإعلامهم بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل، وهذا يؤثر سلباً على التتار فيلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب أو التردد، ويقتى الهدف الأكبر نقتل الرسل هو قطع التفكير في أي حل سلمي للقضية والاستعداد الكامل الجاد للجهاد، فبعد قتل رسل المغول لن يقبل التتار باستسلام مصر حتى لو قبل بذلك المسلمون، كان هذا هو إجتهد قطر والأمراء في قتل رسل المغول، ولكن هذا يخالف الأصل في الإسلام، حيث أن الرسل لا تقتل، لا رسل المسلمين، ولا رسل الكفار، ولا حتى رسل المرتدين عن الإسلام²، فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، يقول عبد الله بن مسعود: جاء ابن النواحة وابن أشال رسولاً مسيئمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهما: "أتمهدان أنى رسول الله؟" قالوا: نشهد أن مسيئمة رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما³، يعلق عبد الله بن مسعود على هذا الحديث فيقول: مضت السنة أن الرسل لا تقتل⁴. وهذا الحديث يدل على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار، وإن تكلموا بكلمة

¹ تاريخ الدولة المغولية في إيران ص 144، جهاد المماليك ص 120.

² قصة التتار ص 278.

³ مسند أحمد، وسنن أبي داود، فعلاً عن قصة التتار ص 279.

⁴ قصة التتار ص 279.

الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين¹. وما حدث من سيف الدين قطز،
مخالف لأحكام الشريعة والكمال لله وحده.

رابعاً: اليوم الفصل:

1 - مقدمات الصدام:

لم يعد أمام تمظهر قطز بعد إتمام تلك الاستعدادات سوى إختيار
مكان وزمان المعركة التي كان ينوي مزاولة المغول فيها، وهذا تبدو لنا
إستراتيجية جديدة إتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة، ذلك أنه إذا كان
حكام المسلمين إبتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين قد التزموا
مبدأ التحصن داخل مدنهم إنتظار لهجوم المغول عليهم ومحاولة صدّه فقط
فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ورأى أن عن الأفضل
سذلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزول
مكناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين الذي يمتاز
بقربه من المناطق الساحلية الذي كان يسيطر عليها الصليبيون، الذين أبدوا
إستعدادهم لكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه، هذا بالإضافة إلى
كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل²، الأمر الذي
سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف، ففي حالة الإشتباك
المباشر مع العدو في معارك مكشوفة، يكون القتال في منطقة منبسطة، وفي
حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعداً للرماة لأداء واجبهم عن الوجه
الأكمل، كما أن إختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول، يعطي في
حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية النهارية منهم إلى مصر والتي
انضمت إلى جيش أمماليك، للاستقبال والتفاني في الجهاد وطمعاً في العودة
مرة أخرى إلى بلادها، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في ركاب هذه

¹ نيل الأوطار للشوكاتي نقلاً عن قصة التنار صـ279.

² الروض الزاهر لابن عبد الظاهر صـ64، جهاد المملوك صـ116.

الجيش، كان الملك المظفر قطز قد وعدهم بإعادتهم إلى إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام، كما إختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر أغسطس الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة لتأثير على تلك الجموع المغولية القادمة من صحاري منغوليا الباردة¹، لتقليل من نشاطهم القتالي لكنهم لم يعاندوا على المناخ الحار الذي عادة ما يسود مناطق فلسطين في ذلك الوقت².

2 - تحرك جيوش المسلمين:

طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام³، وقال لهم: يا مسلمين قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام وقد زهتوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق ائنية تجارتكم رابحة وأنا واحد منكم وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينجم ولا يفوته فائت ولا يهرب منه هارب، فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تتكشف هذه الغمة، فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة⁴.

3 - معركة غزة:

تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان 658هـ / يونيو

¹ تاريخ الدولة المغولية في إيران ص 12، جهاد المماليك ص 116.

² جهاد المماليك ص 116.

³ للمصدر نفسه ص 121.

⁴ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص 263.

1260م واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية في غزة وكانت هزيمة قاسية لهم، واكتشف المغول أن هناك من المسلمين من يتحرك من خلال خطط عسكرية، وأبعاد استراتيجية، وأنه لا زال من المسلمين من يحمل السيوف للدفاع عن دينه وأرضه وشرفه وكرامته، وكانت هذه المعركة من أهم المعارك بالنسبة للمسلمين، فقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرون، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة انني كانت تقول: من قال لك أن التتار يهزمون فلا تصدقه، وكان لهذه الموقعة أثر إيجابي على جيش المسلمين وكان لها أثر سلبي هائل على جيش التتار¹. واصبحت غزة ملكاً للمسلمين وبهذا تعتبر معركة غزة هذه أولى المعارك التي انتصر فيها المسلمون على المغول كما يمكن القول أن هذا الانتصار الذي تحقق للمسلمين كان دافعاً قوياً لهم للتقدم إلى الشمال باتجاه عين جالوت لقاء المغول في موقع أفضل خاصة وأن تلك الهزيمة التي مني بها جيش الأمير المغولي بأيدر لم تقابل بأي اهتمام من القائد المغولي كيتوبوقا الذي بقي على جسده إلى أن وصلت الجيوش الإسلامية عين جالوت وكان هذا الانتصار من الأسباب التي جعلت الصليبيين يحرصون على خطب رد المسلمين بتقديم العون والمساعدة لهم والسماح لجيوش المماليك بعبور أراضيهم إلى داخل فلسطين²، ولما رحل سيف الدين قطز من غزة سلك طريق الساحل فاجتاز مدينة عكا وهي يومئذ بيد الفرنج، فلما عاينوه، وأرسلوا له الهدايا والتحف والضيافات، وأنتداه ملوكها فأعرضوا عليه أن يأخذ معه تجدة فلاظفهم السلطان وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عنيه، وما له حاجة بنصرتهم وقال لهم: والله العظيم مني تبعيم منهم فارس أو رجل — يريد أذى عسكر المسلمين — قتلنكم قبل ملتقاي

¹ قصة التتار ص 301.

² جهاد المماليك ص 121.

التتار وقد عرفتمكم ذلك، عند ذلك كتب الملوك إلى اتباعهم بما سمعوه¹، ورفض السلطان قطز تلك المساعدة التي عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصاً كل الحرص على صنيغ حروبه ضد المغول والصليبيين معاً بصيغة إسلامية خائصة، كما أن هذا يشير إلى رغبة قطز ومثروعه الجهادي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم اتوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منة عند مهاجمتهم².

4 - معلومات استخبارية مهمة:

قاد السلطان قطز جيشه واقترب من عين جالوت، وبينما هو في الطريق جاء رجل من أهل الشام وقدم معلومات استخباراتية لسيف الدين قطز، مرسل من قبل صغارم الدين أيبك وهو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاء عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخيمة في صفوف جيش التتار، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، ولا ندري إن كان قد قبل التعاون مع التتار لرغبة في نفسه، أم قبل ذلك مضطراً وهو يعد العدة لينفع المسلمين فهذا بينه وبين الله عز وجل، ولكن في موقعة عين جالوت قرر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز - المعلومات التالية:

أ - جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاء معه عدداً من القادة والجنود، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

ب - ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً ميسرته التي ستقاتل ميمنة التتار.

¹ نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ص 263.

² جهاد الماليك ص 122.

ج - أن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش انتار بفرقة، ومع صارم الدين أليك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين.. أي أن الرسالة تقول أن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه وأثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم¹. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، واستعدوا من هذه الأمور دون تخطيط في الإعداد أو تهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان 658هـ وقضى المسلمون الليل في الغيام والابتهال والنداء والرجاء².

5. الاشتباك مع المغول:

كان سيف الدين قطز قد بعث للأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة من الكشافة لاستطلاع أخبار العدو وتحديد مكانه، واشتبك بيبرس مع طلائع الجيش المغولي واستمر يناوشهم إلى أن وافاه السلطان قطز بالجيش الرئيسي عند عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان سنة 658هـ / سبتمبر 1260م حيث التقى الجمعان وذلك بعد طلوع الشمس وقد استلأ الوادي بالناس وكثر صياح أهل القرى من الغلاحيين وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ايذاناً ببدء الهجوم³. كان الجيش المغولي بقيادة كتبغا، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو، ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض لعدو إلا المقدمة التي قاندها بيبرس. ولما نبث كتبغا أن وقع في انفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تفهيره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجاء

¹ قصة التتار ص 313.

² انصدر نفسه ص 313.

³ جهاد العماليك ص 122.

وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت¹ وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفر بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، ثم اقتحم القتال وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم كرة بعد كرة²، وألقى خودته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته ((وأسلاماه)) وحن بنفسه ويمن معه حمئة صادقة فأيده الله بنصره، ولم تنقضي سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية، وجر العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار، وانتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فبزمهم الله وقتل أكابره وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزلاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: ((وأسلاماه)) ثلاث مرات: يا الله انصر عبدك فطرز على التتار)) فلما انكسر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان على فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب: فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغانم³، واستمر ركن الدين ببيرس في مطاردة فلوك المغول حتى أقامه فوجدهم قد تجمعوا بها ووحوا صفوفهم لثمرة الثالثة استعداداً لمواجهتهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وغنم منهم اسواً طافلة وخبولاً كثيرة⁴.

6 - شجاعة القائد المغولي:

وزعم الوزير القاسية التي مني بها المغول في هذه المعركة فإن

¹ دراسات تاريخية ص 87.

² جهاد المماليك ص 123.

³ دراسات تاريخية ص 88.

⁴ جهاد المماليك ص 124.

أحد المؤرخين المسلمين وهو رشيد الدين فضل الله الهمذاني، لم يذكر ما كان للقائد المغولي كيتوبوقا من صفات بطولية في هذه المعركة، فعندما اقترح عليه أحد عوانه الإنسحاب أجاب: علينا أن نموت هنا، هذه هي النهاية ويعيش الخان ويسعدنا، وفي رواية: لا مفر من الموت هنا، فالموت مع العزة والشرف خير من الهروب مع الذل والهوان، وميصل رجل واحد، صغيراً أو كبيراً من أفراد هذا الجيش إلى حضرة السلك ويعرض عليه كلامي قائلاً: إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كثر الخجل فضحي بحياته انخالية في سبيل واجبه، وينبغي ألا يشق على الخاطر المبرك نبأ فناء جيش المغول، ويتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عاماً واحداً، وأن جياد قطعانه لم تعد المهجور، فليتم أقبال الملك، ما زالت نفسه الشريفة آمنة سالمة، فإنها تكون عوضاً لكل مفقود، إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والاتباع أمر سهل يسير¹، كما يذكر رشيد الدين نفسه رأياً مخالفاً في كيفية قتل القائد المغولي كيتوبوقا، حيث يشير إلى أنه وقع في بداية الأمر في الأسر، ثم أحضره قطز إلى مجلسه مكبلاً ودار بينهما حواراً بداه قطز مخاطباً كيتوبوقا بقوله: أيها الرجل الناكث العهد ما أنت بعد أن سفكت كثيراً من الدماء البرينة وقضيت على الأبطال والعظماء بلوعود الكاذبة، وهدمت البيوتات العريقة بالاقوال الزائفة المزورة قد وقعت أخيراً في الشرك، وعندما سمع كيتوبوقا كلامه انتفض وهو مكبل اليدين كأنه الفيل الهائج، فأجاب قائلاً: أيها الفخور المغتر، لا تتباه كثيراً بيوم النصر هذا، فأنا إذا قُلت على يدك فإني أعلم أن ذلك من الله لا منك، فلا تُدع بهذه المصادفة العاجلة، ولا بهذا الغرور العابر، فإنه حين يبلغ حضرة هولاكو نبأ وفاتي سوف يغلي بحر غضبه وستطأ سنايك خيل المغول البلاد من أنريجان حتى

¹ سيف الدين قطز قاهر المغول ص 138.

² جامع التواريخ (2 - 314)، جهد السالك ص 124.

ديار مصر، وستحمل رمال مصر في مخالي خيولهم إلى هناك، إن هولاءكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا، فأقرض أنه نقص واحد منهم، فقال له قطز: لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنهم يزاولون أعمالهم بالمكر والخذاع لا بالرجولة والشهامة¹. فرد عليه كيتوبوقا: إني كنت عبداً للملك ما حبيت ونست مثلك مكرراً وغادراً... بادر بالقضاء علي بأسرع ما يمكن حتى لا أسمع تائبك. فأمر قطز بقتله ففصلوا رأسه عن جسده، ولما بلغ هولاءكو خان نبأ نعي كيتوبوقا، وعلم بحديثه في ذلك الموقف أسف أسفاً شديداً على وفاته، واشتعلت نيران غضبه وقال: أين أجد خادماً آخر مثله يبدي مثل هذه النوايا الطيبة، ومثل هذه العبودية ساعة هلاكه². وبالرغم مما يعرف به رشيد الدين من محاباة للمغول، فإنه لا يمكن أن ننكر ما كان عليه كيتوبوقا من مكانة عند المغول، يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره وكان بطلاً شجاعاً مقداماً، وخبيراً بالحروب وافتتاح الحصون، وكان هولاءكو يثق به ولا يخالفه فيما يشير به، وبموته استراح الإسلام منه، حيث كان شر عصابة على الإسلام وأهله³. وعلق نور الدين خليل على شجاعة القائد المغربي والتقصص المنسوبة إليه فقال: وننظر إلى تلك الروايات يبلغ الريبة، بل والإنكار، فكيف حصل الهمذاني على رسالة شفوية حملها مجهول بلغة مغولية، بطبيعة الحال، هذا إن كانت هناك رسالة أصلاً وكذلك الحال فيما يتعلق بالروايات الأخرى، لا شك أن تلك الروايات محض اختلاف وتصور خيال، حتى وإن ردها المؤرخون الواحد تلو الآخر، سواء مؤرخو العرب أو الغرب⁴.

¹ جامع التواريخ (2 - 315 - 316)، جهك المماتيك ص 125.

² المصدر نفسه (2 - 315 - 316)، المصدر نفسه ص 125.

³ التجرم الزاهرة (7 - 91)، المغول للحريني ص 361.

⁴ سيف الدين قطز قاهر المغول ص 141.

7 . تحرير دمشق وبلاد الشام:

ثم تنته مهمة الملك المنصور بعد ما زال هناك تثار في دمشق، وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلو متراً تقريباً من عين جالوت إلى شمال شرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر الكبير. وكان مما جاء في هذه الرسالة: أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطمع بنصيحته، فهو أن التتار خذلهم الله، استظالموا على الأيام وخاضعوا بلاد الشام واستجدوا بقبائلهم على الإسلام وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها ما تترنزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة ولا عفت برجعة ناقوس إلا وحلها الأذان ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن ولم تزل أخبار المسلمين تنقل إلى انكفار، وأخبار انكفار تنقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الاصيل، وصار اليوم كأس ونسخت آية الليل بسورة الشمس إلى أن تراءت العين بالعين واضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضوا ويترك في بطن كل من المشركين شلوا، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم ((وما ربك بظلام للعبيد))¹. وصل الخبر لأهالي دمشق قال ابن كثير: وتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصنوا خلفهم إلى حلب وهرب من بدمشق منهم وكان هربهم منها يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت فتبعهم المسمومون من دمشق يقتلون ويأسرون وينهبون الأموال فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم قهراً والله الحمد والمنن على جبره الإسلام

¹ قصة التتار ص 338 صبح الأعشى (7 - 260 - 262).

ومعاملته إياهم بنطفه الحصن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاوبتها ابنسائر من القلعة المصورة وفرح المؤمنون يومئذ بتصر الله قرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكُتبت أعداء الله النصرى واليهود والمنافقون وظهر دين الله وهم كارهون ونصر الله دينه ونبيه ولو كره الكافرون، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصرى التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها، وأحرقوها وألقوا انذار فيما حولها، فأحترقت دور كثيرة للنصرى، وملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهمت طائفة بنهب اليهود، فقيل لهم: إنهم لم يكن منهم فيما ظهر من الطغيان، كما كان من عبدة الصليبان، وقتلت العامة في وسط الجامع شيخاً رافضياً، كان مصانعاً للتجارة على أموال الناس يقال له الفخر محمد بن يوسف الكنجي، كان خبيث الطوية مماثلًا لهم على أموال المسلمين وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممالئين على المسلمين "قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" ((الأنعام: آية: 45))¹.

8 - وصول سيف الدين قطز إلى دمشق:

في اليوم الثلاثين من رمضان سنة 658هـ وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والأطفال، يستقبلون البطل المظفر وهذه هي الفرحة الحقيقية قال تعالى: قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فنيفرحوا هو خير مما يجمعون ((يونس: آية: 58))، فرحة النصر لدين الله والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين لا تقارن هذه الفرحة بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان، ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، لم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد واستقر الوضع بسرعة وحفظ الأعراس والنفوس والأموال لكل

¹ البداية والنهاية (17 - 402).

الساكين من نصارى ويهود وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه انتار وكان موليا لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى حتى لا يظلم نصرائي في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله انتصارى بالمسلمين أثناء احتلال انتار للمدينة، وفي اليوم التالي لدخول قطز إلى دمشق كان عيد الفطر وهوله طعمه الخاص ومكانته المتميزة، لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين فإن تعالى 'وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم' ((التوبة: آية: 40)).

لم يضع قطز وقتاً بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من انتار وتطهر مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية¹، وضرد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وفر المغول بحياتهم وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا لاسرى وعرجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هؤلاء كسرة عسكريه وقتل نائبه كتيبة عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه².

واستصاع المسلمون تطهير بلاد الشام بكاملها في بضعة أسابيع وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، بعد عشر سنوات من الفرقة وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب - رحمه الله - في سنة 648هـ وخطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم³.

¹ قصة التتار ص 340.

² السلوك (1 - 518).

³ قصة التتار ص 341.

9 - ترتيب أمور الولايات الشامية:

شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر، فأقطع الأمراء الصالحية وانمعزية وأصحابه إقطاعات الشام وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين منجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتار الأركشي الكردي¹، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر للمملوكي وبعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاء قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمنه على عرشه كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين نؤلؤ صاحب سنجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له، كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية لتسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماه وبارين وأعاد له المعرفة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة 635هـ ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب وعين الأمير شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت، وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر².

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاه المغول، وفي اليوم السادس

¹ السلوك (1 - 518).

² السلوك (1 - 518)، مملكة حماة الأيوبية عدنان سعد الدين ص 100.

والعشرين من شوال 658هـ توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الطافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تترزين لاستقبال القائد المنتصر¹ كان أجل سيف الدين قطز قد حان واقترب الرحيل من هذه الحيدة وسببتي الحديث عن ذلك مفصلاً بإذن الله تعالى.

10 • موقف هولوكو من الهزيمة:

رغم أن هذه الهزيمة لم تلحق بشخص هولوكو نفسه فإن تلك الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه وقتل فيها قائده العظيم كيتويوقا، تعد صدمة عنيفة هزت كيانه وهو بعيد عن مسرح الحوادث، فتأثر لذلك وحاول أن يسحو ذلك العار الذي لحق بجيوشه بإرسال حملة جديدة إلى الشام، في محاولة يائسة للانتقام من المسلمين، غير أن الظروف في ذلك الوقت لم تمكنه من ذلك²، إذ لم يستطع التفتت غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت لانشغاله في حروبه مع منافسيه من أهل بيته وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، واكتفى هولوكو بأن عمل على مرسله الخان الاعظم في قراقورم أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الاعظم إلا أن اصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولوكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك - على ما يبدو - رفع معنويات هولوكو وجيشه وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولوكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله في سنة 663هـ / 1265م فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام إلى مملكته³.

¹ السلطان المنظر سيف الدين قطز، قاسم عبده ص 141.

² جهاد المماليك ص 131.

³ جهاد المماليك ص 132، جامع التواريخ (2 - 336).

11 - ما قيل من شعر في عين جالوت:

نظم شهاب الدين محمود قصيدة مدح فيها الأمير الظاهر بيبرس
بسبب انتصار المسلمين في عين جالوت فقال:

سر حيث شئت لك المهيمن جار

واحكم فطوح مرانك الأقدار

ثم يبق للدين الذي أظهرته

ياركنه عند الاعادي ثار¹

لما ترافقت الرؤوس وحركت

من مطربات قسيك الأوتار

حملتك أمواج الغرات ومن رأى

بحراً سواك تقله الاتهار

وتقطعت فرقاً ولم يك

طوبها إذ ذاك إلا جيشك الجزائر

رشت دماؤهم الصعيد فم يضر

منهم على الجيش السعيد عبار

شكرت مساعيك المعائل وتورى

والتريب² والأساد والأطيار

هذي منعت وهؤلاء حميتهم

وسقيت تلك وعم ذاك الإسمار³

فأملكن الدهر فيك مدائحاً

تبقى بقيت وتذهب الاعصار⁴

وقال شرف الدين الانصاري من قصيدة يمدح فيها الملك المنصور

الثاني الايوبي صاحب حماه انذي كان مع جنده إلى جانب المظفر قضا في

¹ الادب العربي من الانحدر إلى الازدهار ص 166.

معركة عين جالوت:

رُعت العدى فضمفت مثل عروشها
ولقيتها فأخذت فل جيوشها
نازلت أملاك التتار فنزلت
عن فحلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كوماتها
حصد المناجل في بيبس حشيشها
رويت أكباد القتاة بدمائهم
لما أطال سواك في تعطيها
أقدمت مقتحماً على نساها
تكسو الجياد ريشها من ريشها
دارت رحي الحرب الزبون عليهم
فغدت رؤوسهم حطام جريشها
وطويت عن مصر فسيح مراحل
ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العبياد بلادها
من رومها الاقصى إلى أحيوشها
فرشت حماة لوطء نعتك خذها
فوطئت عين الشمس من مفروشها
وكذا المعرة إذ ملكت قيادها
ذهبت سروراً سار في مدهوشها
لا زلت تتعش بالنوال فقيرها
وتقال أقصى الأجر من منحوشها

¹ الالب العربي من الانحدار إلى الازدهار ص 157.

وقال بعض الشعراء في عين جالوت:

هلك الكفر في الشام جميعاً

واستجد الإسلام بعد دحره

بالمليك المظفر الملك الأروع

سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاء بعزم وحزم

فاعتزنا بسمره وبيضه

أوجب الله شكر ذلك علينا

دائماً مثل واجبات فروضه

خامساً: مقتل سيف الدين قطز:

كان لا تنصاري قطز في عين جالوت أجمل الوقع — على العالم الإسلامي — وخصوصاً مصر فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالفتنة وأقيمت الزينات بالقاهرة وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز²، وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير³، بقي السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه، على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية، بتقليم الشرقية بمصر وهناك أقيم الدهليز السلطاني ((الخيمة السلطانية))، وفي الوقت نفسه بلغت توتر العلاقات بين سيف الدين قطز، وبين ركن الدين بيبرس، وتجدد الخلاف القديم، وأخذ كل واحد منهم حنزه وحيطته، ويات الغريسان يتريص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عرف عنه

¹ الملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي ص 114.

² مصر والشام في عصر الأيوبيين، سعيد عشور ص 186.

³ بلدة القصير:

هي قرية الجعافرة بمحافظة الشرقية.

من جسارة ودهاء ينثر إلى العمل ضد السلطان¹، فاتفق مع الأمير سيف الدين بلبان الرشدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجكنداري المعزي، والأمير سيف الدين بيدشان الركني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني، فلما قرب إلى القصير بين الغرابي والصالحية، انحرف عن اندرث للصيد، فلما قضى وطره²، عاد قاصداً إلى الدهليز، سيره الأمير ركن الدين وأصحابه وطلب منه امرأة من سبي التتار فأنعم له بها فأخذ الظاهر يده ليقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه، فلما زاوه قد قبض على يده، يادره الأمير بدر الدين بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه، فأبانه، ثم اخطفه الأمير بدر الدين أنس وانقاه عن فرسه، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روجه، وقيل إن أول من ضربه الأمير ركن الدين ببيرس وهو انصحيح، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ثم ساروا إلى الدهليز للمثورة بينهم على من يملكوه ويسلموا إليه قيادتهم، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين ببيرس الجكنداري، فتقدم الأمير فارس الدين أقطاي مستعرباً، المعروف بالأتابك³، فبايعه وحلف له ثم بلبان الرشدي ثم الأمراء على طبقاتهم، ونقب بالملك الظاهر، ثم في الساعة الرابعة قال الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك له: لا يتم الملك إلا بدخولك إلى قلعة أنجل، فركب هو والأمير فارس الدين والأمير بدر الدين بيسري ولبان الرشدي وفلاورن الألفي وبيليك الخازندار وجماعة من خواصه، وقصدوا القلعة، فلقى في طريقه الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة عند

¹ في تاريخ الأيوبيين والمعاليك ص 203.

² وطره:

حاجته.

³ نزهة الانام في تاريخ الإسلام ص 267.

الملك المظفر، وكان خارج لقاء استاذة، فأعلموه بصورة الحال وحلّفوه فدخف وتقدم بين يديه إلى القلعة، فلم يزل على بابها ينتظره حتى وصل إليها فدخلها وسلمها، وكانت القاهرة قد تزينت بقدم الملك المظفر، والناس في فرح وسرور بعوده وكسر التتار، فلما أسفر الصبح وطلع النهار وإذا مناد ينادي: معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس¹.

1 - أسباب مقتل قطز:

تتوعدت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التي أدت إلى مقتل سيف الدين قطز، ونحاول أن تناقش هذه الأسباب ونبين الأقوى منها:

أ - يقول ابن أبيك الدواداري:

وحكى لي والدي - عن مخدومه سيف الدين بلبان الدوادار الرومي قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشدانية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام، تمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم، وشتهم، وتوعدهم، فأضمرُوا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الاحقاد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يتربص من صاحبه الفرصة².

ب - أما المؤرخ تقي الدين المغريزي:

فيقول أن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب، فلم يرض، فأضمرها في نفسه، ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً³.

¹ نزهة الانام في تاريخ الإسلام ص 168.

² كنز الدرر (8 - 60)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 204.

³ السواك (1 - 519)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 204، الظاهر بيبرس، بيتر

توراوص - 88.

ج - أما بيبرس الدواداري:

وهو أقربهم إلى الأحداث فيقول: وذئب أنه ((قُضِر)) رحل من دمشق عائد إلى اندياز المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن استلاذه ما فيها لقتلها الفارس أقطاي، واستبادهما بالملك وإجانبهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاموها، والمشقات التي ليسوها، وإنما إنحازوا إليه لما تحذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقد بنيت السراي على ذم الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هي¹

وقد رجح إنكتور قاسم عبده قاسم السبب الذي ذكره المؤرخ بيبرس الدواداري واعتبره السبب الرئيسي لما حدث، فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل فارس الدين أقطاي، ومطاردة المماليك البحرية من خشدشبية، كما أن البحرية عاشوا سنوات منفيين في بلاد الشام، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات، ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن المهم أن نتذكر أن رابطة الخشدشبية التي كانت تجمع السلايكة، كانت رابطة قوية للغاية، ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر نزيمهم أقطاي من ناحية ولزملاتهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز، أو بسببه من ناحية أخرى، فضلاً عما نأههم من الهوان والمذلة في مناهم من ناحية ثالثة².

وقال إنكتور أحمد مختار العبادي: أما أسباب مصرع قطز فلا شك

¹ زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (9 - 73)، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده قاسم ص 205.

² في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 206.

أنها أعمق بكثير من قصة رفضه نيابة حلب لبيبرس، وأن هذا الرفض لم يعد أن يكون سبباً مباشراً لمقتله عند الحدود المصرية، والواقع أن تلك الأسباب قديمة ترجع إلى أيام السلطان أيلك وتثريده معظم المماليك البحرية الصالحية، وقتله زعيمهم قطاي، إذ صار مماليك أيلك وهم المعزية ومنهم قطز، أصحاب النفوذ والسلطان في مصر، واستمر العداء بين المعزية والبحرية قائماً حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعاً إلى الإتحاد بدليل قول العيني أن المماليك البحرية انحازوا إلى قطز المعزي، لما تعذر عليهم المقام بالشام، وللتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا الولاء له¹، فلما انتصر المماليك على المغول في عين جالوت، ولم يبق هناك ضرورة للإتحاد، ظهر العداء القديم بين الطائفتين من جديد، وكان من نتائج ذلك مقتل قطز المعزي على يد بيبرس الصالحي، وهذا هو المعنى الحقيقي لما أورده ابن أبي الفضائل تعقيباً على مقتل قطز حين قال: فلحق الناس خوف عظيم من عودة البحرية إلى ما كانوا عليه من الفساد²، وروى ابن أبيس في هذا التصدد، ولما تم أمر بيبرس في السلطنة، رسم بإحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين في البلاد، كما روى في موضع آخر وكذلك المقرئزي أن المماليك المعزية حاولوا اغتيال بيبرس، عقب عودته إلى القاهرة، فقتل بعضهم، وسجن ونفي البعض الآخر³، وهذه النصوص وأن دلت على شيء، فإنما تدل على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية⁴.

¹ عقدة الجمان، نقلاً عن في التاريخ الأيوبي والمملوكي للعبادي ص 162.

² المملوك (1 - 521).

³ بدائع الزهور (1 - 99 - 100) في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص 163.

⁴ في التاريخ الأيوبي والمملوكي ص 163.

2 . الطريق إلى عرش المماليك

كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية - القتل، وسفك الدماء، فقد اعتلت شجرة الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين في مصر، كما أنها هي وزوجها عز الدين أيبك لقياً حتفهما بسبب تصراع على السلطة، وبسبب طبيعة الحكم العسكري في دولة سلاطين المماليك، وتطبيقاً لمبدأ الحكم لمن غلب. الذي قام عليه البناء السياسي لهذه الدولة، كان طبيعياً أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في إزالة السنطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك، ورجح الدكتور فاسم عبده فاسم أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك نويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت، كما أنه كان أول من أحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولي، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام، فقد كان بيبرس ابن عصره، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك¹، ولم تكن هناك مؤسسات شورية قوية في اختيار الحاكم، وغاب الفقه السياسي في الإسلام المتعلق باختيار السلطان، أو الملك أو الحاكم، فقد حزن السنطان قطز ارجاع الأمر إلى نصايه، ولكنه قتل قبل تحقيق ذلك، وبعد أن أستطاع أن يحرر المغول ويحرر بلاد الشام.

3 . نتائج مقتل قطز

انتقلت السلطة إلى مقاتل قبل أن تحجب دعاء المقتول، دون أن يرى كبار أمراء المماليك عضاضة في ذلك، بل إن أتباع العسكر سأل عن المقاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له ((يا خوند إجلس أنت في مرتبة السلطنة)) وكان عرش الدولة مكافأة لمن تخلص من السلطان للقتيل، وهكذا مرة أخرى

¹ في تاريخ الأيوبيين والمماليك، فاسم عبده فاسم - 2006.

ترسخ مبدأ ((الحكم لمن غلب))¹، ويبدو أن هناك إجماع من المماليك البحرية على زعامة ركن الدين بيبرس، وأما النتائج التي ثرثت على هذه المسألة هي:

أ - فككت على اتناحية السياسية تكريماً لنقوة واندماها سبباً إلى السلطة والعرش وكانت تلك هي ((سنة المماليك في دولتهم)) ونم يحدث طوان مائتي وسبعين عاماً، هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلاً، لقد كانت المفاهيم السياسية لدولة المملوكية نتاجاً لنظروف التاريخية التي خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية في أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ ابتداء أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، وهو الأمر الذي ظهر واضحا منذ بداية الدولة سواء في مصرع تورانشاه أو عز الدين أيبك وشجرة الدر، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز، كما تكرر في سلسلة انقلابات انقصر ومؤامرات الحكم طوان سنوات حكم دولة سلاطين المماليك².

ب - مرحلة جديدة في تاريخ المماليك: وأما النتيجة الثانية الهامة: فتمثل في الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة مهمة في تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير إندهية، بقسوته وجبروته وحكته السياسية وبراعته العسكرية، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة ((بفضل الله))، ثم انجازاته السياسية والإدارية والعسكرية، فقد كانت السنوات العشر السابقة، مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين، ثم اغتيال ثلاثة منهم، ونجا الاثنان الأخران بسبب صغر سنهما وانعدام خطورتهما، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة

¹ المصدر نفسه ص 208.

² المصدر نفسه ص 209.

عشر عاماً، ومن ناحية أخرى، كانت دولة ملاطين المماليك في السنوات العشر الأولى من عمرها، تفتقر إلى الشرعية وتبحث عن الأمن في مواجهة تهديدات الأيوبيين وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد، لمشكلة الشرعية، على حين كانت معركة عين جالوت هي الحل - الدافع - لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين¹.

ج - زيادة الاعتماد على المماليك: وكانت النتيجة الثالثة لاغتيال قُطر في ازدياد اعتماد أمراء المماليك على ممالئهم بحيث يكونون عندهم في التصراع الذي يمكن أن يحدث في أي وقت، فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتثلون جيوشاً صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة، وستمئة ممنوك، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة ممنوك وأما السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم، وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتريات السلطان من المماليك إلى ثمانمائة ممنوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثته عن السلطان السابق أو من ممالئ كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاء وغيرها²، وهكذا تركزت الطائفية بين العناصر المملوكية بالشكل الذي ترك آثاره السلبية على البناء السياسي لدولتهم على المدى الطويل، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت في حوادث الاغتيال الأولى التي شهدتها الدولة ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز³.

4 - قبر سيف الدين قطز وثناء العز بن عبد السلام عليه:

يروى أبو المحسن أن قطز: بقي سلقى بالحرء فدفنه، بعض من كان في خدمته بالقصير، وكان قبره يقصد للزيارة دائماً... وكان كثير الترحم

¹ في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 209.

² المصدر نفسه ص 209.

³ المصدر نفسه ص 210.

عليه والنداء عنى من قتله، فلما بلغ ببيروم ذلك أمر بنبشه، ونقله إلى غير ذلك المكان وعفى أثره ولم يعف خبره¹، وقال المقرئزي: ودفن بالقصير، فكانت مدة ملكة أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً وحمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ ثقي الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القارفة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود، ويقال إن اسمه محمود بن ممدوح وابن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وابن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع في دمشق ثم انتقل إلى القاهرة².

إن قيمة الرجال وعظمتهم لا تقاس بطول العمر ولا بكثرة المال، ولا بأبهة السلطان، إنما تقاس بالأعمال الخائذة التي تغير من وجه التاريخ، فمن قطز إذا لم يتمسك بالإسلام ويدافع عنه؟ ولا شك أن التاريخ كان سيغفل اسمه كما أغفل أسماء الكثيرين الذين كانوا كغناء الليل، بل كانوا وبالاً على شعوبهم وأوطانهم مع حكمهم الفترات الطويلة والأعمار المديدة ولا شك أن حفر الاسم في سجل التاريخ يحتاج إلى رجال عظماء وليس بالضرورة أن يحتاج إلى وقت طويل³، فالتغيير يعتمد على نوعية الرجال المغيرين، مع مراعاة السنن وفقه المصالح والمفاسد والسياسية الشرعية وفقه قيام الدول وسقوطها ومعرفة مسار حركة التاريخ في مخنيئاته المتعددة، لقد كان الشيخ العز بن عبد السلام يخشى أن يضيع النصر الكبير وتدهار الأمة من جديد، لقد قال بعد موت قطز وهو يبكي بشدة: رحم الله شبابه، لو عاش طويلاً لجدد للإسلام شبابه⁴، وقال: ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز

¹ النجوم الزاهرة (86/7 - 87).

² السلوك (520/1).

³ قصة التتار صـ 366.

⁴ المصنوع نفسه صـ 367.

— من يعادل قطز — رحمه الله — صلاحاً وعدلاً¹. إلا أنني مع محبتي لسيف الدين قطز، واعترفي بجهوده العظيمة في خدمة الإسلام ودخوله نادي عظماء الأمة، فإنني أخاف شيخنا العز بن عبد السلام وأرى أن نور الدين محمود الشهيد فاقه صلاحاً وإصلاحاً وعدلاً وجهاداً، ومن أراد التوسع فليراجع كتابي عن عصر الدولة الأيوبية لقد كان سيف الدين قطز من خيار ملوك الترك وأنه اليد البيضاء في القيام لدفع العدو عن نيار المسلمين² الشامية والمصرية.

5 . ردة فعل المغول لقتل قطز:

لما بلغ المغول نبأ مقتل قطز بتلك الصورة توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى، فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرهما من مدن إقليم الجزيرة، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وأبراج قلعتها واضحت مكشوفة فانرك الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان والياً على حلب خطورة الموقف فيها، وأرسل تجدة من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم، إلا أن هذه القوة الإسلامية لم تستطع تصمود أمام الجموع المغولية وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتقدم خطر المغول وانهم اتجهوا إلى منبج، ويبدو أن المغول اردوا عدم اضاعة الوقت في لهجوم على المن الصغيرة، وعقدوا لعزم على مهاجمة مدينة حلب التي وصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة 658هـ/نوفمبر 1260م وبدأوا في مهاجمتها بقيادة الأمير المغولي بايدر الذي استطاع اقتحام المدينة وإخراج

¹ المصدر نفسه ص 367.

² جواهر السوك في أمر الخلفاء والسلوك لابن إيس ص 115.

من بها من المسلمين إلى قرية قرانيا شرقي حلب وفيها حول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى لتوقوف في وجه المغول وإيقاف زحفهم إلا أن ذلك التجمع لم يجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية، واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف الملك السعيد على حلب إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمتازلتهم فتراجع إلى حمص التي فيها الملك المنصور صاحبها، وفيها رأى توسيع الترفعة على المغول بالتراجع إلى حمص متظاهراً بالضعف أمامهم بهدف إعطاء نفسه فرصة كافية لتحشد أكبر عدد من الجيوش الإسلامية فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حمص وسعه أخوه الملك الأفضل عني وسعها صاكر حمص، كما انضم إليه في الوقت نفسه الملك الأشرف صاحب حمص وفي حمص أعاد الجوكندار تنظيم جيوش الإسلام مرة أخرى وجيهاها بالعدة والعتاد استعداداً لمنازلة المغول، الذين وصلوا إلى حمص في المحرم من سنة 659هـ/ديسمبر 1260م حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد - رضي الله عنه¹ - بالقرب من الرستن إلى فيها المسلمون بلاء حمصاً رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغول، حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم، وفر يايدر من المعركة فيمن، سلم من جنده وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه إلى سنية حيث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلة بها، وحارثوا عبثاً مهاجمة حمص مرة ثانية وأقاموا عليها يوماً واحداً، ثم رحلوا عنها إلى أفامية، التي كان قد سبقتهم إليها فرقة من جيش المسلمين أقامت بالقلعة، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة التي اضطرت العدو إلى ترك أفاميه والاتجاه إلى حلب التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس من تثبيت نفسه على عرش الدولة

¹ جهاد المماليك ص. 129.

المملوكية في مصر والشام، حيث سارع بإرسال جيش كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام، ولما سمع المغول بمقتم ذلك الجيش دخلهم الهلع والخوف فولوا الأنبار هاربين باتجاه الشرق وطهرت بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي¹، واستطاع المسلمون أن يتجاوزوا هذه المحن العظيمة وأثبت التاريخ بوقائعها وشواهدة، أن هذه الأمة أصلب ما تكون عودة وأشد ما تكون قوة وأعلى ما تكون همة، عندما تحيط بها الشدائد، وتحل بساحتها الأزمات وتنبك في سمائها الغيوم، فهي حينئذ تستجمع قواها وتستشير كوامنها، وتظهر ذخائرها وتقف في مواجهة الهجمات الغازية، والمحن القاسية، بإيمان صلب، وصبر جميل، وثبات نبيل وتوكل على الله حتى يجعل الله لها من عسرها يسراً ومن ضيقها فرجاً، ومن مأزقها مخرجاً ومن ظلام ليلها صباحاً مشرقاً ونهزراً مضيقاً، وبهذا أثبتت الأمة عراقتها وأصالتها وأنها قادرة على امتصاص الهزائم واجتياز المحن والشدائد العظام والوصول إلى بر الأمان في النهاية بسلام².

سادساً: أسباب إنتصار المسلمين في عين جالوت:

1 - القيادة الحكيمة:

أكرم الله الأمة في تلك الفترة التاريخية الحرجة، بالسلطان سيف الدين قطز وكان رجلاً صالحاً، كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى الشرب ولا شيئاً مما يتعاطاه المتونك³، وكان شجاعاً وبطلاً، كثير الخير، ممالئاً للإسلام وأهله وهم يحيونه⁴، وكان مقداماً حازماً حسن التدبير، وكانت الأمة في أشد الحاجة لقيادة حكيمة، تتصف بصفات فذة، فقد جاءت مواهبه

¹ لتجوم ازاهرة (104/7 - 106).

² تاريخ من المقرئ عليه للقرضاوي ص 210.

³ البداية والنهاية (17 - 405).

⁴ المصدر نفسه (17 - 411).

موافقة لحاجات الأمة¹، شهد معارك كثيرة مع الأيوبيين مما أتيح له خبرة في الحرب وكان مهياً نفسياً منذ نعومة أظفاره في أن يكون قائداً فذاً، يشار إليه بالبنان، ويكون صاحب شأن في مجريات الأحداث في مصر والشام، وكان يعتز بعقيدته الإسلامية ويفاخر به وكان يحمل الضغينة والحقد على المغول الذين أذلوا خورزمشاه ومن معه ثراً ووطأوا بلادهم وسنموهم سوء العذاب، وكان له من الصفات الجسمية ما يزهله لأن يكون قائداً فهو قوي البنية: مستدير الوجه، عريض الكفين، ممتلئ الجسم، أشقر، كث اللحية، وكان من البارزين في الفروسية والحاذقين في استخدام الرمح، فإذا أتاه الخصم من الخلف رمى الرمح أمامه بقدر ثقت حتى إذا كان الرمح بين كتفي قطز أبطنه وعرز رموحه في صدره لا محال²، ولما داهم الخطر الأرض الشامية والمصرية وتحرك المغول بجيوشهم لكي يقضوا على المماليك إتخذ قطز حينذاك عدة إجراءات دفاعية منها: الترحيب بالهاريين من المماليك، وتناسيه الضغائن والأحقاد والخلافات التي كانت بينه وبينهم، وعزل الملك المنصور علي لصغر سنه وعدم قدرته على ترتيب الأوضاع التي تحتاج إلى حزم ووحدة، وقيادة قادرة على محاربة المغول وذلك سنة 657هـ/1259م، وتحضير الإمكانات وحشد الطاقات البشرية والاقتصادية ومحاولة التحالف مع الملك الناصر صاحب الشام، وتوحيد القوتين ليكون الجيش أقوى في مواجهة أعدائه³، فقد كان سياسياً إستراتيجياً مخططاً أكثر منه مقاتلاً إذ استطاع في مدة بسيطة أن يموس بلاد الشام، وأن يحسن إلى الشعب، ويقدم له الأمن والسلامة والاستقرار، وأن يهيء له سبل العيش الكريم، وأن ينظم الأمور الإدارية، ويعين الحكام الإداريين للمسن التي إحتتها

¹ سيف الدين قطز، قاسم عبده ص-164.

² معركة عين جالوت ص-124.

³ المصدر نفسه ص-126.

واستردها للتتار¹.

إنما يتميز به هذا السلطان هو الإيمان بالله عز وجل، الذي لا يرقى إليه ريب ولا شك، وانظرة السليمة التي جبل عليها وتربى في ظلها والعيش تصعب الذي أهنه للتصير والوقوف أمام الشدائد، وتقلبه في البلاد، والحرمان الذي قاساه في صغره، والتربية التي خضع لها، وتمت عقيدته ورسخ إيمانه، وهذب نفسه، وأصلح بآله، وقوى من عزيمة الجهاد، ومن الاستهانة بالموت، ومن الإقدام والعزيمة على قتال المغول، ومن الوثوق الكاس في الله بانتصر عليهم²؛ وقد دلت حروب قطز التي خاضها مع الأيوبيين وشد الأمر الهاريين إلى الكرك، وشد الأمر الذين حاولوا إغتصاب السلطة، وفي معركة عين جالوت، على أنه قائد حرب إستراتيجي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وهو الذي أجاد في القتال بالأسلحة المستخدمة آنذاك، وكان صاحب قرار تميز بالوضوح والدقة، والنظر الثاقب، وجلاء الهدف، وبيان الحقيقة خاصة فيما يتعلق بمعركته هذه مع المغول، وهو حازم وقت الشدة ومصمم على بلوغ النصر مهما كانت العقبات أمامه، واستفهم لقدرة عدوه ومقدر لقوة الصديق، وكان لكل شيء حسابه، ويدقق المعلومات ويحافظ على مروضيه ويستعملهم بأسويه انجذاب، ويتعاون مع أركانه ويعطوهم الثقة، ويمنحهم المساعدة والعطاء. وكان منظماً قاد الكنتة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت، فنظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط لكل جناح قائداً شجاعاً ونسق الصفوف إلى عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالإحاطة والميسرة بالإنقاذ والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرص المتحرك على الأجناب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو، مما جعله يتمكن من عدوه،

¹ فوات الوفيات (268/2) معركة عين جالوت، ص 126.

² ثنرات الذهب نقلاً عن معركة عين جالوت ص 127.

ويَقضي عليه بعد أن استدرجه لوفورع في النقطة الميئة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول، ولقد حدد قطز قواعد وأسس الشئون الإدارية في الجيش المملوكي، إذ استطاع أن ينظمها ويحدد خطوطها العريضة بخاصة فيما يتعلق بحركتها وخفتها، وقد ظهر ذلك جلياً عندما حشد لصاحب حماه كيفية ونوع الإمداد، وعندما أكد على أن الجندي يجب أن يكون خفيف الحركة لا يتقله الطعام الكثير المتنوع فأمر بوضع قطعة من اللحم في مخلاة عسكرية¹ ومما يشار إليه أن قطز كان متديناً عفيفاً، صاحب تقوى وورع، وهذه انصفة أكسبته لشجاعة والإقدام في الحروب، وجعلته يستبسل ويقدم روحه رخيصة، ويستهيئ بالموت، وبخاصة عندما قتل حصانه، واستمر في القتال دون جواد، وكان في مقدمة الجيش يقاتل عن حمية وعقيدة²، وكانت له مواقف إيمانية متميزة منها:

أ - وضوح الرؤية ونفا الهوية:

كان على إعتقاد جازم بأن النصر لا يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، ولذلك إهتم قطز بالناحية الإيمانية عند انجيش وعند الأمة وعظم دور العلماء وحفز شعبه لحرب التتار من منطلق إسلامي وليس من منطلق قومي أو عنصرى، ولخص ذلك في عين جالوت في كلمته العظيمة ((وإسلاماه)) ولم يقل: ((وامصراه))، أو ((وامكاه))، أو ((وا عربوته))، لقد كانت الغاية واضحة والهوية إسلامية تماماً، ووضوح الرؤية ونفا الهوية كان سبباً من أسباب النصر، بل هو أعظمها على الإطلاق³.

ب - اندعاء سلاح فتاك:

حرص سيف الدين قطز قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في

¹ عين جالوت صـ128.

² المصدر نفسه صـ128.

³ قصة التتار صـ353.

مواجهة الأعداء كما قال: حتى تَور الشمس وتقيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم¹، وكان هذا العمل تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً على المسلمين، حتى أن الأعداء كانوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان فطرز يثبت الناس وينحاز إلى بعض فواح الجيش حينما يحس ضعفاً منهم حتى يقوي من عزيمته ويشجعهم، وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة².

جـ - الحرص على الشهادة:

في معركة عين جالوت، قتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من التوشاقية الذين معهم للجناح فترجل وبقي واقفاً على الأرض ثابتاً والقتال على أشده في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه أحد الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك ونم يزل كذلك حتى جاءته التوشاقية بالخيول فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خونت لم لا ركبت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسبيك، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان، حتى عدّ خلفاً من المنوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام³. فهذا موقف جنيل لهذا الأمير البطل دل على تواضعه وعدم إهتمامه بحفظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام، والهدف العالي الذي ينشده المؤمنون حقاً وهو ابتغاء

¹ الفتوح الإسلامية عبر العصور صـ347.

² المصدر نفسه صـ347، الطريق للقدس محسن محمد صـ175.

³ الفتوح الإسلامية عبر التاريخ صـ348.

رضوان الله تعالى والجنة¹.

س - رؤيا صادقة:

كان من أهم الحوافز للأمير سيف الدين قطز على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره، وكان يحدث بها أصحابه، حيث قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لي: أنت تسلك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيه². فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يقدم على قتل التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قنطوهم بضعف وخوف، لقد دخل مظفر الدين تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي صلى الله عليه وسلم بالتمكين في الأرض، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت، فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فكان ذلك دافعاً قوياً له إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى³، وذلك من أسباب النصر على أعدائهم.

ش - القدوة.

كان سيف الدين قطز متواضعاً وضرب أفضل الأمثلة لجنوده ولأمته في كل الأعمال، وتربية القدوة أعلى آلاف المرات من تربية الخطب والمقالات، كان سيف الدين قدوة في أخلاقه وفي نظافة يده وفي جهاده وفي إيسائه، وفي عفوّه، ولم يشعر الجنود أبداً بأنهم غرباء عن قطز، لقد نزل - رحمه الله - بنفسه إلى خندق الجنود وقاتل معهم فكان حتماً أن يقاتلوا

¹ التاريخ الإسلامي (16 - 388).

² المصدر نفسه (16 - 391).

³ المصدر نفسه (16 - 392).

ع . عدم موالاتة أعداء الأمة:

لم يوال سيف الدين قطز التتار أبداً مع فارق انقوة والإعداد بينهما، كما لم يوال أمراء النصارى في الشام مع احتياجه لذلك، لقد سقط الكثير من الزعماء قبل قطز في مستنقع الموالاتة للكفار، وكان منطلقهم في ذلك أنهم يجنبون أنفسهم أساساً، ثم يجنبون شعوبهم بعد ذلك — كما يدعون — ولايت الحروب، فارتكبوا خطأً شرعياً شنيعاً، بل ارتكبوا أخطاءً مركبة، فتجنب الجهاد مع الحاجة إليه خطأً، وتربية الشعب على الخضوع لأعدائه خطأً آخر، وموالاتة العدو وإعتباره صديقاً خطأً ثالثاً، لكن قطز كان واضح الرؤية بفضل الله ثم تمسكه بشرعه سبحانه وتعالى²، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (المادة، آية : 51).

لقد كان سيف الدين قطز من القيادات الحكيمة التي استطاعت أن تأخذ بعوامل النصر وتتعامل مع أسبابه، وجمع بين الأسباب المادية والمعنوية، وبعد المعركة قرر السظفر قطز مواصلة الجهاد فجمع جيشه وأمراه وقرن إلى الأرض، ومرغ وجهه بالتراب، وصلى ركعتين شكراً لله على هذا النصر، ووقف فيهم خطيباً، وقال: لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله فنصر قنيلكم على كثير عدوكم إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله أنه ذو القوة المتين، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتوه وإن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده، ويموت يفرح المؤمنون بنصر الله³.

¹ قصة التتار ص 355.² المصدر نفسه ص 356.³ من أجل فلسطين حسني أدهم جرار ص 102.

2 . توسيد الأمر إلى أهله :

قام سيف الدين قطز بتوسيد الأمور إلى أهلها واهتم بالكفاءة والأمانة، قال تعالى: "إن خير من استأجرت القوي الأمين" (التقصص، آية : 26)، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن إعرابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُت الأمر إلى غير أهله، فانتظر الساعة¹. فإذا تولى الأمور رجال لا يمتلكون كفاءة ولا يتصفون بأمانة، ولم يصلوا إلى مكائهم إلا بواسطة أو قرابة أو رشوة إذا حدث ذلك فاعلم أن النصر بعيد²، أما سيف الدين قطز، فقد استند الأمور إلى أهلها، واختار قادة جيته وأركانه وكان لهم الفضل بعد الله تعالى في الانتصار على المغول على المستوى التكتيكي والاستراتيجي³، ومن أشهر هؤلاء القادة الذين ساهموا في النصر:

أ . الظاهر ركن الدين بيمرس البندقداري :

كان في معركة عين جالوت رئيس أركان الجيش المملوكي وقائد الطليعة، طارد بينرا قنند طليعة الجيش المغولي إلى أرض فامية، ظهرت عليه النجاة والظنفة في سن مبكرة من حياته التي كان فيها مملوكاً وقربه وقدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب على الجمدارية الذين كانوا عنده وحضر معه معركة دمياط وأبلى فيها بلاء حسناً ظهرت عبقريته العسكرية وشجاعته الفائقة، لا يزال الكره يملأ قلبه والحقد الكبير على المغول الذين أهانوه وأسروه وعندما كان عمره أربعة عشر عاماً، وباعود فشروه إلى أن وصل إلى البندقداري الذي سمي الظاهر باسمه، ثم انتقل إلى الملك الصالح

¹ البخاري، قصة التتار صـ357.

² قصة للتتار صـ357.

³ عين جالوت، صـ123.

وكان من أبطال معركة المنصورة التي كانت من المعارك الحاسمة بين الصليبيين والأيوبيين والتي انتصر فيها الجيش الأيوبي الذي كان في أكثره من المماليك ورأى بنفسه أنه يمكن الانتصار على هؤلاء وغيرهم وأنه بإمكان المماليك، لو نظموا وتربوا، أن ينتصروا على كل طامع وغاصب وقد تميز، بثقافته العسكرية التي كان يتمتع بها، إذ كان شغوفاً بدراسة تاريخ المعارك والحروب وكان يشجع ويحث العسكريين لتركيزهم على هذه الدراسة وبخس الوقت كان يحب الاساتذة وخبراء الحرب ويسأل إليهم ويكرمهم ويهيء لهم الجو الملائم للتدريب وإعطاء مزيد من المعلومات التاريخية العسكرية وكان يقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وحافظ على التدريب العسكري المتواصل، والاهتمام بكل صغيرة وكبيرة من الأمور المتعلقة بالسياسة والحرب، وقد تمتع بصفات قيادية فذة، وكان يأخذ بالخطر والحيلة نكل الأمور، واتخذ المناسب حيال كل حدث أو اعتداء، والخبرة الوطنية والمدة الزمنية الكبيرة التي قضاهما في الحروب الحقيقية¹، كان من الشخصيات القيادية التي ساهمت في تحقيق النصر في عين جالوت.

ب - الأمير فارسي أقطاي المستعرب:

تابع الجيش والذي تولى تجهيزه وإعداده والأشراف على كل أموره، وفوق كل ذلك، فقد كان هو نفسه من الرجال الموثوق بدينهم، وإخلاصهم وشجاعتهم وكفاءتهم في الأعداد والتنظيم والتعبئة²، كان مقداماً شجاعاً وذا معرفة بالحروب وكان قسراً يعول عليه كثيراً، وكان هادئاً ورعاً، محباً للخير، مقرباً إلى الملك قطز ومحبوياً من قبل مرؤوسيه³.

¹ معركة عين جالوت 128 - 136.

² من أجل فلسطين، حثي لهم جزر ص 98.

³ معركة عين جالوت ص 136.

جـ - سنجار الحلبي:

كان أتابك العسكر في زمن الملك المنصور علي بن أيك سنة 655هـ/1257م، وكان نائب المطفر قطز في دمشق في أعقاب معركة عين جالوت، ولما جاءه خبر مقتل قطز واستلام الملك الظاهر ومبنيته هرب إلى بعلبك وضيق عليه ثم ألقى القبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه وكان على درجة كبيرة من البطولة والشجاعة وقد أبلى بلاءً حسناً في المعركة الفاصلة¹.

د - أقوش الشمس الأمير جمال الدين:

كان جندياً قوياً، وأميراً موصوفاً بالشجاعة والإقدام والجرأة في التنفيذ، وقد كان خشدانشيا عند الأمير بدر الدين البيسري، كما خدم عند غيره، وقد ظهرت عليه تطلعات الإرتقاء إلى المناصب العالية، حتى إذا كانت معركة عين جالوت، شكل من وحدته العسكرية، وقصد مقر قيادة المغول: حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى من القائد انعام للجيش المغولي انقض عليه وأصابه وطرحه أرضاً وأسر كتبغا، ولما رأى الجيش المغولي وقد أسر قائدته خارت قواه وضعفت معنوياته، وبهذا فقد حقق لقرش نصراً لحبشه، بل كان منعطفاً تاريخياً ثم رلى فيما بعد نيابة حلب وبقي فيها حتى توفي².

هـ - هؤلاء كانوا من أهم قادة جيش السالميك الذين حققوا النصر الكبير في عين جالوت، فكانوا من أسباب النصر، لقد إهتم سيف الدين قطز بالكفاءات والقادة الآخرين فتعاطفوا معه والتفوا حوله وتولدت الثقة التي كانت المفتاح الرئيس لتحقيق التمكين في عين جالوت، وكان سيف الدين قطز يملك مقومات الحصول على الثقة من الأمراء والعلماء، وعامة الناس

¹ الوافي في الوفيات (15 - 473) معركة عين جالوت ص 137.

² النجوم الزاهرة (7 - 97) معركة عين جالوت ص 138.

والتي من أهمها:

— التعاطف ويتحقق ذلك من خلال الإهتمام بالآخرين والوقوف إني صفهم فيما يحدث لهم من خير وشر ومشاركتهم همومهم ومشاكلهم ومن خلال ذلك تم كسب ثقة القادة والعلماء وعموم الشعب.

— الصدق والصراحة، والكفاءة والعمل الجماعي المنظم والإنشاء للإسلام والقدرة على الاتصال بالآخرين، وكل هذه المقومات ساهمت في كسب ثقة في سيف الدين قطز¹.

3 - الجيش القوي:

يعتبر الجيش المملوكي في تلك الوقت من أقوى الجيوش الإسلامية والفضل لله ثم للملك الصالح أيوب، الذي قام بإصلاح عسكري في الدولة الأيوبية ووضع سياسة جديدة تقوم على استخدام الأتراك المماليك بشكل لم يسبق له مثيل من قبل أسلافه الأيوبيين مكنته من متابعة حروبه الخارجية مع مملكة بيت المقدس والتصدي لحملة الصليبية السابعة²، ورافق ذلك تطوير عسكري الإهتمام الديني به من حيث التربية والتعليم حتى أصبح كتائب المماليك تدافع عن عقيدة الإسلام، وأصبحت الدولة تحتفظ بجيش عقائدي ومنظم ومدرب أحسن تدريب صناعته الحرب والقتال وأيدي من المهارة واليسالة في قتال القوات الصليبية برغم هزيمتهم في بداية الأمر، وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بالسكر والخدع الحربية³، وتسلم المماليك المؤسسة العسكرية الأيوبية بعد وصولهم للحكم

¹ انظر:

إدارة الجودة الشاملة للشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني، حيث تم الحديث عن أساليب إدارة الجودة الشاملة وعقومات الحصول على الثقة ص 213.

² الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية ص 151.

³ الأيوبيون بعد صلاح الدين الصلبي ص 360.

وحافظوا عليها وقاموا بتطويرها؛ لقد اشترك الجيش المملوكي في معركة عين جالوت بقيادته العسكرية والتشكيلات المقاتلة النظامية، والجيش المركزي، والجيش الإقليمية، والجيش الاحتياطية بما فيها القبائل العربية والتركمن والأكراد، وقدر المؤرخون في ذلك العصر أن حجم الجيش المملوكي بالكامل كان في حدود 40 ألف مقاتل، وكان عدد الفرسان في حدود عشرة آلاف فرس وأغلبهم من المماليك وقسم قليل من غيرهم من المشتركين في المعركة، وكان عدد الجيش المغولي في عين جالوت 15 ألف مقاتل، وذلك أن القوة الرئيسية من هذا الجيش تحركت باتجاه فارس مع هولاكو وتوزعت ببعض القوى الأخرى في المناطق التي احتلها مروراً ببغداد وإنهاء بالشام وكان في اعتقاد القادة المغول إن هذا العدد قادر على تحطيم وتدمير الجيش المملوكي بكل سهولة طالما إن له الخبرة في الحروب وسبق أن انتصر على كل الجيوش التي اشتبك معها، وقد أكد على هذا العدد مجموعة من المصادر التاريخية من أهمها، جامع التواريخ، وتاريخ مختصر الدول، وتاريخ الشهابي، وتاريخ الصليبيين، وتاريخ الزمان²،

4 - إحياء روح الجهاد:

كانت الغاية من التوجيه المعنوي في الجيش المملوكي التذكير بالجهاد والحث عليه والترغيب وشحن النفوس بمقارعة ومحاربة العدو، وصون الأديار، والحرمة الإسلامية، القوة المعنوية يركز عليها في كل الجيوش فلا ينتصر جيش بدون معنويات، ولهذا فإن القيادة تسعى دائماً إلى زيادة هذه القوة ورفعها، فهي تحاول أن يكون السلاح حديثاً موثقاً به والشؤون الإدارية بحالة جيدة كالطعام واللباس والحاجيات الأخرى، ولقد أكثر المماليك من الوسائل التي ترفع هذه القوة كالمكافآت والترقيات،

¹ النجوم الزاهرة (7 - 197)، معركة عين جالوت ص 165.

² معركة عين جالوت ص 166.

وإعناق الأموال، ولكن هذه الوسائل كانت موقنة للسكن الذي لا يلبث أن يعود الجندي إلى حالته الطبيعية ولكن هناك وسيلة كبيرة هي العقيدة التي كانت تأمر بالقتال وأن النتيجة مع المقاتلين في النصر أو الإستشهاد، وقد أشعل هذه الناحية المشايخ في الجيش المملوكي فأجبروها، ورفعوا بها إلى المكان الذي يمكن أن يأخذوا من جندي كامل طاقته وقدرته¹، وإذا أردنا أن نحمل بواعث المعنويات عند الجيش المملوكي في معركة عين جالوت لخصناها كما يلي:

- زيادة حجم الجيش المملوكي وتفوقه على خصمه.
- الثقة في الله في تحقيق النصر.
- الانتقام من المغول الذين طغوا وبلغوا في البلاد التي احتلوا والثار لكل المظلومين والمتهورين.
- العقيدة التي أوججت في المقاتلين روح التضحية والفداء وجعلتهم يقدمون على الموت وهو أحب إليهم من الحياة.
- الاستعداد الكامل والتحضير لهذه المعركة، وحشد كل الطاقات والإمكانات لنجاحها.
- تراخي العدو وعدم إكترائه وعدم تطبيقه الأسس والمبادئ الحربية وعدم أخذ الحيطة والحذر².

إن الذي يلفت النظر في موضوع المعنويات هو العقيدة، فيها اجتمعوا وتوحدوا على مستوى واحد، وأرضية واحدة، فالمملوكي مهما كانت طبيقته وقوميته فهو عقائدي وبهذا الإنتماء قدم الجهاد، وبهذه المزية إندفع بمعنوية لا تقابلها معنوية في الجيش المغولي، فذاك قطر نادي بأعلى صوته ((وا إسلاماه)) فاجتمع له الجيش بفئاته المختلفة بمعنويات عالية، ذلك

¹ معركة عين جالوت ص 191.

² معركة عين جالوت ص 191.

لأن هذا النداء العقائدي أوجب في نفوس القادة والجنود كل إمكانيات المقاتل القتالية، وجعله يقدم الإرادة حياً وتضحية وفداء واستيبالاً، على هذا النداء فائق الجيش المملوكي قتال رجل واحد، فانتصروا على أكبر قوة في تلك الحقبة¹.

5. الإعداد وسنة الأخذ بالأسباب:

إن إنتصار المسلمين في معركة عين جالوت، لأنهم عرفوا كيف يتعاملوا مع سنة الأخذ بالأسباب، وكان سلاطين المماليك أصحاب فقه عميق بسنة الأخذ بالأسباب، ويظهر ذلك من خلال حرصهم على العمل، وقوله تعالى: "واعدوا لهم من استطعتم من قوة ومن رباط الخيل..." (الأنفال، آية: 60). لقد فهم قادة المماليك أن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى على اختلافها وترعها، ولقد قاموا بشرح هذه الآية عملياً من خلال التدريب والتخليم والتخطيط والتنظيم... الخ.

لقد إهتم قادة المسلمين في مصر بتأهيل الفارس لكي يدخل الحرب وهو على أتم الإستعداد لها، وكان أغلب الملوك والسلاطين والأمراء من الفرسان المعنودين ومن الأبطال الشجعان الذين على علم بالرمية ولعب الرمح وضرب السيف وخفة الحركة في ساحة الميدان وبفنون القتال وباستخدام الأسلحة المعروفة في ذلك العصر، ولم تقتصر الفروسية على توجيهاء، بل كان أغلب الجنود أو قل جميعهم من الفوارس ومن المدربين على تلك الأعمال التي في نظرهم في مقدمة كل أمر، ومن أبرز الصفات عند الجيش المملوكي²، والتي كان يركز عليها عند القادة في وقت الإعداد والتدريب والأخذ بالأسباب:

¹ معركة عين جالوت ص 193.

² المصدر نفسه ص 250.

أ - العمومية والشمولية:

إن التدريب كان يشمل المؤخرة، كما يشمل المقدمة، والتشكيلات كما في القطعات والوحدات، والفرد كما في المجموعات، والجندي كالفاند، والبحرية كالقوات البرية، ولا يستثنى أحد، وكانت هذه التدريبات تتناول جميع أنواع التدريب وأشكاله وطرائقه، كما تتناول جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، والتدريبات التي تحافظ على اللياقة البدنية، وترفع من قدرة الجندي القتالية، كالعاب السباق والمصارعة، وبهذه العمومية والشمولية توصل الجيش الممنوكي إلى توازن قتالي بين صفوف قوته وإختصاصاتها المختلفة، وإلى وحدة الجيش الحربية، وإلى نقل الضغط والخرق، فإن ركز جهوده الرئيسية إلى قطاع من دفاعات العدو تراه يجمع كل الجهود لهذا القطاع، كما حدث تماماً في معركة عين جالوت عندما خرق الدفاع وإستطاع أن ينفذ من اليمين والشمال وأن يصل خلف القوات المغولية بالرغم من الصمود وثبات الدفاع¹.

ب - ملازمة التدريب العقائدي مع التدريب القتالي:

كان المماليك يدرّبون على أصول العقيدة وأحكامها ونظريتها إلى الجهاد تحت إشراف مدربين إشتهروا بالتربية والتعلّم، وكان يعلمونهم القرآن الكريم حتى أن بعض المدربين كانوا يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب، وكذلك كانت علوم شرعية متنوعة في التفسير والحديث والسلوك واللغة، وبعد نجاحه في أمور العقيدة وإتمامه هذه المرحلة، وبعد أن يكبر، يسلم إلى مدربين في أمور الحرب والقتال، فيتدربون على ركوب الخيل ويتدرجون من السهولة إلى الصعوبة، فيقاتل على ظهرها بسلاح واحد ثم يصل إلى جميع الأسلحة ويتدرب في حالة الركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي والدقة في الإصابة على القيق وللضرب بالسيف والطمع بالرمح

¹ معركة عين جالوت ص 151.

وإستخدام الدبوس ولعب الصولجان، ثم يتدرب على طرق القتال في الميدان وهذه هي أصعب مرحلة في التدريب يخرج من بعدها مقاتلاً قوياً في عقيدته قوياً في قتاله وهو بهذا لا ينقطع عن التدريب العقائدي أو القتالي بل يظل ينمي تدريباته، حتى يصل إلى أعلى مستوى من التدريب المتلائم.

جـ ـ التدريب بشكل متواصل:

إن للمقاتل المملوكي بعد أن ينهي هذه المراحل جميعها لا يتوقف عن التدريب ابداء، وإنما هناك الميادين المتعددة التي يلتقي فيها المقاتلون ليقوموا بتدريباتهم المعتادة ويوصل العسكري المملوكي تدريبه على جميع أنواع القتال وعلى اختلاف الأسلحة في جميع الظروف والأحوال الصعبة، ويبقى من الصباح حتى المساء حتى ولو كان الجو ماطرأ أو بارداً أو حاراً²، فالمهم عنده تنفيذ البرنامج التدريبي المقرر وكذلك كان التدريب العقائدي فقد كان الموجهون المشايخ كثيرين، وكذلك فإن دور العلم التدريب كانت كثيرة وهي لا تخلو من المقاتلين الذين يلزمون هذه الأماكن التي كانت منتشرة بشكل واسع³.

س ـ التخصص في التدريب:

لقد شاع التخصص في الوظائف العسكرية في الجيش المملوكي فكل مادة لها مدربون خاصون بها، فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به، فهم يقومون بتدريبه وتعليمه للفولرس المبتدئين، كما كانوا يؤنثون الكتب العديدة التي تبحث في هذا السلاح وقواعده رمييه وأصوله وأجزائه التي يتألف منها وعمل كل جزء واستخدامه في الميادين وفي ساحات القتال التي تفرض عليه أن يتخذ أوضاعاً مناسبة لكل سلاح، على أن هذا التخصص

¹ المصدر نفسه ص252، الخطط للمقريري(489/2).

² الخطط(489/2) معركة عين جالوت ص252.

³ معركة عين جالوت ص252.

زاد من المعارف، وأكسب المدربين والمشرّبين الدقة والسرعة وأداء الحركات بكل إتقان وفضية عالية¹، وكان المدرب يتدرج حسب خبرته وتحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الأولى يكون فيها معلماً والثانية أستاذاً، والثالثة رئيساً، ولا يرقى من درجة إلى درجة أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الفحص وقدم شيئاً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية².

لقد دخل المماليك المعركة بعد إعداده وأخذ بالأسباب وحققوا نصراً ساحقاً على المغول، لقد اتخذ قادة المماليك مجموعة من الإجراءات والأعمال كان الهدف منها التأثير على القوات انغولية في عين جالوت وكان من أهم هذه الإجراءات:

● الرد الفوري على الإنذار :

● درج المغول خلال حروبهم السابقة على توجيه إنذار قتالي إلى زعيم البلاد أو قائدها بحمله مراسلون يتضمن الأعمال المتجيدة التي قام بها الجيش المغولي والبطش الذي استخدمه، والشدة التي عمل بها تلك الجيوش التي تصدت له، مذكراً ما حل بالمعادين من دمار وخراب ثم يدعوهم إلى الاستسلام والطاعة، فإن أبى الخصم ذلك ابتدأت المعركة على أيديها لا تبقى ولا تذر³، أما المماليك فقد كانوا يخشون لقاء المغول، ويتوجسون شراً من الاقتتال معهم، وقيل عين جالوت وصل رسول هولاءكو وسلموا الإنذار إلى السلطان قطز زعيم للبلاد، وفي هذا الإنذار من الوعد والوعيد وأهم ما يتضمنه الإستسلام، أو القتال، أو للجلاء عن البلاد⁴، إلا أن القيادة المملوكية

¹ المصدر نفسه صـ253.

² للمصدر نفسه صـ254.

³ المصدر نفسه صـ301.

⁴ معركة عين جالوت صـ302.

رنت على هذا الإنذار بقتل الرسل وإعلان الحرب والاستعداد للمجابهة¹:

● - مجلس الحرب:

● إنعقد مجلس للحرب في القوات المسلحة المملوكية مباشرة بعد الإنذار، ويتألف من السلطان القائد الأعلى رئيساً، وعضوية كل من أتايك العساكر وشيخ الإسلام وقضاة الإسلام وأمراء المشين، أي قادة التشكيلات المقاتلة وأعيان المشايخ، ومن مهمته انظر في مشروعية الحرب، وتعبئة الجنود، وإعلان النفير العام والتدريب، وتأمين الأسلحة والذخائر، وتحضير الأموال اللازمة وتعيين أمير اتجريدة العام والأمراء الذين بصحبته والذين يشكلون أركان الجيش وقادة التشكيلات²، ودارت المناقشة التي كان يرأسها قطز، وكان كل عضو يعبر عن رأيه بكل صراحة ووضوح، وكانت المناقشة جادة ومسؤولة، ولفرض المجلس على قرار تاريخي، وتحضير قتالي، وإستعداد مع هذا اللقاء الحاسم³.

● ومن الإجراءات التي تم العمل بها، التحضير والإعداد للحرب، تحشيد الناس، والتوجيهات العملية، وتقسيم المحاور القتالية والاهتمام بالطليعة والتحييد والحرص على التفوق الكمي والكيفي والإعتاء والإخفاء والتمويه، وإختيار مكان المعركة وزمانها، ومنطقة التمرکز، ومخادعة العدو ونصب للكمانن والمطاردة، والفضليل الإستراتيجي والمحافظة على المقاتل والتقليل من الخسائر، الترتيب القتالي، والتشكيلات للقتالية، والقتال الإستراتيجي

¹ للمصدر نفسه ص302.

² المصدر نفسه ص302.

³ المصدر نفسه ص303.

بالجيوش المتلاقية والبريد الحربي ووسائط الاتصال، ومراعاة
ميزان القوى، والتصميم للوصول للهدف، وتحقيق النصر السياسي
الذي بدوره يقود إلى النصر العسكري¹، وغير ذلك من الخطوات
المهمة التي ساهمت في تحقيق النصر.

6 . عبقرية التخطيط:

إشتهر قادة المماليك بالقدرة على التخطيط والتنفيذ، ومعرفة قوائين
الحرب و المبادئ التي تُعَبِّدُ نوراً هاماً لبلوغ النصر وإذا أمعنا النظر في
معركة عين جالوت بصورة خاصة والمعارك التي تلت بصورة عامة
لأدركنا تماماً أن قادة الجيش المملوكي كانوا يطبقون هذه المبادئ إلى أبعد
الحدود ولا سيما الظاهر بيبرس الذي إشتراك في هذه المعركة بالذات وفي
المعارك التي شهدها بنفسه فيما بعد:

أ . الاقتصاد في القوى:

لم يشأ قطز القائد الأعلى للجيش أن يشرك القوى جميعها في معركة
عين جالوت، ولكنه كان يقود القوى الرئيسية للجيش، وبيبرس كان يقود
الطليعة، وقد إشتبكت الطليعة - وهي جزء من الجيش - مع حامية غزة²،
كما إشتبكت القوة الرئيسية هذه مع الجيش المغولي، كما إشتبكت اليمين مع
ما يقبلها وكذلك الميسرة بأعداد تناسب القوة التي كانت تجاها³، وكان قطز
حريصاً كل الحرص على أن يوزع قواته بصورة تناسب مع القوات التي
تقاتل ضده من الجيش المغولي، فقد أفرز قوة للمجنبات وأخرى للالتفاف
القريب، وثالثة للبعيد، ورابعة للكمين، وخامسة لإعاقة وجذب قوى العدو⁴،

¹ المصدر نفسه ص 303 - 331.

² دائرة المعارف الإسلامية (4 - 363)، معركة عين جالوت ص 283.

³ معركة عين جالوت ص 283.

⁴ ذيل الترمذ اليونيني (1 - 361)، معركة عين جالوت ص 283.

وأما بيبرس فقد أظهر براعة حربية في الاقتصاد في القوى في هذه المعركة عندما قاد الطليعة وقائل وهو في طريقه إلى عين جالوت، ثم في الكمين الذي نصبه للمعركة¹، ثم في المطاردة التي كان فيها هذا المبدأ واضحاً كل الوضوح، إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور وعلى كل إتجاه سلكته القوات المهزومة من الجيش المغولي².

ب - تجميع وحشد الجيوش على الإتجاهات الرئيسية:

لما أراد الجيش المملوكي مقابلة الجيش المغولي في معركة عين جالوت جمع سيف الدين قطز الجيش المصري وأرسل إلى الجيش الشامي وحشد الإمكانيات المتاحة، وأرسل في القرى والمدن والبادية بحث الميليشيات الشعبية وائتقت هذه التشكيلات جميعاً في أمر المعركة وركزت الجهود الرئيسية نحو تجميع الجيش المملوكي الذي كان يتحرك بإتجاه مرج بن عامر، وسار بإتجاه الساحل بكثلة واحدة، فوحدة الجيش وقفاله ككتلة واحدة متماسكة يساعد الجيش على تحقيق النصر³ وهو ما قد تم في عين جالوت.

ج - الضغط على الأعداء:

كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش لقادة الجيش المغولي وثبتوا ثبوت انرواسي أمامه، وأمام كل عنجهيتهم وإنذارهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش للمغولي وخرقت جبهته، وتعبه للجيش المملوكي، ولم يفصل عنه أبداً حتى إذا أدركه وضع فيه السيف ولحقه إلى أطراف الشام والبادية⁴، وبدأ الضغط واضحاً في عدة أمور،

¹ معركة عين جالوت ص 283.

² المصدر نفسه ص 283.

³ المصدر نفسه ص 283.

⁴ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1 - 29)، معركة عين جالوت ص 285.

أهمها رفض الإنذار وقتل الرسل¹، والتفوق العددي الذي أوجس منه خيفة قائد الجيش المغولي وتردد كثيراً في طلب المند ليكون هناك توازن بين الجيشين²، وإجبار الجيش المغولي أن يفتح وأن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية³، والصمود القوي أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبانر قطرز إلى صدها، وأهم المواقف الصمودية هو الموقف الذي صمدت فيه الجبهة وبخاصة الميسرة الذي كاد أن يتداعى⁴، والهجوم الصاعق الذي أدى إلى قائد الجيش المغولي وقتله⁵، والمطاردة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط على الجيش المغولي الذي هرب ووطن بهروبته النجاة، ولكنه كان ملاحقاً كيف إتجه ومطارداً أينما سار⁶.

ج . تحقيق المفاجأة:

إن المفاجأة قد تمت في هذه المعركة بالإخفاء والتويه وبظهور أعداد قليلة من الجيش أمام القوات المغولية في الأراضي السهلية، إنما قوة الجيش الرئيسية فقد بقيت إلى الخلف وراء التلال والمسائر في مرج ابن عامر، وبصمود الجيش المملوكي وقاتاله الذي وضع كتيبا في حيرة وتشكيلة القتال الجديدة/، وينصب الكمان، وبث الدوريات أمام تقدم القوات المغولية، وبالتطويق الكامل، وبالصمود أمام هجمات المغوليين المتتالية، بقيت المطاردة التي لم تنته إلا بقتل وتشريد المنهزمين ولبانهم، وبالشدّة والنتكيل

¹ جامع التواريخ (2 - 313)، معركة عين جالوت ص285.

² بذائع الزهور في وقتع الدهور (1 - 305)، معركة عين جالوت ص285.

³ معركة عين جالوت ص285.

⁴ استنوك والمعرفة تفلأ عن معركة عين جالوت ص285.

⁵ النجوم الزاهرة (7 - 79)، معركة عين جالوت ص285.

⁶ جامع التواريخ (2 - 316)، معركة عين جالوت ص286.

والقسوة والحزم والبطش الذي لم يكن يتوقعه المغول أبداً، هذه المفاجأة مكنت الجيش المملوكي من تحقيق النصر¹.

س - وضوح الهدف:

كان قتل القائد الأعلى للجيش واضح الهدف، إذ أعلن القضاء على الجيش المغولي وتدميره والانتصار عليه منذ أن أعلن الحرب وقتل الرمل²، هذا هو الهدف النهائي الذي سبقه أهداف مرحلية كالتهيؤ لهذا القتال، واستخدام اترجال والأسلحة التي تستطيع أن تقضي على العدو وجمع الأموال³ والاتفاق مع الصليبيين في عكا على الإلتزام جنب الحياد⁴.

ش - المناورة بالقوى والوسائط:

وزع قائد الجيش المملوكي القوى والوسائط قبل بدء القتال، وأنتأزه ظهرت ضعف الميسرة، فنقل القوى والوسائط إليها وقواها، وهنا ظهرت عبقرية هذا القائد عندما نقل بعض المجموعات القتالية وسد الثغرة التي أحدثها الجيش المغولي، كما استنّاع أن يقود الإحتياطي الموضوع تحت تصرفه ويناور به ليصل إلى قبالة هذا الخرق فيتصدى للقوات المغولية فيوقها⁵، كما قام بدور مهم عند نقل بعض القطعات من المجنبات لتقوم مع النسق اللثاني بالهجوم المعاكس، وفعلاً كانت السرعة مذهلة في المناورة عندما تحرك هؤلاء الجنود وقاموا جميعاً بهجوم مضاد وقضى على الوحدات والقطعات المغولية التي تمزيت خارقة دفاع الجيش المملوكي؛ وقد ظهرت هذه البراعة أيضاً عندما تلقى قائد الجيش المملوكي معلومات عن

¹ معركة عين جالوت ص 286.

² معركة عين جالوت ص 287.

³ أعلام النبلاء بتاريخ حلب لشهباء (2/ 290 - 291).

⁴ معركة عين جالوت ص 287.

⁵ النجوم الزاهرة (7 - 79)، معركة عين جالوت ص 288.

قوة العدو وضعفه وأماكن تركز قوته، فناور بقواته وأعاد تشكيلها، بما يتلاءم مع هذه المعلومات الجديدة¹.

ع - السرعة في الأعمال القتالية:

تجاوب القائد الأعلى للجيش المملوكي بمجرد سماعه التهديد المغولي وأعلن التعبئة وعقد مجلس الحرب واتخذ إجراءات تحضيرية سريعة، فتحركت القوات مستجيبة لهذا النداء الجهادي لملاقاة العدو وسبقه إلى أرض المعركة المناسبة قبل أن يتحرك الجيش المغولي فيهاجم النهار المصرية، ويغزو المماليك في عقر دارهم، ومن الأهمية بسكان أن تذكر دور قائد الطليعة وسرعته، والتقويت على قائد ((الجيش المغولي بينرا)) كل مبادرة مما أتاح لبيبرس أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة قرب غزة من جراء السرعة التي قام بها رئيس أركان الجيش المملوكي².

ص - المخابرات العسكرية.

يث قفز العيون واعتمد على الأهالي الذين كانوا يتجاوبون مع طلبات الجيش على حد من المغول وتصرفاتهم، ولهذا فإن المعلومات كانت تصل تباعاً إلى هيئة أركان الجيش المملوكي، في حين أن الجيش المغولي لم يعتمد كثيراً على الاستطلاع، بل اعتمد على قواته وشنته في الحروب ولم يأبه لما يجري حوله، ولم يرقم بإجراءات كشف العملاء والجواسيس الذين كانوا يدخلون معسكراته، يأخذون منها الأخبار ويوصلونها إلى المماليك³، وبالإضافة إلى ذلك فإن بيبرس عندما اصطدم بحامية غزة المغولية استطاع أن يتلقى أخباراً صحيحة عن قوة الجيش المغولي

¹ معركة عين جالوت ص 288.

² المصدر نفسه ص 288.

³ معركة عين جالوت ص 289، للمغول للمريني ص 259.

وتحركاته واسلحته وقادته¹، وكذلك فإن قادة الجيش المملوكي أرسلوا حراسات متقدمة عبارة عن مخافز، تصفت وإنذار من مهامها نقل المعلومات عن الاتساق وعن تحركات الجيش المغولي²، وكان من مصانير الاستخبارات المملوكية، عمال البريد الذين كانوا يكفون بمهام مخبرانية بالإضافة إلى نقل البريد الحربي؛ إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته ومعرفة البؤر والجهات الخطرة من الداخل والتحرري من الاعمال الهدامة، أو الأشخاص الذين يقومون بدور العمالة وانتجس على القوات الصديقة وكان يطلق على رئيس هذا الجهاز ((صاحب الخبر والتحرري)) الذي كان له خبرة واختصاص³، إن للاستخبارات دوراً كبيراً في الحروب الماضية والحاضرة في إحراز النصر، ولقد كانت الأسباب الصحيحة التي تلقاها قادة الجيش المملوكي وبناو فرارهم على هذه معلومات صحيحة فكان القرار سليماً والنصر محققاً⁴.

7 - بعد نظر سيف الدين قطز وسياسته الحكيمة:

شعر قطز قبل أن يستلم السلطنة بالخطر على دولة المماليك وبخاصة من قبل المغول الذين دخلوا البلاد واكثروا فيها القتل والعذاب، ولايد له إزاء هذا الخطر أن يتخذ عدة إجراءات مياسية تضمن له النصر على أعدائه الذين لم يلبثوا إلا أياماً معدودات أو شهر حتى يتوجه الجيش المغولي إلى أراضي الشام ومصر، وبدأ التفكك الداخلي والضحاً عند استلام المماليك الأتراك، إذ حكمت امرأة ولم يوافق الخليفة في بغداد على سلطنتها، وتزوجت فيما بعد من عز الدين أيبك لتحصل على الاعتراف بالخليفة،

¹ تاريخ ابن الوردي (2 - 293)، معركة عين جالوت ص 290.

² ذيل مرآة الزمان (1 - 366)، معركة عين جالوت ص 290.

³ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ص 38.

⁴ معركة عين جالوت ص 291.

واحتدم الصراع بينها وبين زوجها أدى إلى قتلها، واستلم الحكم علي بن أيك وهو غير قادر على إدارة الحكم لصغر سنه، ولما كان قَطْرُ هو نائب السلطان والوصي على الصبي وهو يعنى أنه قادم على معركة فاصلة، أراد لكي تتاح الحرية السياسية والتصرف بالأمور العسكرية والسياسية، أن يتخلص من السلطان الصغير، فاستلم الحكم وهذا إجراء سياسي داخلي، اتخذ هذا السلطان بعد أن استلم البلاد وهو مهم بالنسبة للمعركة القادمة، فقد هرب بعض أمراء المماليك البحرية إلى الملك المغيث صاحب الكرك لما رأوا أنهم لا يستطيعون أن يؤثرن على المسيرة التي انتهجها قَطْرُ لإصلاح البلاد وتحضيرها، هربوا لكي يجدوا الحليف ضد هذا القائد، وحاولوا القتال وزحفوا نحو مصر في سنة 655هـ / 1257م، لكن قَطْرُ تصدى لهذه المؤامرة وتغلب على الأمراء وأوقع فيهم القتل وردهم على أعقابهم¹، ولم يمكنهم أبداً من العبث بأمن الدولة وقدرتها وتصديها للعدو المرتقب، للمغولي، وظل صامداً يتبع توجيه السياسة وأصلاح البلاد وتخليصها من الفتن والاضطرابات وتوحيد جبهتها الداخلية، حتى إذا اقتربت معركة عين جالوت وازداد الخطر رأى أنه من المناسب إعادة الصفاء بينه وبين الأمراء الهاربين الذين حاربوه لتجتمع الكلمة وليستفيد من خبرتهم في الحروب وفي قيادة الجيوش²، وهكذا كان الإجماع الداخلي على للتصدي للعدو للمغولي وتوج هذا الإجماع بقرار مجلس الحرب وبحضور جميع الساسة في البلاد، وتحققت الوحدة الداخلية³، وبعد ذلك إهتم بالوضع السياسي الخارجي وعمل على تحييد الصليبيين وعقد معاهدة صلح معهم واستفاد من المرور بأراضيهم، ولم يقاتل على جبهتين، وقابل المغول في عين جالوت وانتصر

¹ للنجوم الزاهرة (7 - 46، 45)، معركة عين جالوت ص 332.

² تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ص 264.

³ معركة عين جالوت ص 332.

عليهم، وإستمرت الأعمال السياسية والإدارية بعد المعركة: فقد أرسل قطن رسالاً إلى بعض الدول يخبرهم فيها عن إنتصاره، كما أعلن ذلك على الشعب في مصر والشام وبذلك ثبت دعائم الأمن والاستقرار السياسي، كما نظم البلاد من الناحية الإدارية، وعين النواب وبسط نفوذه على كل البلاد التي كان يحتلها المغول في الشام¹. وهذا دليل على بعد نظره وحكمته السياسية.

8. توفر صفات الطائفة المنصورة:

لم يظهر سيف الدين قطن من فراغ وإنما سبقته جهود علمية وتربوية على أصول منهج أهل السنة والجماعة، وأصبح ذلك الجيل الذي أكرمه الله بالنصر في معركتي عين جالوت تنطبق فيه كثيراً من صفات طائفة المنصورة والتي من أهمها:

أ. أنها على الحق:

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق وإتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما إستحققت الذكر والنصح وتمسكها بالحق، حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي إستمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

— الاستقامة في الإعتقاد وملازمة ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مجانية البدع وأهلها فهم أصحاب السنة.

— الاستقامة في الهدى والسلوك الظاهر والباطن والسلامة من أمعاب الفسق والريبة والشهوة المحرمة،

— الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال والأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وإقامة الحق على العاملين.

¹ تاريخ مصر، أسكندر صمون صـ196، معركة عين جالوت صـ333.

ب . أنها قائمة بأمر الله:

وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، وقد قامت دولة سيف الدين قطز بأمر الله، من الإعداد، والتخطيط، والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

ج . أنها تقوم بواجب الجهاد في سبيل الله:

والطائفة المنصورة جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنه (يقاتلون على الحق)¹، أو يقاتلون على أمر الله²، وكان سيف الدين قطز وجيشه قاموا بالجهاد الشرعي في سبيل الله وقتل أعداء الله من الكفار وغيرهم³، وتحقق نصر الله لهم في معركة عين جالوت.

د . أنها صابرة:

فقد خص الله الطائفة المنصورة بالصبر، وقد رأيت كيف تسليح سيف الدين قطز وجنوده بالصبر الجميل في جهادهم ولم تستضع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء للقوم بأنهم: لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم، ولا يبالغون من خالفهم⁴. وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخزئين ولا تكنيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين⁵، وهذه الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة، قد إنطبقت على جيش سيف

¹ سنن أبي داود، ك الجهاد رقم 2484.

² مسلم رقم 176، الضربات التي وجهت للإنتضاخ على الأمة الجندی صـ113.

³ تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين صـ473.

⁴ رواه سعيد بن منصور، ك الجهاد رقم 2376 وله طرق تقوية.

⁵ صفة الغرباء، سلمان العودة صـ205.

الدين قطز والمماليك الذين حققوا النصر في معركة عين جالوت، إن الانتساب إلى الطائفة المنصورة ليس شعاراً ولا هو دعوة وإنما هو تحقيق وعمل وتحقيق للصفات الشرعية لهم، وعمل بالواجبات الشرعية عليهم، فمن حقق الصفات وقام بالواجبات كان من الطائفة المنصورة ولو كان وحده¹، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص" (النصف، آيات : 2 - 4).

9 . سنة التدرج ووراثة المشروع المقاوم:

قدم أمراء السلاجقة الكثير من أجل: نحر الصليبيين، وقد حقق عماد الدين زنكي إنجازاً عظيماً بوضعه لمشروع رائد - ربما رأى الكثيرون في تلك الوقت - إستجالة تحقيقه على بساطته، وهو مشروعه الوحدوي التحرري والذي حقق إبنه نور الدين جزئه الأول، وحقق صلاح الدين قسماً مهماً من جزئه الثاني، ولذلك نرى إنتصار صلاح الدين في حطين نتويجاً لمشروع عماد الدين الوحدوي التحرري، فلو لا الله ثم متابعة نور الدين لخطا والده في توحيد الشام ثم توحيد مصر مع الشام، لما تحقق هذا النصر²، الذي تم بفضل الله ثم جهود التوحيد التي قامت على عقيدة الإسلام الصحيحة التي تدعو للوحدة الإسلامية التي لا تفرق بين جنس أو لون، أو طائفة، وإنما جمعهم الأخوة في الله والتي لم تفرق بين الأتراك والأكراد والعرب والفرس ولا غيرها من الأمم التي انضوت تحت راية الإسلام، قال الشاعر:

¹ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان ص 65.

² العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (2 - 375).

وننت أدري سوى الإسلام لي وطناً

الشام فيه وادي النيل سين

وإنما ذكر إسم الله في بك

عدت أرجاه من لب أوطاني

ولقد تقاضت العوامل التي ساعدت على الوحدة في عهد صلاح
الدين مع الزمن والثوقت، وخضعت لسنة للتدرج وأعطت ثمارها في معركة
حطين وتوجت بفتح بيت المقدس، وأصبح المؤمنون فيتراحمهم وتراحمهم
وتعاضفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو اتاعى له سائر الجسد بالنسهر
وإنحمى¹؛ وعلى الرغم من انجهد الكبيرة التي بذلتها تغزاة من أجل تزريق
أرجاء انعالم الإسلامي، فقد نجحوا في تقطيع أراضي انمسلمين، ولكنهم لم
ينجحوا في تمزيق قلوبهم، وظل المسلم محب لأخيه المسلم، ولسان حال كل
منهم² يقول:

أبا سليمان قنبي لا يطاوعني

على تجاهل أحيابي وأخواني

إذا يشتكى مسلم في الهدد أرقني

وإن بكى مسلم في الصين أبكاني

ومصر ربحاني والشام نرجستي

وفي الجزيرة تاريخي وعواني

أرى بخارى بلادي وهي نائية

وإستريح إني ذكرى خراسان

فإنما ذكر إسم الله في بلد

عدت ذاك الحمى من صلب أوطان

¹ الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم ص23.

² المصدر نفسه.

شريعة الله لمت شملنا وبننت

لنا معالم إحسن وإيمان¹

الادب والفنون في عهد المماليك

العصر المملوكي كان مفصليا في نشأة فن الزجل على اللسان العامي المصري، ويرم التونسي لوصله الى القمة كان لنشر كتاب 'دار الطراز' للشاعر 'ابن سناء المنك' في القرن العاشر الميلادي بمصر، أثره اتفاعل في الساحة الإبداعية بمصر في حينه. فقد تناول تاريخ الموشحات الأندلسية وحلل خصائصها وتراكيبها ونماذجها. سرعان ما تفاعلت القريحة المصرية، وتفاعلت مع تلك الموشحات، نظرا لسهولتها وبساطتها تراكيبها، فتفاعلت معها اللهجة المصرية، والعزاج المصري المرتكن إلى الشجن.

توقف الدارسون طويلا أمام تلك الظاهرة، وخرج كتاب 'الزجل الأندلسي' للدكتور عبد العزيز الأهواني، وكتاب 'فنون أندلسية في الأدب العامي المملوكي' للدكتور مجدي محمد شمس الدين. وقد خلاص إلى أن 'الزجل' وليد 'الموشحات'، ثم راج وتطور حتى قمته على يد بيرم التونسي، بل ولد الشعر العامي المصري (الآن) من نسجه، ووصل إلى منجزه المتميز على يد فؤاد حداد، صلاح جاهين، والأبنودي.

المتأمل للأدب العامي أو المكتوب باللهجة المصرية في العصر المملوكي، يلحظ أنه مختلف عما كتب قبله. ذلك لأن الأدب العامي في مصر تأثر بنظن الأندلسي، فكانت قصيدة 'البليغة' أو هي الزجل الآن، كما أطالوا النظم في الموشح (على العكس من شكل الموشح الأندلسي للتقليدي) حتى بلغ 'ابن مكاس' أن كتب موشحا في واحد وخمسين بيتا. بينما فعلوا العكس في 'البلايق' أو الأزجال.. بينما أطال أهل الأندلس في الأزجال

¹ الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان ص7.

وكتب "ابن قزمان" في زجل له اثنين وأربعين بيتاً.

لم يكن تفاعل المصريين مع المنتج الأندلسي، تقليداً أو نقلاً، بل أضافوا من روحهم وسماتهم الخاصة.. سواء في انقلاب، والمحتوى بإضافة روح الفكاهة والمرح.

وقد أضاف د.مجدى شمس الدين في كتابه، أن إضلاع المصريين ربما عن رافد عراقي وتواشيحه، ربما لكونها أيسر على المصريين من الانتقال إلى بلاد الأندلس. كما رصد الكاتب إعجاب 'ابن خلدون' و'صفي الدين التلي' بإبداع المصريين خلال تلك الفترة، بما تميز به "الأدب العامي" شكلاً وموضوعاً.

لقد عرفت الثقافة العربية لغة أدبية عاسية أدبية يستخدمها العوام من الناس، ونعنة فصحي وهي لغة الخاصة من الألباء والمثقفين. وقد أورد 'ابن عبد ربه' في كتابه 'العقد الفريد'، في القرن السابع الهجري، بعض النماذج على تلك الازدواجية، كما في الأمثال الشعبية. الدلالة واحدة، إلا أن العامة ينطقونها بنعنة غير الخاصة.

مثال: قول العامة "كذب طواف حير من أسد رايض"، ويقول الخاصة "لا يفترس اللبث الأنبي وهو الرايض".

ويروي "ابن الجوزي" أنه عندما قتل المسترشد في 529هجرية، خرج الرجال حفاة، وانشاء منشرات شعورهن، وهن يلظمن ويغنين بالعامية غناء من نمط غناء البغداديات في مثل هذه المناسبات:

يا صاحب القضيب ونور الخاتم

... صار الحريم بعد قتلك مأتم

اهتزت الدنيا ومن عليها

... بعد أنتي ومن ولى عليها

وجد الأدب العامي المعارض والمؤيد، خلال تلك الفترة، وربما حتى اليوم. ومع ذلك وجد من حاول التقريب بينهما، وهي دعوة أبو هلال

العسكري - ت395 هجرية، فيقول: "أما انجزل المختار من كلام العرب فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاورتها، وقد أورد مثالا من أشعار 'مرار النععي' يقول: "فظل بدير الموت في مرجحته... تشف العوالي وسطها وتسول

وكائن تركنا من كرايم معشر... لهن على أبائهن عوزل'
ثم علق قائلا: فهذا وإن لم يكن من كلام العامة، فإنهم يعرفون الغرض فيه، ويقفون على أكثر معانيه، لحسن ترتيبه، وجودة نسجه".
كما أشاد 'ابن عبد ربه' (القرن الرابع الهجري) بنوع من الشعر أسماه 'سجع القريض' وهو ما نطلق عليه الآن بالشعر الغنائي، فهو ما يكتب كي يلحن ويغنى، وقد سيطر عليه اللحن والموسيقى حتى خرج على الأوزان التقليدية.

وقد لاحظ المتابع أن تلك الدعوات المزيدة للنظم باللغة العامية، توافقت مع ذبوع وانتشار كتاب "إلف ليلة وليلة"، مما شجع أيضا النظم باللغة العامية، حيث غلبت العمية على لغة كتاب إلف ليلة.

أما وقد اتسعت الدولة الإسلامية، فزاد اللحن والنعنة بين العامة، فأصبحت اللغة الملحونة بمعزل عن اللغة الفصحى، وكان القرن الخامس الهجري، حتى نشأ الاضطراب في كلام أعرب الجزيرة، واستولت العامية على السن الغالبية. بينما أضحت الفصحى هي لغة العلماء في مدارسهم، والأدباء في نواحيهم، وبعض الأمراء في دواوينهم.

حتى كان القرن السادس الهجري، وتطور فن الزجل على يد 'ابن قزمان'.. وتميز الشاعر بأن قدم لأزجاله، وعرض الأسس والقواعد الواجب مراعاتها في كتابة الزجل.. منها: اللحن والتجرد من الأعراب (قال إن الأعراب أفصح ما يكون في الزجل، وأقل من إقبال الأجل!).. ثم أضاف خصائص عامة نه مثل السهولة والبعد عن التعقيد والمصطلحات..

وفي القرن نفسه (الساسن) نشر كتاب 'دار الطراز' الذي قدم

"الموشح" لابن سناء وغيره، وأيضاً بمقدمة هامة عن الموشح. وقوبل بانفرض من المحافظين، كما قوبل ابن قزمان.

نعل ما انتهى إليه البحث الأدبي: أن الأدب العامي راج في العصر المملوكي وأصبح له مكانته، وإن لم يجد اتفاقاً كاملاً بالقبول بين النقاد. أهم مميزاته.. له خصائصه الفنية المميزة له، مثل الصياغة بالعامية، كما أنه لفتح قولب الإبداع اللفظي في حينه من شعر وأمثال شعبية وأغاني وغيرها، بل والنثر القصصي. ثم أنه متحرر من قواعد النحو والإعراب، ومن عمود الشعر (وحدة الوزن، رتبة القافية، الخروج على انبحور التقيدية).

أن الأصل في الأدب العامي.. البساطة والسهولة، وكذا خصوصية الألفاظ أي المفردات وتركيبها أيضاً. كما أن الثروة اللغوية في الأدب العامي مصادرها: مفردات الفصحى المنحوتة، الأساليب المولدة من اللهجات المختلفة، الألفاظ الأجنبية، بالإضافة إلى ألفاظ الفصحى الصحيحة. وقال ابن خلدون: "تميز عند العوام الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر بفرائن الكلام لا بحركات الإعراب".

كما قال البعض: "أن العامية المصرية في تلك الفترة قاومت دخول المفردات الأجنبية، وإن لم تخل منها.. إلا أنها لم تسيطر عليها كما عند الأيرلنديين".

وقد انتهى البعض إلى أن الأدب العامي والفصحى لا يجتمعان على الدرجة نفسها من الرقي والتواجد.. لا بد أن يفسح أحدهما للآخر حتى يزوج وينشر.. وهو ما برر به رواج الأدب العامي في عصر المماليك. فقد شجع الحكام الأدباء والشعراء العاميين لسهولة فهم أعمالهم عن فصحاء الشعر والنثر.. فراج الأدب العامي.

ونطالع في مرحلة متأخرة من هذا العصر أسماء شعراء مثل البهاء زهير وابن مطروح، وهما من أصنق الشعراء تمثيلاً لروح العصر، إذ

اتسمت أشعارهما بالرفقة والعفوية، فضلاً عن تلك اللغة السهلة التي تقترب كثيراً من لغة انحياة الدارعة، إلى ما لدى البهاء زهير من نزوع إلى الغزل الذي، وإن لم يعبر عن معاناة حقيقية، يعكس روح الدعابة وحفة الظل لديه. كما نطالع شعر التصوف نعيم بن الفارض ونغيره من الشعراء، إذ كان الشعر الصوفي صدىً لتيار التصوف في هذا العصر.

وإذا كان الغزو الصليبي يشكل لهذا العصر أعمق الأحداث أثراً في حياة الناس، خاصة في ديار الشام ومصر، فمن البدهي أن يترك هذا الغزو تأثيره على الشعر، إذ راح الشعراء يعبرون عن أحزانهم بهزيمة أو أفراحهم بنصر، مع رثاء المدن أو مدح السلاطين من بني أيوب. ولكن ينبغي الاعتراف بأن الشعر العربي، لهذه الحقبة، كان من الضعف بحيث لا نجد شاعراً فحلاً في مستوى أبي تمام والمتنبي، وهما يعبران في قصائدهما انماسية عن حركة النضال ضد الروم.

النثر. أبرز أشكال النثر في هذا العصر الفن القصصي، وقد حقق تقدماً ملحوظاً، فلم يعد مجرد حكايات تراثية يرويها الأديب، ويحدث فيها بعض التعديل، بل ظهر القصص الابتكاري. وتعدّ مقامات بديع الزمان الهمداني وتلميذه الحريري أوضح نماذج القصص الابتكاري الواقعي، ممزوجاً بصنع تعليمي يتسلل فيما حوته المقامات من ألفاظ اللغة والألغاز والثروة البلاغية والنقدية

وإذا كان أدباء المتصوفة شذكوا في هذا العصر بأشعارهم، فقد شاركوا أيضاً بكتاباتهم التي تمثلت في تلك الابتهالات التي نجدها لدى أمثال أبي الحسن الشاذلي وتلميذه ابن عطاء الله السكندري

وإلى جانب القصص الشعبي عرف هذا العصر فننثر الفكاهي الذي دار حول النقد الاجتماعي للعدالت والتقاليد والنقد السياسي لممارسات بعض الحكام. وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش نموذج لهذا اللون من القصص الفكاهي، الساخر من قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي ونائبه بمصر إبان

الحروب الصليبية. فقد كان الرجل جاداً ملتزماً في عمله إلى حد القسوة أحياناً، مما جعل ابن ممتلي يحمل عليه ويصوره. في هذا الكتاب، بصورة ساهرة مبالغ فيها.

النقد الأدبي. ازدهر النقد الأدبي ازدهاراً كبيراً في هذا العصر منتقياً بما سبق من جهود النقاد. وأهم النقاد في هذا العصر أبو هلال العسكري والقاضي الجرجاني والأمدي، وابن رشيق القيرواني وابن الأثير. وإذا كان أبو هلال العسكري يمثل الاتجاه النظري في النقد، متأثراً بشيخه قدامة بن جعفر، فإن القاضي الجرجاني في الوساطة، والأمدي في الموازنة، يمثلان الاتجاه التطبيقي في النقد الأدبي.

أما كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، فيعد أشمل مؤلف في دراسة الشعر، إذ لا يقتصر على النقد بل يتجاوز إلى البلاغة وبعض انتقادات للتراثية التي تعد، بحق، مفتاحاً لدراسة الشعر العربي القديم، وبخاصة الجاهلي.

كما أن كتاب المثل السائر في أدب الشعراء واثار نصيائه لدين بن الأثير يعد نموذجاً للنقد الأدبي الذي يجمع بين الشعر والنثر.

من سقوط بغداد (656هـ) إلى مطلع العصر الحديث

وهو ما عرف في تاريخ الألب بعصر الانحطاط، وهي تسمية جائرة. فقد واجهت الأمة الإسلامية في هذا العصر موجات ثلاثاً من الغزو: موجة الغزو الصليبي، وموجة الغزو المغولي الأولى بقيادة هولاكو، التي أسقطت بغداد، ثم بدأت تعد العدة لغزو مصر والشام لولا هزيمتها في عين جالوت؛ والموجة الثالثة هي موجة الغزو المغولي الثانية، وقاندها تيمورلنك من سلالة جنكيزخان، الذي مضى يخرّب غالب مدن العراق، كما خرب حلب وأحرق دمشق. وقد كان لهذه الموجات الثلاث صداهاابعيد في الأدب شعره ونثره.

ظل للمالوك في مصر دولة حاكمة من سنة 648هـ، 1250م

إلى الفتح العثماني عام 922هـ، 1516م. وكان للمالِك جولات عظيمة في الجهاد، كما لُقِّطِر والظاهر بيبرس في معركة عين جالوت، فضلاً عن بطولات الظاهر بيبرس في حرب الصليبيين، وكذا بطولات خلفائه من بعده، كما شهد العصر المملوكي ازدهاراً في إنشاء ائمذازم وتأليف الموسوعات وازدهاراً في العلوم والفن للمعماري، بينما ضعفت الأدب شعراً ونثراً.

ثم كانت الخلافة العثمانية منذ عام 922هـ، 1516م وزوال دولة المماليك بمصر إلى العصر الحديث، مع نهاية القرن الثاني عشر ومطامع القرن الثالث عشر الهجري، وانبثاق النهضة الفكرية والأدبية في العالم العربي على تفاوت - في ذلك - بين أقطاره المختلفة. أما الأدب خلال تلك انحقبة فكان من أبرز معالمه ظهور تيارين: الأول، تيار الأدب الديني والثاني، تيار الأدب الشعبي.

أما في تيار الأدب اتيني، فقد ازدهرت المذائج النبوية، موصولةً بجنورها في صدر الإسلام، ومع تيار المذائج النبوية يظهر أيضاً تيار الشعر الصوفي المنتثر بالتصوف انفلسفي على طريقة ابن عربي وابن الفارض، وممن يمثل هذا التيار عبد الغني النابلسي (ت 1143هـ).

وفي النثر تطالعنا حكم ابن عشاء الله للسكندري (ت 709 هـ) متأثرة هي الأخرى بالتصوف، كما تطالعنا كتب ابن تيمية ورسائله، وكتب تلميذه ابن قيم الجوزية، وهي تمثل التيار السلفي للأدب الإسلامي في هذا العصر. وكان من اليديهي أن يعكس كل من الأقبين، الصوفي والسلفي، حركة الصراع بين هذين الاتجاهين.

أما في تيار الأدب الشعبي فقد فتشرت أشكال شعبية كالزجل الذي اتخذ من الدارجة لغة له. ويبدو أن انشغال المشاركة بفن الزجل وتشقيقهم منه أشكالاً متعددة التلاوين، كل ذلك قد لفت انتباه ابن سعيد المغربي الأندلسي في رحلته إلى المشرق، فراح يسجل ألواناً منه في كتابه المشرق في حلي أهل المشرق. وستوقفنا في هذا العصر شخصية ابن سودون الذي

عده الباحثون أهم شخصية شعبية في القرن التاسع الهجري، وله كتاب بعنوان نزهة أنفوس ومضحك العيوس، جعله في خمسة أبواب، الباب الأول في اقتصاد والتصاديق، أي المقدمات، وهي قصائد بانفصاحي لم تخلُ من اللفظ العلمي يموقه لفاكاهة، والباب الثاني، في الحكايات البيداء الملائيق، والثالث في الموشحات الهبالية، كتبها بالعامية، والرابع في أنزل والموليا، والخامس في الطُرف العجيبة والتحف الغريبة. واللافت للنظر أن اشعر انفصيح نفسه عند ابن سودون مثير للضحك بمعانيه وصوره، وبعض ما تخلت لغته الفصيحة من تعابير عاسية.

أما النثر فقلعه فوق الشعر أو ساواه في طابعه الشعبي، فما زالت سيرة عنزة شائعة سبارة بين الطبقات الشعبية في أسماهم ومحافظهم ومن صور النثر الشعبي في هذه الحقبة كتاب عنولته: هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف لمؤلفه يوسف الشرييني، وهو لون من النثر الشعبي الساخر يتناول واقع الريف المصري في هذه الحقبة بما تخلله من جهل وفقر.

وبينما يكون نثر السيرة الشعبية بطوليا خيالياً كان هز القحوف وأمثاله فكاهاً واقعيًا.

تناولت هذه العجالة أبرز تيارين أدبيين في الشعر والنثر، ولكن ذلك لا يعني اقتصار الأدب عليهما، فإلى جانب تيار الشعر انديني والشعبي، عرف الأدب سائر الأغراض التقليدية للشعر، وبخاصة شعر الحماسة، الذي عبر عن وجدان الإنسان العربي ومشاعره تجاه الأحداث أنجسام ممثلة في تيارات الحروب الصليبية والغزو المغولي. ولكن الشعر العربي لم يستطع، لضغفه، أن ينهض بعبء التعبير عن هذه الأحداث، كما أن النثر التقليدي ظل موجوداً إلى جانب النثر الشعبي، إذ ظلت الخطابة والمقامة والرسالة قائمة في هذا العصر في لغة مسجوعة مصنوعة.

ولكن ينبغي أن نشير هنا - ونحن بصدد الحديث عن النثر، إلى

حقيقتين مهمتين: الأولى: ازدهار فنّي السيرة الذاتية والرحلة،
والثانية: أن كتب التاريخ والجغرافيا لم تخلّ مواضع منها من النثر
الإبداعي الوصفي الذي ينبض بالتجربة وقوة التأثير وجمال الصياغة، مما
يدخلها في صميم النثر الإبداعي. وتعدّ هذه المواضع مع ما نكرناه من كتب
السيرة الذاتية والرحلة، نقاط ضوءٍ ساطع في نثر هذا العصر الذي خيّم
عليه الصنعة والضعف.

الحركة التعليمية في مصر في العصور الوسطى المدرس بكلية اللغة العربية

إن مشكلة التعليم في العصر الحديث من أهم المشاكل التي يعانيها المجتمع المصري، اختلفت فيها الآراء، و اختلفت المذاهب، و تعابرت الفرائد.

و كلما أراد قوم أن يقيموا الدليل على خطأ الآخرين، و فساد ما يذهبون إليه رموهم بأنهم يعيشون بعقول أهل القرون الوسطى، و أنهم يصدرون عن مواردهم و ينظرون إلى الشعب كما كان ينظر إليه و لا ته حينذاك.

فإذا كانوا يعنون بأهل العصور الوسطى، تلك الدول التي حكمت مصر في العصور المذكورة، و هي الفاضمية و الأيوبية و المملوكية؛ فإني أعتقد أن في ذلك تجنياً كبيراً على أهل تلك العصور، و غمطاً لجهودهم في سبيل العلم و التعليم، و إنكاراً لما سجله لهم التاريخ من حسنات و أجاد ببيض، و حفظوا بها سلسلة العلم موصولة الحلقات، متتابعة الخطوات.

و حقاً إن بيننا و بينهم فرارق جلية، في انظر إلى التعليم، أوحى بها منطق العصر، و سياق الحوادث، و نظم الدنونة، فلم تكن هناك — مثلاً — سياسة تعليمية عامة يدعوا إليها الشعب، و ينفذها أولو الأمر، و لم تكن الحكومات تقوم بما تقوم به من التعليم، إلا على أنه منحة تمنحها الشعب، و صدقة تتصدق بها عليه، لا على أنه حق من حقوقه يؤدى إليه.

على أن هذه الاعتبارات، على وجاهتها و أهميتها، شكلية، بالنسبة إلى جوهر التعليم، ذلك التعليم الذي كانت سبله ميسرة، و طرفه مجبدة، و أبوابه مفتحة، تشيد له الدور، و ترد عليها الأموال، و ترضد الأوقاف، و يذئق في اختيار أسانئتها، و يوصى بطلابها.

و ما خبر الأزهر عفا ببعيد، فقد أسسه الفاطميون، حين أسسوا قاهرتهم المجيدة؛ و جعلوا منه منزلة للعلم، و مثابة للطلاب، و لا يطعن فيه أنهم اتخذوه منبرا عما و مركزا هاما، للدعاية الشيعية، فالمذهب الشيعي — و إن لم يلتزم مع ما عليه جمهور المسلمين في مصر — لا ينبغي أن ننظر إليه كل هذا النظر الثزر، بل علينا أن ندرسه، و نفهم كنهه، و نسير غوره، و نكشف عن مكنون فلسفته، فاذا وصلنا إلى ذلك، بداننا أنه ذو منات بالفكر و ثيق، و أنه لون من ألوان العلم، و أن دراسته في الأزهر حينذاك، و إقامة داعي الدعاة للتبشير به، و استدراج العقول إليه، كان إحدى النزعات العلمية في ذلك الحين، و إن تأبى عليه جمهور المصريين، و لا مبانعة إذا اعتبرناه المنهج التعليمي أو السياسة التعليمية التي أخذ ملوك الفاطميين أنفسهم بنشرها في البلاد.

ولا ننسى أن الدول العربية — أو الإسلامية — التي قامت في تلك العصور اتخذت من الدين دعامة كبرى تؤسس عليها، و تستند إليها، متوخية في كثير من محاولاتها، النزوع البني، والاتجاه الاعتقادي، لدى شعوبها و رعاياها، و لهذا كانت مغامرة كبرى من ملوك الفاطميين أن يحاولوا تشييع مصر، تلك البلاد التي كان مركز الشافعية بها و طيدا، و كانت مهجرا و مشوى لإمامها الجليل، حتى و فرقى نفوس كثير من الشافعية أن البلاد بلادهم، و أنهم حكامها، و أنه لا بقاء فيها لحاكم غير شافعي، فكانت مغامرة جريئة لاقت مناهضات كثيرة و مقاومات عدة

و كان صلاح الدين الأيوبي أنجح منهم سياسة و أتقب بصرا، إذ أنه سنك إلى استقامة ملكه مسالك عدة. فأقبل على تأييد مذهب الشافعية؛ و التمكين له؛ و إيذة أشر الفاطميين العلمية؛ و تلك نكبة بلا ريب يشعر بها كل حريص على نزاهة البحث العلمي — أيا كانت فكرته المذهبية —. غير أن صلاح الدين قدم لشعب و للمسلمين من الحسنات، ماقد يكفر عن هذه الزنة

(206)

و قد أسس في القاهرة عداد من المدارس لنشر التعليم الديني، و دراسة المذاهب الأربعة، منها: المدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعي، و نصب فيها عتداً من المدرسين و المصنرين، و المدرسة القمحية بجوار جامع عمر بن ناعص، و كانت مخصصة لفقهاء المالكية، و المدرسة السيوفية بجوار سوق السيوقيين، و كانت مخصصة للأحناف، و غير ذلك.

و اقتدى بصلاح الدين وزيره القاضي الفاضل عبد الرحيم الليماني، فأنشأ المدرسة الفاضلية للقراءات و فقه الشافعية و المالكية، و اقتد به أيضا ملوك دولته من بعد مثل الملك العادل فقد أنشأ مدرسة عرفت بمدرسة ابن شس، نسبة إلى القاضي نقى الدين بنه شاس أحد مدرسيها، و كانت للمالكية، و مثل المنك الصالح نجم الدين أوب فقد أنشأ مدرسة الصالحية، بين القصرين، و كانت تتكون من أربع مدارس لكل مذهب مدرسة، و قيل إنها أول مدرسة أنشئت على هذا النمط.

و قد اتبع بملاطين الدولة المملوكية هذه السياسة في نشر العلم، فكانوا يقيمون المدارس و يحتفلون بإفتتاحها، و يزدونها بأمكيات النافعة الزاخرة بصنوف الكتب و نفائسها، و يقفون عليها الأوقاف، و يحسنون في اختيار شيوخها، و ييسرون سبيل التعليم بها للطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم. و يجرون على هؤلاء و هؤلاء الأجور و المنح، و لا يفتأون يتوددون إليهم زلفى و تقربا إلى الله، أو حبا للظهور.

و طبعى أن تكون العلوم الدينية صاحبة الخطوة الموفورة بين مواد انتراسة فانه حتى التصوف أنشئوا له الخوانق، و هيئوا له الريط و انزوايا. و لذلك أسباب و ظروف لا محل لسردها الآن. و يقيننا في هذا المقام أن في عملهم هذا، نشرا للعلم و تيسيرا لطلبه، و معاونة لطلبه. و إذا كانوا يفعلون ذلك تقربا إلى الله، و يجرون الأرزاق على الطلاب، فيدهى أنهم لم يتقاضوا أجورا على التعليم، يرهقون بها الطلاب - إذا استثنينا دراهم معدودة كان

يجود بها آباء الصغار لمعلمي المكاتب .-

(207)

و لا نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا في ذلك أكثر منا معرفة بواجبات الدولة
إزاء ناشئتها و إزاء العلم.
و قد كانت دور التعلیمی مفتحة نكل راغب فيه، فلم يصدوا عنها
طالباً، كما كان يصد الطلاب في العصر الحديث. و لم يتدعوا ذلك التعلات
المختلفة كما كان يحدث.

و حقا إنهم قصروا التعليم العسكري على طبقات الثماليك، التي كان
مددها يتجدد من خارج البلاد. و لكن لم تكن لهم مندوحة عن ذلك، لأن
منطق العصر كان يدعوهم إلى انتهاج هذا النهج، يظنوا في البلاد هم
الطبقة الحاكمة، لهم كيانهم الأصيل الذي بدعوا به، و كان من أهم مقوماتهم،
و هو المنحدر الذي انحدروا منه، بما فيه من رقة و عتق، و لو أنهم اتجهوا
إلى الشعب فاتخذوا منه جنودهم و حدهم من أول الأمر، لتصروا و تتغير
و ضعبهم، و زالت عنهم هذا الصفة التقليدية، و أصبحوا ملوكاً آخرين.

و مهما يكن من أمر، فقد أسسوا كثيراً من المدارس، و انتشر التعليم
في عهدهم في كثير من مدن مصر، كالقاهرة و الإسكندرية و دمياط و قوص
و أسبوط و أبو تيج و أخميم و سوهاج و غيرها، و قد أحصى ابن دقمان
في كتابه «الانتصار» من هذه المدارس و الجوامع و الخوانق و الربط و
الزوايا نحو خمس و مائة، و ذكر المقرئ في خطه تواريخ كثير من
هذه المدارس و أخبارها، و ما كان يدرس بها من العلوم، و نقل الأحوال
بها، و أبناء من اتصلوا بها من مؤسسين أو مدرسين أو نحوهم، و قد توفي
ابن دقمان عام 808 هـ، و المقرئ عام 845 هـ، و من ذلك إلى نهاية
العصر المملوكي، أسست مدارس غير ما ذكرناه منها مدرسة قايتباي و
مدرسة الغوري.

و يفهم من أخبار تلك المدارس أن العلوم الدينية كانت لها الأسبقية

في العناية و بعدها علوم اللغة ثم العلوم الأخرى. و ذكروا أن المواد
الدراسية في الجامع الطولوني كانت التفسير و الحديث و الفقه على المذهب
الأربعة و القراءات و الطب و الميقات. و أن الجامع الأزهر كان أهم ما
يدرس به، علوم الدين و المذاهب

(208)

الأربعة و الحديث و اللغة و الإنب و الوعظ، و قال المقرئ عنه
إليه في سنة 818 هـ بلغ عدد المنقطعين فيه نطلب العلم نحو 750 رجلا
من مختلف بلاد المسلمين. و قال: «فلا يزال هذا الجامع عامرا بتلاوة
القرآن و دراسته و تلقينه و الاشتغال بأنواع الفقه و الحديث و التفسير و
الحنو، و مجالس الوعظ و حلق الذكر».

و يقول بنا السقام لو ذهبنا نستقصى أخبار هذه المدارس و جهودها
في سبيل نشر العلم، و قد سعدت البلاد في العصر المنموكي، بجملته مؤلفات
ثمينة في تاريخ الإعلام و رجال الطبقات، و من حسن لحظ أننا نستطيع
أن نستخلص منها أخبارا قيمة عن حالة التعليم و مواد الدراسة و رجال
التعليم، — و يفهم منها أن هذه المدارس كانت بمثابة الجامعات — و إذا
غصطنا النظر عن الشكليات الحديثة، و جدنا فيها كل المعاني الجامعية، و
فقد كان في كل مدرسة — على وجه الإجمال — عدد من الشيوخ، كل شيخ
منهم أستاذ سادة من المواد المقررة، وقد بعينه في عمله بعض المعيدين، و
درسه مباح للطلاب المنقطع نطلب العلم و مباح لغيره.

و اعتاد كثير من الطلاب أن يلتزموا شيوخهم. فيلزم الطالب شيخا
من شيوخه يقع كل منهما من نفس الآخر موقع القبول، يلتزمه في كل
دروسه، حتى في دروسه المنزلية، فيتردد على بيته من آن لآن، و قد لازم
شمس الدين السخاوي شيخه شهاب الدين بن حجر العسقلاني، و أخذ عنه
كثيرا من علمه، و أجز منه برواية مصنفاته، و كان ابن حجر يرسل إلى
تلميذه هذا ليفد إليه في داره إذا كان قد تهيأ لإلقاء درسه على طلابه.

و كان بعض الطلبة يظوفون على كثيرين من الشيوخ، حسب اختيارهم، فيلتمونهم في دروسهم و نو تباعدت أماكن هذه الدروس، و روى أن محيي الدين النورى - رأس الشافعية فى زمانه - كان و هو طالب يتلقى اثنى عشر درسا فى اليوم و الليلة، و رواه الذهبى فى تذكرة حفاظه.

و لشد حرص الطلبة على الرحلة فى طلب الحديث الشريف، قطفوا لأجله بالمدن المصرية على حفاظه وروائه، و رحلوا إلى البلاد الشامية والحجازية و غيرها

(209)

لهذا تعدد المشايخ للطلاب الوالحد حتى ليلبغ عددهم أحيانا العشرات بل المئات، و على بعضهم بإخراج معجم لشيوخه، يترجم فيه لكل منهم، و يخوه بمقدار علمه و فضله و ما أفاد منه. و فى هذا ما فيه من معانى تقدير الطالب لأستاذه و وفائه له، و هو يدلنا ضمنا على مبلغ ما كان بين الطالب و شيوخه من محبة و ثقة و ملايسة طوية، و كل هذا يصور لنا الجو التعليمى الذى كانوا يعيشون فيه.

و حرص الطالب كذلك على استجازة شيوخهم فى الحديث و غيره، حتى فى علوم اللغة و الأدب، فاجازوهم و كتب بعضهم إجازاتهم أنبى بديع طريف، فكانت هذه الاجازات بمثابة الشهادات للجامعة الحديثة. و لعلها تشبه أرقى أنواع هذه الشهادات.

و امتد حرص الطلبة على الأخذ عن الشيوخ أخذنا معننا و اصلا بمنده إليهم حتى فى الخط. و من انظرى ما ذكر شمس الدين السخاوى فى كتابه «الضوء الامع» فى ترجمة ابن الصانع، فقد قال ما ملخصه: «إن ابن الصانع تعلم الخط المنسوب من النور الوسمى تلميذ غازى و لازمه حتى أتقن قلم النسخ و فاق عليه، و أحب طريقة ابن العفيف فسلكها و تعلمها من أبى على محمخ الزقناوى المصرى ثم صارت له طريقة منزعة من طريقتى

غازي و ابن العفيف، و ابن العفيف أخذ الخط عن أبيه، عن الولي العجمي، عن شهدة الكاتبة، عن ابن أسد، عن علي بن الثوبان، و ابن سمساني، عن مشايخها عن ابن مقلة...» و هذا التسلسل في الأخذ، هو مايسمونه بالخط المنسوب.

و لم تمنح الاجازات جزافا و اعتبارا، بل بعد طوون اختبار لطلاب و دقة معرفة به، و بمحصولة من العلم.

و كان أمر التدريس يوكل إلى حذاق المعلمين، و مهرة الشيوخ ممن داخ فضلهم، و اكتمل علمهم. و تذكر على سبيل المثال: تقي الدين بن دقيق العيد، فقد درس في المدرسة الصلاحية و الكاملة المعروفة بدار الحديث. و ابن رزين،

(210)

درس بالمدرسة الظاهرية و ابن الملقن - درس بالبيقرية و السابقة - و قوام الدين الاتقاني، درس بالصخر عتمشية - و ابن حجر المسفلاتي بالمريديية - و ابن خلدون بالأزهر. و غير هم كثيرون، و ما من مدرس من هؤلاء إلا و هو ضليع في علمه. و كان من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ منصب القضاء الأكبر، غير نهم كانوا يتأبون على المناصب والقضاء، خشية الفتنة أو الزلل، بينما هم يتزاحمون على التعدي للتعليم، و هم يعتقدون أنه أفضل قرابة يتقربون بها إلى الله، و أنه فرض عليهم للعلم يجب أدائه.

و كانت دروسهم جدلا أو إملاء، غير أن الجدل كان أوسع نطاقا، و أبعد أفاقا، فوجد في كثير من الطلاب روح النقد، و حسن الموازنة و سلامة الاستدراك، و الاقتدار على المناظرة.

و كان على الطالب - قيل أن ينقطع لطلب العلم بهذه المدارس - أن يمر بمكتب من المكاتب يحفظ فيه القرآن، و يتعلم الكتابة و القراءة. ثم يأخذ نفسه بحفظ عدد من كتب العلوم الختلفة التي ينزى دراستها، ليكون حفظه سندا له، و قوة على استحضار نصوصها، و مناقشتها، و فهمها، و

نقدها، و الاستدراك عليها — و كان عليه بعد حفظها أن يسمعها لبعض
شيوخه، ليثبت من حفظها، و كان هذا بمثابة اختبار له — على أن بعض
الشيوخ كان يختبر طلابه، إذا زابلوا مكتبهم، يُندمجوا في حلقة، فقد روى
السيدي في طبقاته عن اتحافظ شمس الدين الذهبي «أنه عند ما قدم إلى
القاهرة، و دخل إلى شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد — و كان
المذكور شديد التحري في الاسماع — قال له: من أين جئت؟ قال: من
الشام، قال: بم تعرف؟ قال: بالذهبي. قال: من أبو طاهر الذهبي؟ فقال له:
المخلص، فقال: أحسنت. فقال: من أبو محمد الهلال؟ قال: سفيان بن عيينة.
قال: أحسنت، اقرأ، و مكنه من القراءة عليه حينئذ، إذ رآه عارفاً بالأسماء». و
و كانت لهذه المدارس و امكاتب جميعاً أدب تُراعى، و تقاليد تُتبع،
كلها ترمي إلى تقديس العلم و احترام المعلم و رعايه المتعلم، و بضيق
المقام هنا، لو ذهبنا نعدد هذه

(211)

الأدب و التقاليد، و نل ما جاء في كتاب «تذكرة السامع و المتكلم،
في أدب العالم و المتعلم» للقاضي الأنيب المصري البارع بدر الدين بن
جماعة المتوفى عام 733 هـ و كتاب «المدخل» لابن الحاج نزيل القاهرة
و المتوفى بها عام 737 هـ، ما ينوه بها أو ببعض ما كان متبعاً منها.
من هذا و ذلك نشعر بجلال للحركة التعليمية في تلك العصور، و
بأنها كانت أتيل مستوى في بعضى مظاهرها و معانيها و مراميها، مما
سمونا إليه نحن الآن.

و لعل من المناسب هنا أن نشير إلى أن لبلاد المصرية حينذاك
رحبت عن كريم نفس، و اعتمنان ضمير بالوا فدين إليها من الغزباء شيوخا
و طلابا معاً، فقد كانت هي المنابة الآمنة بين العالم الإسلامى القلق
المضطرب شرقاً و غرباً. فوطأت لهم في كنفها، و أفسحت في رحابها،
فوجدوا فيها للدعة و الطمأنينة، و الراحة و الأمانة، و لنوا المراح البر، و

المرتزق الثر، و الحظوة الطيبة لدى السلاطين و الأمراء، و العلية و العامة.
و كانت مصر تصدرفى سياستها تلك عن روح دينية عالية، و أخوة
إسلامية سامية، فهمت حقيقة الدين، و ما يدعو إليه من إيثار و مودة و تعاون
حتى يصبح للمسلمون قاطبة بنعمه الله إخوانا، و قوة و بدأً على من عداهم،
و فى ذلك ما فى من انعزة.

و اعتقد أن من محاسن التعليم فى العصر الحديث، صدور مصر
فى سياسته عن تلك الروح القديمة، و ذلك المبدأ القويم الذى اعتنقته فيما
سلف، فلقد أصبح الطالب الشرقى يجد من معونة الدولة و تيسيرها له سبيل
التعليم ما لا يجده الطالب المصرى أحياناً، إلى هذا الحد بلغ بها الإيثار
والتود، و إنها لسعادة كبير أن نوفق الجارات الشرقية إلى فهم هذه الروح
فيما دفيها، حتى تقدر ما تشهده مصر من أخوة عامة حق قدره، و تعمل
على توطيد هذه الأخوة.

و بعد، فعمل هذه العجالة تلقى ضوءاً — ولو يسيراً — على الحركة
التعليمية فى مصر، إبان عصورها للوسطى التى يسمونها «المظلمة» يقتعنا
بأن تعدل عن اتهامها بل بأن تعرف لها فضلها، و تترفق فى الحديث عنها،
و نحن بصدد العلاج لمشكلة التعليم؟

إن سلاطين المماليك ساروا على نهج عماد الدين ونور الدين
وصلاح الدين وأخلصوا اثنية لله وحده وجددوا دعوة الجهاد معاً، فهذا سيف
الدين قطز بأقوانه وأفعاله يبرهن على ذلك، فبعد معركة عين جالوت وقف
خطيباً وقال: لقد صدقتم الله الجهاد فى سبيله فنصر قلبكم على كثير عدوكم،
إياكم والزهو بما صنعتم، ولكن أشكروا الله واخضعوا لقوله وجلاله إنه نور
القوة المتين، واعلموا انكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه، وإن الله
ورسوله إن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الإسلام بضرد أعدائه من مدائر

¹ جهاد المماليك ص 289.

بلاده، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله¹، واتوفاق اننا إذا تتبعنا أعمال سلاطين دولة المماليك في هذا المجال نترك أن الدافع الاساسي لهم كان الجهاد في سبيل الله للثبوت عن ممتلكات المسلمين، ولما كان ذلك لا يتأتى إلا بتوحيد كلمة المسلمين، فإنهم قد سعوا جاهدين لتحقيق ذلك، فبدأوا جهودهم بتجميع الفلول الإسلامية التي فرت من وجه العدوان المغولي وحشدتها داخل الأراضي المصرية، وخرج السلطان قطز على رأس تلك الجموع بعد أن غرس فكرة الجهاد في نفوسها وأشعل الحماسة في صفوفها إلى بلاد الشام وتمكن من كسر المغول في عين جالوت التي تعتبر بحق بداية النهاية للوجود المغولي في بلاد الشام، ترتب عليها إعادة الوحدة مرة أخرى بين مصر والشام، ليمهد الطريق لمن أتى بعده من السلاطين لمواصلة الجهاد ضد المغول والصليبيين، ذلك الجهاد الذي كان يعد في نظرهم فرض عين على كل مسلم لا يقل عن كونه ركناً من أركان الإسلام²، وخلصاً تقول أن سلاطين المماليك استفادوا من الجهود التركمية التي سبقتهم وبنوا عليها وجددوا الدعوة للجهاد وتحرير أراضي المسلمين من المشارع الغازية المغولية والصليبية.

10 « الاستعانة بالعلماء واستشارتهم :

كانت من القيم الراسخة في نونة المماليك، قيمة العلوم الشرعية وعلماء الدين، فطول أيام الايوبيين في مصر، ومنذ أن رسخ صلاح الدين المذهب السني في مصر بعد قضائه على الدولة الفاطمية، وقيمة العلماء مرتفعة في أعين الناس والحكام على السواء، حتى أنه لما صعدت شجرة الدر إلى كرسي الحكم، وقام العلماء بإنكار ذلك وكتابة الرسائل المعنية للملكة وتحفيز الناس على رفض هذا الأمر، ما استطاعت شجرة الدر ولا

¹ من أجل فلسطين صـ 102.

² جهاد المماليك صـ 290.

أحد من أعوانها أن يوقفوا هذه الحركة الجريئة من العلماء¹، وكان من طبيعة العلماء في ذلك العصر النزول في ساحات القتال وتحريض الناس على انجهاًد كما حدث في الحملة الصليبية السابعة عام 648هـ، وكان من أشهر هؤلاء العلماء العز بن عبد السلام، وكان مقرباً ومحياً لسيف الدين قطز، وأخذ بترشيده وفتاويه ونفذ ذلك وخصوصاً تلك الفتوى الشهيرة المتعلقة بوجود المال اللازم للإعداد ما يلزم الحرب، فعقد سيف الدين قطز مجلساً لمشورة في قلعة الجبل وحضر قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكان السؤال حول أموال العامة ونفقتها في العساكر، فقال ابن عبد السلام: إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقت الحوائص الذهبية ونحوها من الزينة وساوتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم²، وانتضى الاجتماع ويفهم مما تقدم أن المسلمين لم يكونوا يوافقون على فعل شيء أو دفع ضريبة إلا إذا أقرها علماء الإسلام، وأصدروا الفتاوى بجوازها، وهذا يعني الخضوع للشريعة، ومن جهة أخرى فإن السلطان ملتزم بما صدر عن إفتاء العلماء، بل راح الأمراء ورجال الدولة يقدمون ما يملكون وأحضروا ما في بيوتهم من حلي نسانهم وأموالهم، وأقسموا لم يتركوا شيئاً، وذلك طواعية دون إرغام أو تهديد وإنما إستجابة لرأي الشريعة، ولما كانت هذه الأموال لا تقوم بالمطالب إستعان السلطان قطز بالرعية بعد أن تساوا جميعاً، وفرض إجراءات من أجل توفير المال اللازم للحرب، ومن ثم كانت الأموال التي أنفقها المسلمون في حرب التتار في موقعة عين جالوت أموالاً طيبة ساهمت

¹ قصة التتار ص 360.

² الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د. فايد ص 120.

في تحقيق الإنتصار¹، وكان السلطان سيف الدين قطز يحترم ويقدر ويفند فتاوى العلماء وكان يستعين بهم ويطلب مشورتهم في النوازل وكان العلماء والفقهاء يقومون بدورهم الكبير في نوعية الشعب بالأخطار المحيطة به ويحرضون الناس على طلب الشهادة، والإستجابة لنداء الجهاد، فقد حدث تكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار، فكان ذلك الإنسجام والتعاون المستمر من أسباب النصر في عين جالوت، فبين العلماء أحكام الله تعالى في الجهاد، كيف يتعامل مع أموال العامة، حتى تصبح حلالاً لا ظلم ولا عدوان فيها، مع الإستعداد النفسي لدى السلطان قطز في تنفيذ حكم الله وأثر ذلك على شعور الناس بقيمة العدل التي ساهمت في جعل روح جديدة تسري في كيان الشعب تحت قيادة قطز.

11 - الزهد في الدنيا:

لما تحدثنا عن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية، ذكرنا منها، حب الدنيا وكراهية الموت، وكيف كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين وتعلقوا بدنياهم؛ الذليلة تعلقاً ورضوا بأن يبقوا في قراهم ومنهم ينتظرون الموت على أيدي لفرق المغولية، وقد رأينا، محمد بن خوارزم، وجلال الدين بن خوارزم والناصر لدين الله، والحليفة العباسي المستعصم بالله، ويدر الدين نؤلؤ، والناصر الأيوبي، كيف كانت نهايتهم أما قطز وشعبه، فقد فطنوا لهذا المرض، وزهدوا في الدنيا وكان سيف الدين قطز قدوة ومثلاً حياً بين الناس، فقد باع ما يمتلكه ليجهز جيوش المسلمين المتجهة لحرب التتار، ولم يطمع في كرسي الحكم، بل عرض القيادة على الناصر يوسف الأيوبي على قلة شأنه، إذا قبل بالوحدة بين مصر والشام، ونم يطمع في استقرار عائلي أو إجتماعي أو أمن أو أمان، فكرس حياته للجهاد والقتال، على صعوبته

¹ المصدر نفسه صـ 121.

وخطورته، ولم يطمع في أن يمتد به العمر، فخرج على رأس الجيوش بنفسه ليحارب انتار في حرب مهنكة، ولا شك أنه يعلم أنه سيكون أول المطلوبين للفن، ولا شك أنه يدرك كذلك أنه إذا لم يخرج بنفسه، وأخرج من ينوب عنه فإن أحداً لن يلومهُ؛ لأنه الملك الذي يجب أن يحافظ على نفسه لأجل مصلحة الأمة لكنه اشتق بصدق إلى الجهاد وتمنى الموت بين صليل السيوف وأنة الزمام فزهده في هذه الدنيا الفانية وكانت حياته تطبيقاً عملياً كاملاً لآدمته¹. فكانت تلك الكلمات قد سرت روحها في أركان حربه وجنوده وشعبه وتحركوا لأحد الحسنين فكان النصر الكبير في معركة عين جالوت.

12 - صراعات داخل بيت الحكم المغولي.

وصلت الأخبار إلى هولاءكو بوفاة أخيه الأكبر منكو خان وتنازع أخوية الآخرين 'قوبيلاي' و'اريق بوقا' على ولاية حرش المغول فوجد نفسه مضطراً إلى العودة إلى مقره الرئيسي مدينة مراغة ليكون قريباً من سحري الحوادث في منغوليا، ليسهل عليه التحرك إلى منغوليا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وبالرغم من أن هولاءكو هو الابن الرابع لتولوي خان من حقه أن يتنفس أخويه في تولي ذلك المنصب، غير أنه لم يولي ذلك المنصب اهتماماً، ولعل ذلك راجع إلى ما تهيأ له من النجاح والتظفر في إيران والعراق والشام²، فضلاً عن خوفه من ازدياد هوة الخلاف وتعقيد الأمور ولكنه في الوقت نفسه كان يرى أن أخاه قوبيلاي أجدر بتولي العرش من أخيه الآخر اريق بوقا وحرص على أن يحضر الانتخابات ليزكي ترشيح أخاه قوبيلاي خناً أعظم للمغول ومن ناحية أخرى لانسى ما كان من ازدياد العلاقات سواء بين هولاءكو وبناء عمومته خانات القبيلة الذهبية

¹ قصة التنازع ص 359.

² المغول في التاريخ للمصنف ص 198.

"القبجاق"¹، الذين باتوا يهندون ممتلكاته - وهذا صرفه عن مزايا الإمدادات اللازمة للمغول في بلاد الشام، وكذلك لم يستطع قيادة جيش كبير للانتقام من هزيمة معركة عن جالوت ورد الاعتبار والهيبة للمغول - إذ أن بركة خان زعيم القبيلة الذهبية كان يحيل إلى المسلمين في الوقت الذي كان هولاء وحاشيتهم يعملون جاهدين على إرضاء المسيحيين واستمالتهم إليهم وتطور الأمر ببركة إلى أن اعتنق الدين الإسلامي، وتعرض هولاء للتفريغ والتأنيب من قبله وصار بركة يتهدده بالانتقام منه بسبب ما أقره من مذابح زاح ضحيتها أرواف من المسلمين، وما أنزل بهم من نمار وخراب، فضلاً عما تعرض له الخليفة العباسي من الهوان وتجربه على قتله، لذلك كثيراً ما وقع الاحتكاك بينهما عند جبال القوقاز التي تفصل بين نفوذهما، بل ذهب بركة خان إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث قام باضهاد القبائل المسيحية التي كانت تسكن تلك المناطق وذلك رداً على ما ملكه هولاء من سياسية تعسفية تجاه المسلمين بقصد إذلالهم، ويبدو أن هولاء أراد أيضاً حثاً لتصرفات التهكم والانتقام التي مارستها بركة ضده، فحاول أن يفرض سلطانه على الجانب الشمالي لجبال القوقاز، ولكن بركة أعد لذلك الأمر عدته، واستطاعت جيوشه أن تنزل بجيوش هولاء هزيمة ساحقة²، وهناك أسباب أخرى ذكرت في دفع هولاء للعودة إلى عاصمته بالمشرق فإن الذي يهمننا قونه هو أن ذلك الحدث المفاجيء كان تحولاً خطيراً، غير مجرى سياسة المغول التوسعية التي جعلت هولاء لم يعد إلى فارس بمفرده، بل

القبجاق:

فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض النهر ارتش وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر لرتل "الفلجا" في جنوب روسيا الحالية فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق، كما عرفت به أيضاً دولة المغول المسماة القبيلة الذهبية.

² جهاد المماليك ص 113.

عاد ومعهم جموع من عساكره¹، وهذا مما ساهم في تحقيق النصر في معركة عين جالوت.

13 - سنة الله في أخذ الظالمين والطغاة.

قال تعالى: "ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون" (ابراهيم، آية: 1) وقال تعالى: "إن ربك لبالمرصاد" (الفجر، آية: 14) "إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذهم لم يقلته، لقد عاش انتثار في الأرض فساداً، وتحقق لهم الفوز في شائب معاركهم، واجتاحتها الشرق بأكملها، وتصوروا بعد أن سقطت الشام أمام جحافلهم، أنه ليس أمامهم إلا مصر وبعدها يكونون قد ملكوا أزمة الأمور²، وقد نتابهم غرور عظيم مع ظلم وطغيان وأشر إلى ما جاء في رسالتهم لفضز... فحنن لا نرحم من بكى، ولا ترفق لمن أشنكى، وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب فأبى أرض تأويكم، وأبى ضريق تتجيككم وأبى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهايتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهمنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجمال وعدتنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقناتنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع³. وهذا يعني الغرور الذي لاحذ، وحان وقت الخلاص منهم بفترة السميع العليم وأراد أن تكون هزيمتهم بل مصرعهم وإنهاء ملكهم في الشام على يد السلطان سيف الدين قطز⁴.

إن الأسباب في انتصار المسلمين في عين جالوت متشابكة ومتداخلة، ويؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالنجاح السياسي، ويؤثر في الجانب الاقتصادي، ويؤثر به وهكذا وما ذكرنا من الأسباب لا يمكننا أن

¹ المغول الحزيني ص 257، جهاد المماليك ص 114.

² الطريق إلى بيت المقدس ص 141.

³ البلوت للمفريزي (5/4/1).

⁴ الطريق إلى بيت المقدس ص 141.

نقول هذه فقط لا مزيد عليها فقد يئتي غيرنا ويزيد عليها، ومطلوب منا التفكير والتأمل والتدبر نستخرج الدروس والعبر والسنة والقوانين في قيام الدول وسقوطها، وانتصار الشعوب وهزيمتها، وبه معرفة صفات قيادة المتمكين، وفقهاء الفهوض وعوامل صناعة التاريخ لنستخدمها لنصرة الله عز وجل، ودينه القويم قال تعالى: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى. ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون¹ يوسف، آية: 111.

سابعاً نتائج وأثار معركة عين جالوت:

ترتب على انتصار المسلمين على المغول في معركة عين جالوت نتائج وأثار كثيرة منها:

1 - تحرير بلاد الشام من المغول:

كان لوصول خبر انتصار الإسلام في عين جالوت أثر على أهل دمشق وهرب نواب التتار وأصبحت دمشق بدون حكومة لضبط الأمن، وما قام به المسلمون في دمشق من قتل الخونة والعلاء ومن كاد للإسلام وبالمسلمين أثناء وجود حكم التتار للمدينة، لم يكن عملاً متطرفاً أو تعصباً ضد انصارى أو اليهود، بدليل أن العقوبات الشعبية لحقت بكل المعتصر حتى المسلمين وكما قال المقرئ: ناز أهل دمشق بجباة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلهم، وهذا دليل على أن ثورة المسلمين كانت ضد الخونة ومن تعاون مع الأعداء وهذا الأمر من حق المسلمين تأديب من يغي على أهل الإسلام، وبالفعل تم تطهير دمشق من المغول واثنايهم والخونة معهم، وواصل الأمير بيبرس البندقداري مطاردة قلوب التتار بعد عين جالوت، واستمر المسلمون في تطهير بلاد الشام وفلسطين وشرق تركيا من المغول، ولم يُسمع عن التتار في هذه المنطقة لعشرات السنين، بعد ذلك

¹ الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د.فايد ص 123، 122.

واختفى القهر والظلم والبطش والتشريد، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأرضهم وأعراضهم¹.

2 - تحقق الوحدة بين الشام ومصر:

ومن أهم نتائج هذه المعركة، إعادة الوحدة بين شطري الجبهة الإسلامية، مصر وبلاد الشام، وهي الوحدة التي عرضت لمحنة التمزق والانقسام منذ مقتل الملك المعظم نورانشاه في المحرم سنة 648هـ والمعلومات التاريخية تفيد أن المظفر قطز كان يدرك أن انتصار المسلمين في عين جالوت لن يؤدي نضاره إلا بتحريك الشام من سيطرة السغول، ومن ثم فبئس جعل هذه الغاية شغله الشاغل، فيسجد أن تحقق له انصر في عين جالوت، بعث برسالة عاجلة إلى أهل دمشق، يخبرهم ويطمئنهم، وبذل جهده في توحيد الشام بمصر²، وعادت الوحدة من جديد وليس ثمة غير الوحدة من طريق في ماضيها وفي حاضرنا، إنه السير على منهج قادة الجهاد، كعماد الدين و نور الدين وجاء صلاح الدين وبنى على جهدهم انتصاراته الحاسمة ضد الصليبيين وحرر القدس وها هي معركة عين جالوت تشد الأصرة مرة أخرى وتمنح المسلمين الأرضية التي سيتحركون عليها عبر العقود القادمة لمجابهة الخصوم، ودفعهم إلى إحدى اثنتين، الإذعان بكلمة الإسلام، أو العودة من حيث جاؤوا. لقد ملأت المعركة الفراغ المخيف الذي كان يمكن أن يتمخض عن سقوط الخلافة العباسية وتفتت الدول الإسلامية كالتركية والايوبيين والخوارزمية، والسلاجقة، فأتاحت للقيادة المملوكية الشاب أن تقوم بتوحيد الشام ومصر³.

¹ قصة التتار ص 345، التتار والسغول د. محمود السيد ص 132.

² الجبهة الإسلامية د. حامد غنيم ص 424: دراسات في تاريخ الايوبيين والتمنايك د. نعمان جبران ص 278.

³ دراسات تاريخية ص 91.

3 . خمود القوى المناوئة للمماليك:

فضى المماليك على ما تبقى من الأيوبيين الذين كانت لهم بعض الزعامات داخل المملكة، فقد أرسل السلطان بيبرس في ربيع الآخر سنة 659هـ / شباط 1260م جيشاً إلى اثشوبك فاحتلها، وبعد عدة أشهر أرسل جيشاً آخر إلى الكرك لإظهار قوته²، وفي شهر ربيع الآخر سنة 661هـ / شباط 1262م توجه الملك الظاهر إلى دمشق وأرسل في طلب المغيث ملك الكرك في حيلة استطاع على إثرها أن يقبض عليه ويسجنه في سجن القاهرة ثم قتله³، وسار بنفسه إلى الكرك مع جيش يحتوي على جميع صنوف الأسلحة بما فيها الصناعات والوحدات الفنية والهندسية وضرب الحصار على المدينة، فاستسلمت وأعادها إلى حكم المماليك⁴، وقد حدثت ثورات في الكرك ضد الحكم المملوكي استطاع الظاهر القضاء عليها، ولم يكف الظاهر بملاحقة الأيوبيين، وسلاطينهم، بل طاردهم وتعقب فتولهم حتى على مستوى جندي في القوات المسلحة، وذلك بتسريح كل أمراء وضباط وجنود وخدم الأيوبيين، وذلك اعتقاداً منه في توظيف الجيش، وجعله مختصراً فقد على أولئك الضباط والجنود الموالين، فأحال على التقاعد الجندي فخر الدين، وتخلص من الأمير سيف بين نجم الأيوبي⁵، وضائق على الدولة البدرية التي كانت تقع في الجزء الشرقي من سوريا، وتضم الموصل، والجزيرة ونصيبين وماردين، وكان على الموصل الملك الصالح ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ، وفي نهاية المطاف قضى الملك

¹ الروض الزاهر ص 48، معركة عين جالوت ص 394.

² معركة عين جالوت ص 394.

³ المصدر نفسه ص 394، ذيق مرآة الزمان (2 - 300).

⁴ معركة عين جالوت ص 395.

⁵ المصدر نفسه ص 396.

للظاهر بيبرس على النولة البدرية وضمها إلى الدولة المملوكية وضغط الجيش المملوكي بشدة على قوى الإسماعيلية الذين كانوا يسكنون في مصياف المنطقة الغربية في حمص وحماد وكانت هذه المنطقة تتميز بالقلاع والحصون، وقبل أن يتهيأ الإسماعيليون للحرب فاجأهم بيبرس بهجوم استولى في نهايته على مصياف ثم توالى هجمته حتى استولى على قلاعها، وانتصر عليهم إنتصاراً ساحقاً¹.

4 . إنتصار الإسلام على الوثنية:

ليس من المبالغة القول إن عين جالوت شهدت معركة حاسمة على المستويات العسكرية، والسياسية والعقيدية والحضارية عموماً، لقد كان إنتصار المسلمين يعني إنتصار الإسلام على الوثنية، والتحضر على الجاهلية، والقيم على الإنفلات²، وفي معركة عين جالوت نشهد المعادلة الواضحة التي لا تمنح جوابها للعدل إلا إذا تجمع طرفاها في تكافؤ مفاصل، الأخذ بالأسباب، والإيمان بواقع العميق بالله، وبعدالة القضية التي يجاهد المسلمون من أجلها، وبدون تحقق هذا التقابل، فلن يكون نصر أو توفيق، ولن يحتاج الأمر إلى مزيد شواهد أو نقاش، فإن مجرى التاريخ الإسلامي الطويل يعرض علينا عشرات بل مئات وألوفاً من الشهود على هذا الذي تعرضه علينا واقعة عين جالوت³، وهذه شهادة المؤرخ الإنجليزي المعاصر ستيفن رنسيمنان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية يقول: تعتبر معركة عين جالوت من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ، ومن المحقق لو أن المغول عجزوا بإرسل جيش كبير عقب وفروع الكارثة لتيسير تعويض الهزيمة، غير أن أحكام التاريخ حالت دون نقض ما يتخذ في عين جالوت من قرار، فما

¹ معركة عين جالوت ص 396.

² دراسات تاريخية ص 89.

³ المصدر نفسه ص 90.

أحرز المماليك من إنتصار إتفد الإسلام من أخطر تهديد تعرض له، فلو أن المغول توغوا إلى داخل مصر لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة شرقي بلادي المغرب، ومع أن المسلمين في آسيا كانوا من وفرة لعند ما يمنع من إستئصال شأفتهم، فأنهم لم يعودوا يألفون العنصر الحاكم ولو إنتصر كتبغا المسيحي، لإزداد عطف المغول على المسيحيين، ولأصبح للمسيحيين في آسيا السنطة لأول مرة منذ سيادة المحن الكبيرة في العدم السابق عن الإسلام¹، لقد كانت موقعة عين جالوت أول صدمة في الشرق لحيوس المغول وخاناتهم الذن ظن المعاصرون أنهم قوم لا يغلبون².

5 - حدث حاسم في تاريخ البشرية:

بن إنتصار المسلمين في معركة عين جالوت وما أعقبه من طرد المغول نهائياً من بلاد الشام يعتبر بحق من الحوادث الحاسمة ليس في تاريخ الشام ومصر فحسب، ولا في تاريخ الأمم الإسلامية بمفردها وإنما في تاريخ العالم بأسره، إذ أن ذلك الإنتصار العظيم لم ينفذ للعالم الإسلامي وحده، بن أنفذ انعالم الأوربي والمدينة الأوربية من شر ذلك الغزو، فلو تم للمغول، إكتساح الأراضي المصرية والنفذ إلى الشمال الأفريقي لتمكنوا بسهولة من سلوك الطريق التقليدي إلى أوربا عبر صقلية وجبل طارق، لذا فإنه لا يختلف إثنان في أن هذه المعركة تفوق في أهميتها المعارك الحربية الحاسمة في العصور الحديثة³.

6 - روح جديدة في الأمة:

كان لإنتصار المسلمين في معركة عين جالوت من العوامل التي ساهمت على إنتشار الإسلام وقتئذ، فقد بعث هذا الإنتصار روحاً جديدة في

¹ المصدر نفسه ص4، عين جالوت فتحي شهاب الدين ص34.

² نهر انتاريخ الإسلامي ص456.

³ جهاد المماليك ص356، مصر في العصور الوسطى محمود محمد ص246.

المسلمين لا سيما مسلمي فارس الذين ارتفعت روحهم المعنوية وأخذوا يصعدون أمام مناورات المسيحيين وينافسونهم في تبوء مركز الصدارة في دولة المغول في إيران، وصاروا يشرحون للمغول تعاليم الدين الإسلامي حتى كُنت متابعهم بنجاح باهر، أثمر إعتناق المغول في غرب آسيا الدين الإسلامي، بعد أن بُت لهم صلاحيته لكل زمان ومكان وشموله لكل نواحي الحياة من خلال معاشرتهم لأهله، ولبعده كل التبعد عن الخلاقات الجوهرية التي إنتلّى بها الدين المسيحي وذلك لكون الإسلام خاتم الأنبياء تكفل الله بحفظه إلى أن يربث الأرض ومن عليها¹.

ومياتي الحديث عن دخول المغول في الإسلام مفصلاً بينن الله تعالى في كتابنا القادم عن الملك الظاهر بيبرس.

7 . إحصار الهد المغولي

بعد هزيمة عين جالوت حاول المغول عدة محاولات لإستعادة مجدهم، ورد إعتبارهم وإرجاع سمعتهم الحربية التي تلصقت بالعار مع الجيش المملوكي، فقد شنو عدة غارات وسيروا الحملات العسكرية لكي ينالوا من الممليك، فالحقد يملأ قلوبهم، والانتقام يَتميز غضباً في نفوسهم، أنهم كانوا اقوى جيوش العالم، والآن أصيبوا بالضعف والوهن وزالت هيبتهم²، وإستطاع المسلمون أن يتغلبوا في عين جالوت على الهزيمة النفسية التي كانوا يعانون منها، وخرج من الإحباط الشديد وعلموا أن الأمل في الله لا ينقطع أبداً، وأنه مهما تعاطمت قوة الكافرين فإنها بلا شك إلى زوال³، قال تعالى : " لا يعزرك قلب الذين كفروا في البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد" (آل عمران، آية : 196 – 197).

¹ المصدر نفسه صـ357.

² معركة عين جالوت صـ381.

³ قصة التتار صـ344.

8 - فشل التحالف بين الصليبيين والتتار:

ترتب على إنتصار المماليك في عين جالوت أن ضعف أمر الصليبيين في التعاون مع المغول ضد المسلمين وذلك بسبب ظهور قوة دولة المماليك الإسلامية التي تمكنت من إبعاد انخطر المغولي إلى حدود العراق، بل حاول المماليك غزو العراق وإبستخلافه من التتار¹.

9 - إضعاف الوجود الصليبي:

كان لإنتصار المماليك في معركة عين جالوت دور كبير في إضعاف بقايا الوجود الصليبي على ساحل بلاد الشام، فالذي لا شك فيه أن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل كبيرة بعد ذلك أنصر العظيم والذي حققه المسلمون ضد للمغول في هذه المعركة، فسارع زعمائهم — بعد أن أدركوا أن نهايتهم أتية لا محالة — بالتقرب إلى السلطان بيبرس، وطالب مراحمه، فعقد معهم معاهدات أملى شروطها بنفسه وقام في الوقت نفسه بإبرام سلسلة من المعاهدات والإتفاقات الودية مع الدول الأجنبية القريبة من بقايا الصليبيين في بلاد الشام، وتمكن من أحكام العزلة على الصليبيين وذلك بحرمانهم من أي معونة خارجية، الأمر الذي عجل بإقتلاع جزورهم نهائياً من ساحل بلاد الشام².

10 - مدينة القاهرة:

لم تقتصر عين جالوت على النواحي السينية بل تعدت إلى النواحي الحضارية، حيث جثت مصر ويلات الغزو الملمر القاهرة لما تعرضت له بخداد ودمشق، وغيرهما من مدن إيران والعراق والشام من الخراب والنمار الذي عطل ما كانت تزخر به هذه المدن الإسلامية من الآداب والعلوم والفنون والمعالم الحضارية، وبقيت القاهرة مكاناً هائلاً آمناً يهرع إليه العلماء

¹ الجها الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د. فايد ص 126.

² جهن المماليك ص 357، المظفر قطز الحسني ص 126.

والأدباء والفنانون حتى إكتسبت عاصمة المماليك مكانة ممتازة في هذا المجال إلى جانب مكانتها السياسية، التي برهنت على ما إكتسبه المماليك لمسلمون من هيبة وقدره في شئون السياسة والحرب، وإتضح في علاقاتهم الخارجية والدولية للواسعة الإنتشار وفي إصلاحاتهم وإداراتهم الداخلية الحازمة¹.

11 . ميلاد دولة المماليك الفتحية:

في الوقت الذي كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تنزل على شاطئ البحر المتوسط أمام دمياط، كانت جحافل التتار بقيادة هولكو تطوي بلدان المشرق الإسلامي ويقرب من عاصمة الخلافة العباسية الواهنة في بغداد، وإذا كانت إنتصارات المماليك في المنصورة وفارسكور سنة 648هـ/1250م هي صرخة الميلاد لدولة المملوكية، فإن معركة عين جالوت - التي حسرت المد المغولي - كانت تأكيداً لدور التاريخي الذي ينتظر دولة سلاطين المماليك، وهو دور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الإسلامي²، وتمكنت الدولة الجديدة - بقيادة السلطان الظاهر بيبرس - أن تغير مصير المنطقة في أكثر من إتجاه إذ طردت قلوب المغول وقضت على بقايا الأيوبيين، كما أحاطت بالمستوطنات الصليبية من كل إتجاه، وعلى الرغم من الضجة التي أحدثها المغول في تاريخ المنطقة إلا أن خطرهم على العالم الإسلامي لم يكن كبيراً مثل خطر الصليبيين الذين كان الصراع ضدّهم صراع وجود، ويتأكد هذا انقراض من خلال الحقيقة القائلة: أن المغول الذين غزو المشرق الإسلامي لم يلبثوا أن إعتقوا الإسلام، وصاروا من أكثر المدافعين عنه حماسة بعد جيلين فقط من هزيمة عين جالوت.

¹ جهاد المماليك ص 357.

² ماهية الحروب الصليبية ص 192.

12 . الدور الرمزي للخلافة العباسية:

تأكد الدور الرمزي والعاطفي للخلافة العباسية، فقد كان إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/1261م بمثابة أحنل السعيد للذي وجده السلطان الظاهر بيبرس لإضفاء الشرعية على دولته العسكرية التي قامت بدور هام في تصفية الوجود الصليبي، وقد أثبتت الأحداث طوال عصر سلاطين المماليك أن الخلفاء العباسيين في القاهرة لم يكن لهم من الخلافة سوى إسمها، كما تحددت إقامة معظمهم بحيث كانت أقرب إلى الإعتقال¹.

13 . تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وأنظمته:

إزداد حجم الجيش بعد معركة عين جالوت وتعددت تشكيلاته القتالية، ففي أعقاب المعركة وفي زمن الملك الظاهر كان هناك ثلاث جيوش، أحدهما في مصر وثانيهما في دمشق وثالثهما في حلب، ولقد أطلق على الجيش الذي يقوده القائد الأعلى جيش الزحف، ويبلغ عدده أربعين ألف مقاتل، وبلغت إحدى التجريدات في عهد الملك الناصر مئة وخمسين ألف مقاتل ثم تطور هذا الجيش، فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات إحتياطية ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل حجمه إلى ثلاثمائة وسبعة وخمسين ألفاً، وكذلك فإنه طرأ تطوير كبير على نوعية الأسلحة والاختصاصات المتعددة في الجيش، وتم بناء الجسور والقناطر والترع، كما كان سلاح النلظ والنيران في مقدمة الأسلحة التي أصابها التطوير، إذ تنوعت المواد الخارقة واستخدمت على نطاق واسع وغير ذلك من أنواع الأسلحة².

هذه أهم نتائج وأثار معركة عين جالوت على العالم الإسلامي والإنسانية.

¹ المصدر نفسه ص193.

²

الحياة العامة تحت حكم المماليك

وذكر المقرئ في المواظ والاعتبار في ذكر الخطب والأخبار الجزء الأول / 24 / 167 كتب قائلاً : " قال جامع سيرة الوزير البازوري: وقصر النيل بمصر في سنة أربع وأربعين وأربعمائة ولم يكن في مخازن الغلات شيء فاشتدت المسغبة بمصر وكان لخلو المخازن سبب أوجب ذلك وهو أن الوزير الناصر للدين لما أضيف إليه القضاء في أيام أبي البركات الوزير كان يتاجر للسلطان في كل سنة غلة بمائة ألف درهم وتجعل متجرًا فمثل القاضي بحضرة الخيفة المستعين بالله وعرقه أن المتجر الذي يقام بالغلة فيه أوفى مضرة على المسلمين وربما تنحط السعر عن مشترائها فلا يمكن بيعها فتتعفن في المخازن وتلف وأنه يقيم متجرًا لا كلفة فيه على الناس ويفيد أضعاف فائدة الغلة ولا يخشى عليه من تغيره في المخازن ولا انحطاط سعره وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك فألضى السلطان نه ما رآه واستمر ذلك ودام الرخاء على الناس فوسموا فيه مئة سنين ثم عمل السلوك بعد ذلك ديوانًا للمتجر وأخر من عمله الظاهر برقوق.

وأما الخشب: فإن معانته بالصعيد وكانت عادة الديوان الإنفاق في تحصيل القنطار منه بالبيهي يبلغ ثلاثين درهمًا وكانت العربان تحضره من معانته إلى ساحل أحميم وسيوط والبهنسا ليحمل إلى الإسكندرية أيام النيل في الخليج ويشترى بالقنطار البيهي ويبيع بالقنطار الجروي فيباع منه على تجار الروم قدر اثني عشر ألف قنطارًا بالجروي بسعر أربعة دنانير كل قنطار إلى مئة دينار ويباع منه بمصر على اللبديين والصباغين نحو الثمانين قنطارًا بالجروي سعر مئة دينار ونصف القنطار ولا يقدر أحد على ابتاعه من العربان ولا غيرهم فإن عثر على أحد أنه اشترى منه شيئًا

وُباعه سوى الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه وقد بطل هذا،
وأما النطرون: فيوجد في البرّ الغربيّ من أرض مصر بناحية
انطرائنة وهو أحمر وأخضر ويوجد منه بأنفأقوسية شيء دون ما يوجد في
انطرائنة وهو أيضًا مما خطر عليه ابن مديبر من الأثبياء التي كانت مباحة
وجعله في ديوان السنطان وكان من بعده على ذلك إلى اليوم وقد كان يرسم
فيه بالديوان أن يحمل منه في كل سنة عشرة آلاف قنطار ويُعطى الضمان
منه في كل سنة قدر ثلاثين قنطارًا يتسلمونها من الطرائنة فتبذع في مصر
بالقنطار المصري وفي بحر الشرق والصعيد بالجروي وفي دمياط بالثيبي.
قال القاضي الفاضل: وبناب النطرون كان مضمونًا إلى آخر سنة
خمس وثمانين وخمسمائة بمبلغ خمسة عشر ألفًا وخمسمائة دينار وحصل
منه في سنة ست وثمانين مبلغ سبعة آلاف وبثمانمائة دينار وأدركنا النطرون
إقطاعا لعهده أجناد.

فلما تولى الأمير محمود بن عليّ الإستادارية وصار مديبر الدولة في
أيام الظاهر برفوق حاز النطرون وجعل له مكنتًا لا يباع في غيره وهو إلى
الآن على ذلك.

وأما الحبس الجيوشي: فكان في اثنتين الشرقي والغربي.
ففي الشرقي: بهتين والأميرية والمنية وكنت تسجل هذه النواحي
بعين وفي الغربي: سفظ ونهيا ووسيم وهذه النواحي حبسها أمير الجيوش
بدر الجمالي على عقبه هي والبناتين ظاهر بناب الفتوح فلما مات وطال
العهد استأجرها الوزراء بأجرة بمسيرة طلبًا للقائدة ثم أدخلت في الديوان.
قال ابن المأمون في تاريخه: وجميع الحبستين المختصة بالورثة
الجيوشية مع البلاد التي لهم لم تزل فلما توفي الخليفة الأمر بأحكام الله
وجلس أبو عليّ بن الأفضل بن أمير الجيوش في الوزارة أعاد الجميع إلى
الملاك لكون نايبه في ذلك الأوفر.

فلما قتل واستبد الخليفة الحافظ لدين الله أمر بالقبض على جميع

الأملاك وحرّ الأحياس المختصة بأمر الجيوش فلم يزل يُنسب به لأنه غلام الأفضّل والنوزير في ذلك الوقت وعزّ المنك غلام الأزحد بن أمير انجيوش يتلطفان ويراجعان الخليفة مع الكتب التي أظهرها الورثة وعليها خطوط الخلفاء إلى أن أبقاها عليهم ولم يخرجها عنهم ثم ارتفعت الحوطة عنها في سنة سبع وعشرين وخمسمائة للديوان الحافض.

ولما خدم الخطير والمرتضى في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة في وزارة رضوان بن ولخشي أعاد البيسطين خاصة دون البلاد على الورثة بحكم ما آل أمرها إليه من الاختلال ونقص الارتفاع، ولما تقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق منه سوى امرأة كبيرة أفتى فقهاء ذلك العصر ببطلان الحبس فقبضت التواحي وصارت من جملة الأموال السلطانية فمنها ما هو اليوم في انديوان السلطاني ومنها ما صار وقفاً ورزقاً أحياسية وغير ذلك.

وأما دار الضرب: فكان بالقاهرة دار الضرب وبالإسكندرية دار الضرب وبقوص دار الضرب ولا يتولى عيار دار الضرب إلا قاضي القضاة أو من يستخلفه ثم رذلت في زمننا حتى صار يلبيها مسألة فسفة اليهود المصريين على انفسق مع ذعانتهم الإسلام وكان يجتهد في خلاص الذهب وتحرير عياره إلى أن أفسد الناصر فرج ذلك بعمل النناير الناصرية فجاعت غير خالصة وكانت بمصر للمعاملة بالورق فأبطلها الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب في سنة بضع وعشرين وضرِب الدرهم المدور الذي يقال له: الكاملي وجعل فيه من النحاس قدر الثلث ومن الفضة الثلثين ولم يزل يضرب بالقاهرة إلى أن أكثر الأمير محمود الاستادار من ضرب القلوس بالقاهرة والإسكندرية فبطنت الدراهم من مصر وصارت معاملة أهلها إلى اليوم بالقلوس وبها يقوم الذهب وسائر المبيعات ومياتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكر أسباب حرب مصر.

وكانت دار الضرب يحصل منها لسلطان مال كثير فقل في زماننا لفظة الأموال ودار الضرب اليوم جارية في ديوان الخاص.

وأما دار العيار: فكانت مكاناً يحتاط فيه لرعية وتصلح موازينهم ومكاييلهم به ويحصل منها للسلطان مال وجعلها السلطان صلاح الدين عن جملة أوقاف سور القاهرة وقد ذكرت في خطط القاهرة من هذا الكتاب.

وأما الأحكار: فإنها أجز مقررّة على ساحات بمصر والقاهرة فمنها ما صار دوراً للسكنى ومنها ما أنشئ بسائين وكانت تلك الأجز من جملة الأموال السلطانية وقد بطل ذلك من ديوان السلطان وصارت أحكار مصر والقاهرة وما بينهما أوقافاً على جهات متعدّدة.

وأما الغروس: فكانت في الغربية فقط عدّة أراض يؤخذ منها شبه التحكر عن كل فدان مقرر معلوم وقد بطل ذلك من الديوان.

وأما مقررّ الجسور: فكان على كل ناحية تقرير عدّة قطع معلومة يجبي منها عن كل قطعة عشرة دنائير لتصرف في عمل الجسور فيفضل منها مال كثير يحمل إلى بيت المال وقد بطل هذا أيضاً وجدّد الناصر فرج على الجسور حوادث قد ذكرت في أسباب الخراب.

وأما موظف الأتبان: فكان جميع تين أرض مصر على ثلاثة أقسام: قسم للديوان وقسم للمقطع وقسم للفلاح فيجبي اتين على هذا التحكم من سائر الأقاليم ويؤخذ في التين عن كل مائة حمل أربعة دنائير ومئس دينار فيحصل من ذلك مال كثير وقد بطل هذا أيضاً من الديوان.

وأما الخراج: فإنه كان في البهناوية وسنط ريشين والأشعونين والأسيوطية والأخمينية والقوصية: أشجار لا تحصى من سنط لها حراس يحمونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه وكان فيها ما تبلغ قيمة المعود الواحد منه مائة دينار.

وكان يستخرج من هذه النواحي ما يقال له: رسم الخراج ويحتج في جبايته بأنه نظير ما تقطعه أهل النواحي وتتفع به من أخشاب السنط في عمارتها ومقررّ آخر كان يجبي منهم يعرف بمقررّ السنط فيصرف من هذا المقررّ أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار وعلى

المستخدمين في ذلك أن لا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسطول لكنهم إنما يقطعون الأطراف التي ينفع بها في الوقود فقط ويقال لهذا الذي يقطع حطب النر فيباع على التجار منه كل مائة حمل بأربعة دنانير ويكتب على أيديهم زنة ما يبيع عليهم فإذا وردت المراكب بالحطب إلى ساحل مصر اعتبرت عليهم وقويل ما فيها بما عين في الرسالة الواردة واستخرج للثمن على ما في الرسالة وكانت العادة أنه لا يباع مما في البهنسا إلا ما فضل عن احتياج المصالح للسُلطانية وقد بطل هذا جميعه واستولت الأيدي على تلك الأشجار فلم يبق منها شيء أنبتة ونسي هذا من الديوان.

وأما القرض: فإنه ثمر شجر السنط وكان لا يتصرف فيه إلا الديوان ومتى وجد منه مع أحد شيء اشتراه من غير الديوان نكل به واستهلك ما وجد معه منه فإذا اجتمع مال للقرض أقيم منه مراكب تباع ويؤخذ من ثمنها الربيع عندما تصل إلى ساحل مصر بعدما تقوم أو يتأذى عليها وكان فيها حيف كبير وقد بطل ذلك.

وأما ما يستأدى عن أهل الذمة: فإنه كان يأخذ منهم عما يرد ويصدر معهم من البضائع في مصر والإسكندرية وأخميم خاصة دون بقية البلاد ضرائب بتقرير في الديوان وقد بطل ذلك أيضاً.

وأما مقرّر الجاموس ومقرّر بقر الخيس ومقرّر الأغنام: فإنه كان للسلطان من هذه الأصناف شيء كثير جداً فيؤخذ عن الجاموس ثلديوان على كل رأس من الراتب في نظير ما يتحصل منه في كل سنة من خمسة دنانير إلى ثلاثة دنانير ومن اللالحق بحق للنصف من الراتب وأقل ما تنتج كل مائة خمسون إلى غير ذلك من ضرائب مقرّرة على الجاموس وعلى أبقار الخيس وعلى الغنم البيض والغنم الشعري وعلى النحل وقد بطل ذلك جميعه نقلة مآل السلطان وإعراضه عن العمارة وأسبابها وتعاطي أسباب الخراب.

وأما المورثيت: فإنها في الدولة الفاطمية لم تكن كما هي اليوم من

أجل أن مذهبهم توريث نوبي الأرحام وأن أثبتت إذا انفردت استحكمت المال
يأجمعه فلما انقضت أيامهم واستوتت الأيوبية ثم انولة التركية صار من
جملة أموال السلطان مال المورث الحشوية وهي التي يستحقها بيت المال
عند الوارث فتعدل فيها للوزارة مرة وتظلم أخرى.

وأما المكوس: فقد تقدم حدوثها وما كان من الملوك فيها والذي بقي
منها إلى الآن بديار مصر يلي أمره الوزير وفي الحقيقة إنما هو نفع للأقباط
يتخوون فيه بغير حق وقد تضاعفت المكوس في زمننا عما كنا نعده منذ
عهد تحنت الأمير جمال الدين يوسف الإستاذ في الأموال السلطانية كما
ذكر في أسباب الخراب.

وأما للبراطيل: وهي الأموال التي تؤخذ من ولاية البلاد ومحسبها
وقضاتها وعمالها فأول من عمل ذلك بمصر: الصالح بن رزيق في ولاية
النواحي فقط ثم بطل وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحياناً وعمله
الأمير شيخون في الولاية فقط ثم أفحش فيه الظاهر برقوقى كما يأتي في
أسباب الخراب.

وأما الحماليات والممتأجرات: فشيء حدث في أيام الناصر فرج
وصار لذلك ديوان ومباشرون وعمل مثل ذلك الأمراء وهو من أعظم
أسباب الخراب كما يذكر في موضعه إن شاء الله تعالى.

ذكر الأهرام اعلم أن الأهرام كانت بأرض مصر كثيرة جداً منها
بناحية بوصير شيء كثير بعضها كبير وبعضها صغار وبعضها طين ولبن
وأكثرها حجر وبعضها منرج وأكثرها مخروط أمكن وقد كان منها بالجيزة
تجاه مدينة مصر عدة كثيرة كلها صغار هُدمت في أيام السلطان صلاح
الدين يوسف بن أبوب على يد قراقوش وبني بها قلعة الجبل والسور المحيط
بالقاهرة ومصر والقناطر التي بالجيزة.

وأعظم الأهرام الثلاثة التي هي اليوم قائمة تجاه مصر وقد اختلف
الناس في وقت بنائها وتسميتها والسبب في بنائها وقالوا في ذلك أقوالاً

متباينة أكثرها غير صحيح وساقص عليك من نياً ذلك ما يشفي ويكفي إن شاء الله تعالى.

نظام الجيش أثناء حكم المماليك

ذكر المقرئزي نظام الجيش في أثناء حكم المماليك في كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار - الجزء الأول - 21 / 167 فقال :

عساكر مصر في الدولة التركية على قسمين

أجناد الحلقة :

وأكثر ما كانت أجناد الحلقة في أيام الناصر محمد بن قلاوون فإنها بلغت على ما رأيتها في جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصري أربعة وعشرين ألف فارس ثم ما زالت تنقص حتى صارت اليوم مع قلة عدتها سواء منها الألف والواحد فإنها لا ترفع ولا تدفع وأما المماليك فإنها اليوم قليل عددها بحيث لو جمعت أجناد الحلقة مع المماليك السلطانية لا تكاد أن تبلغ خمسة آلاف فارس يصلح منها لأن يباشر القتال ألف أو نونها وهي اليوم قسمان: أجناد الحلقة والمماليك السلطانية.

والمماليك السلطانية :

والمماليك السلطانية ثلاثة أقسام: ظاهرية، وناصرية، ومؤيدية والمؤيدية ما بين حكمية ونوروزية ومن استجده المؤيد وإن خوفي ليكثر أن يكون الحال بعد انملك المؤيد أبي النصر شيخ خلد الله ملكه يتلشى إلى أن يزيد الله الملك بابه الأمير صارم الدين إبراهيم ثم الله به أزره فإنه فتح من البلاد الرومية ما لا ملكه أحد من ملوك مصر في الدولة الإسلامية قبله.

والشبل في المخبر مثل الأمد وابن السري إذا سري أسراهما.

ولا عمرو أن يحدو انفتى حدو والده بأبه اقتدى عدي في الكرم ومن

يشابه أليه فما ظلم إن الأصول عليها ينبت الشجر .

ثم لما ملك الأشرف برسبني صارت المماليك سبع طوائف: ظاهرية وناصرية ومؤيدية ونوروزية وحكمية وضطرية وأشرافية كن طائفة منها مباينة لجميعها فلذلك اضمحلت شوكتهم وانكسرت حدتهم وأمنت على السلطان غائلتهم ولم يخف ثورتهم لتفرقهم وإن كانوا مجتمعين وبقائهم وإن كانوا في الظاهر متفقين.

قيادة الجيش المملوكي والسلطين

المقريري، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : ' دار النيابة: كان بقاعة الجبل دار نيابة بناها الملك المنصور قلاوون في سنة سبع وثمانين وستمائة سكنها الأمير حسام الدين طرنتاي ومن بعده من نواب السلطنة وكانت النواب تجلس بشباكها حتى هدمها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وأبطل النيابة وأبطل الوزارة أيضًا فصار موضع دار النيابة ساحة فلما مات الملك الناصر أعاد الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره في نيابة السلطنة فلم تكمل حتى قبض عليه فولى نيابة السلطنة الأمير قوصون دار النيابة عند استقراره في نيابة السلطنة فلم تكمل حتى قبض عليه فولى نيابة السلطنة الأمير ضشتمر حمص آخر وقبض عليه فتولى بعد نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آق سنقر في أيام لملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون فجلس بها في يوم السبت أول صفر سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة في شباك دار النيابة وهو أول من جلس بها من النواب بعد تجديدها وتوارثها النواب بعده وكانت العادة أن يركب جيوش مصر يومي الاثنين والخميس في الموكب تحت القلعة فيسيرون هناك من رأس الصوة إلى باب القرافة ثم تقف العسكر مع نائب السلطنة وينادي على الخيل بينهم وربما نودي على كثير من آلات الجند والخيم والجراكوات والأسلحة وربما نودي على كثير من الحفار ثم يطلعون إلى الخدمة السلطانية بالإيوان بالقلعة على ما

تَقَدَّم ذكره فإذا مثل النائب في حضرة السلطان وقف في ركن الإيوان إلى أن تتقضى الخدمة فيخرج إلى دار النيابة والأمراء معه ويمد السباط بين يديه ما يمد سباط السلطان ويجلس جنوبًا عامًا للناس ويحضره أرباب الوظائف وتقف قدامه الحجاب وتقرأ القصص وتقدم إليه الشكاة ويفصل أمورهم.

فكان السلطان يكفي بالنائب ولا يتصدى لقراءة انقصص عليه وسماع الشكوى تعويلاً منه على قيام النائب بهذا الأمر وإذا قرئت القصص على النائب نظر فإذا كان مرسومه يكفي فيها أصدره عنه وما لا يكفي فيه إلا مرسوم السلطان أمر بكتبته عن السلطان وأصدره فيكتب ذلك وينبه فيه على أنه بإشارة النائب ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بكافل. لملكة الشريعة الإسلامية وما كان من الأمور التي لا بدّ نه من إحاطة علم السلطان بها فإنه إما أن يُعلمه بذلك منه إنيه وقت الإجتماع به أو يرسل إلى السلطان من يعلمه به ويأخذ رأيه فيه وكان ديوان الإقطاع وهو الجيش في زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب ولا اجتماع إلا به ولا يجتمع ناظر الجيش في زمان النيابة ليس لهم خدمة إلا عند النائب ولا اجتماع إلا به ولا يجتمع ناظر الجيش بالسلطان في أمر من الأمور فلما أبطل الملك الناصر محمد بن قلاوون النيابة صار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان واستمر ذلك بعد إعادة النيابة وكان الوزير وكاتب السر يراجعان النائب في بعض الأمور دون بعض ثم اضمحلت نيابة السلطنة في أيام الناصر محمد بن قلاوون وتلاشت أوضاعها فلما مات أعيدت بعده ولم تزل إلى إنشاء أيام الظاهر برفوق وأخر من رئيسها على أكثر قوانينها الأمير سودون الشيعي وبعده لم يل النيابة أحد في الأيام الظاهرية ثم إن الناصر فرج بن برفوق أقام أمير تمرار في نيابة السلطنة فلم يسكن دار النيابة في القلعة ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ولم يل النيابة بعد تمرار أحد إلى يومنا هذا وكانت حقيقة النائب أنه السلطان الثاني وكانت سائر نواب الممالك الشامية وغيرها تكاتبه في غالب ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما

يراجع السلطان وكان يستخدم الجند ويخرج الإقطاعات من غير مشاورة ويعين الأمر لكن بمشاورة السلطان وكان النائب هو الممتصرف المطلق. انتصرف في كل أمر فيراجع في الجيش والمان والخبر وهو البريد وكل ذي وظيفة لا يتصرف إلا بأمره ولا يفصل أمراً معضلاً إلا مراجعته وهو الذي يستخدم الجند ويرتب في الوظائف إلا ما كان منها جليلاً كالوزارة والقضاء وكتابة السرّ والجيش فإنه يعرض على السلطان من يصلح وكان قل أن لا يجاب في شيء يعينه وكان من عدا نائب السلطنة بديار مصر يليه في رتبة النيابة وكل نواب الممالك تخاطب بملك الأمراء إلا نائب السلطنة بمصر فإنه يسمى كاف الممالك تمييزاً له وبياناً عن عظيم محطه وبالْحَقِيقَةُ ما كان يستحق لسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط وإنما كانت النيابة تطلق أيضاً على أكابر نواب الشام وليس لأحد منهم من التصرف ما كن لنائب دمشق إلا أن نيابة السلطنة بطلب تلي رتبة نيابة السلطنة بدمشق وقد اختلت الآن الرسوم واتضعت الرتب وتلاشت الأحوال وعادت أسماء لا معنى لها وخيالات حاصلها عدم.

عادات وتقاليد الجيش المملوكي

المقريزي المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والأثر الجزء الثالث (531 من 761) : جيوش الدولة التركية زيتها وعوايدها اعلم أنه قد كان بقاعة الجبل مكان معد لديوان الجيش وأدركت منه بقية إلى أثناء دولة الظاهر برفوق وكان ناظر الجيش ومائر كتاب الجيش لا يبرحون في أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش وكانت لهذه الديوان عوايد قد تغير أكثرها ونسي غالب رسومه وكانت جيوش الدولة التركية بديار مصر على قسمين منهم من هو بحضرة السلطان ومنهم من هو في أقطار المملكة وبلادها وسكان يادبية كالعرب والتركماني.

وجندها مختلط من أتراك وحرکس وروم وأكرد وتركماني وغالبهم من المماليك والمبتاعين وهم طبقات وأكابرهم من له إمرة مائة فارس

وتقدمة ألف فارس ومن هذا القبيل تكون أكابر النواب وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين.

ثم أمراء الطبليخانة ومعظمهم ن تكون له إمرة أربعين فارسًا ولا يعدون في أمراء العشراوات.

ثم جند الحلقة وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان كما تُن مناشير الأمراء من السلطان وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم وكان منشور الأمير يعين فيه للأمير ثلث الإقطاع ولأجناده ثلثان فلا يُمكن الأمير ولا مباشره أن يشاركوا أحدًا من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم وكان الأمير لا يُخرج أحدًا من أجناده حتى يتبين للنايب موجب يقتضي إخراجهم فحينئذ يُخرجه نايب السلطان ويقيم عند الأمير عوضه وكان لكل أربعين جنديًا من جند الحلقة مقدم عليهم ليس نه عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر لقتال فكانت مواقف اوربعين مع مقدمهم وترتيبهم في موقفهم إليه ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر أمراء المنتهي المقدمين من السلطان مائتي ألف دينار جيشية وربما زاد على ذلك وأما غيرهم فنون ذلك يعبر أهلها إلى ثمانين ألف دينار وما حولها.

وأما الطبليخانة فمن ثلاثين ألف دينار إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار وأما العشراوات فأعلاها سبعة آلاف دينار إلى ما دونها وأما إقطاعات أجناد الحلقة فأعلاها ألف وخمسمائة دينار وهذا القدر وما حوله إقطاعات أعيان مقامي الحلقة ثم بعد ذلك الأجناد بابات حتى يكون أُناسهم مائتين وخمسين دينارًا وسيرد تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى وأما إقطاعات جند الأمراء فإنها على ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.

وأما إقطاعات الشام فإنها لا تقارب هذا بل تكون على الثلثين مما ذكرناه ما خلا نايب السلطنة بدمشق فإنه يُقارب إقطاعه أعلى إقطاعات أكابر أمراء مصر المقربين.

وجميع جند الأمراء تُعرض بديوان الجيش ويُتبت اسم الجندي

وحقيقته ولا يستبدل لميرته به غير إلا بتزليل من عوض به وعرضه.

وكانت للأمرء على السلطان في كل سنة ملابس ينعم بها عندهم
ولهم في ذلك حظ وافر ويُنعم على أمرء المئين بخيول مسرجة ملجمة ومن
عدهم بخيول عربي ويميز خاصتهم على عامتهم وان لجميع الأمرء من
المئين والطبخاناء والعشراوات على السلطان الرواتب الجارية في كل يوم
من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير لعليق الخيل والزيت.

ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة في كل سنة.

وكذلك لجميع ممالك السلطان وذوي الوظائف من انجند وكانت
العادة إذا نشأ لأحد الأمرء ولد أطلق له دناتير ولحم وخبز وعليق حتى
يتأهل للإقطاع في جملة الحلقة ثم منم من ينتقل إلى لبرة عشرة أو إلى لبرة
طبخاناه بحسب الحظ والتفق للأميرين طرنطزي وكتبغا أن كلا منهما زوج
ولده بابنة الآخر وعمل لذلك المهم العظيم ثم سأل الأمير طرنطزي وهو إذ
ذاك نائب السلطان الأمير بينك الأيمري والأمير طيرمن أن يسألا السلطان
الملك المنصور قلاون في الإنعام على ولده وولد الأمير كتبغا باقطاعين ي
الحلقة فقال لهما: والله لو رأيتهما في مصاف القتال يضربان بالسيف أو كنا
في زحف قدامي أستبجح أن أعطي لهما أخبازاً في الحلقة خشية أن يقال
أعطي الصبيان الأخباز ولم يجب سؤالهما هذا.

لكن كان الملك العادل نور الدين محمود بن زكي رحمه الله إذا
مات الجندي أعطى إقطاعه لوئده فإن كان صغيراً رتب معه من بني أمره
حتى يكبر فكان أجناده يقولون: الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا الولد عن
الوالد فنحن نقاتل عليها، وبه اقتدى كثير من ملوك مصر في ذلك.

ولأمرء المقدمين جوائز ذهب في وقت الركوب إلى الميدان ولكل
أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحنوي في شهر
رمضان ولسائرهم الأضحية في عيد الأضحى على مقادير رتبهم ونهم
البرسيم لتربيع دوابهم ويكون في تلك المدجة بدل العليق المرتب لهم وكانت

الخيول السلطانية تفرق على الأمراء مرتين في كل سنة مرة عندما يخرج السلطان إلى مرانط خيوله في الربيع عند اكتمال تربيعها ومرة عند لحيه بالأكرة في الميدان.

ولخاصة السلطان المقرين زيادة كثيرة من نلثك بحيث يصل إلى بعضهم في السنة مائة فرس ويفرق السلطان أيضًا الخيول على المماليك السلطانية في أوقات آخر وربما يُعطى بعض مقدمي الحلقة ومن نفق له فرس من المماليك يحضر من لحمه والشهادة بأنه نفق فيعطى بدله.

ولخاصة السلطان المقرين أنعم من الإنعامات كالعقارات والأبنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها زيادة عنى مائة ألف دينار ووقع هذا في الأيام الناصرية مرارًا كما ذكر عند ذكر النول من هذا الكتاب ولهم أيضًا كسوى القماش المنوع ولهم عند سفرهم إلى الصين وغيره العلوفاة والأنزال وكانت لهم آداب لا يخلون بها منها أنهم إذا أدخلوا إلى الخدمة بالإيوان أو القصر وقف كل أمير في مكانه المعروف به ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يحدث رفيقه في الخدمة ولا بكلمة واحدة ولا يلتفت إلى نحوه أيضًا ولا يجسر أحد منهم ولا من المماليك أن يجتمع بصاحبه في نزهة ولا في رمي الشباب ولا غير ذلك ومن بلغ السلطان عنه أنه اجتمع بأخر نفاة أو قبض عليه.

وأختلف زي الأمراء والعساكر في الدولة التركية وقد بينا ما كان عليه زيهم حتى غيره الملك المنصور قلاون عند ذكر سوق الشرايشيين وصار زيهم إذا دخلوا إلى الخدمة بالأقبية التنزبية والكلاوات فوقها ثم القباء الإسلامي فوقها وعليه تشد المنطقة والسيف.

ويتميز الأمراء والمقدمون وأعيان الجند بلبس اقبية قصيرة الأكمام فوق ذلك وتكون أكمامها أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كبير في قصر انكم والطول وعلى رؤوسهم كلهم كلونات صغار غالبها من الصوف المنطبي الأحمر وتضرب ويلف فوقها عمائم صغار ثم زادوا في قدر للكلونات وما

يُلفُّ فوقها في أيام الأمير بلبغا الخاصكيّ للقائم بدولة الأشراف شعبان بن حسين وعرفت بالكوتات الطرخانية وصاروا يسمون تلك الصغيرة نصرية فما كانت أيام الظاهر برقوق بالغوا في كبر الكوتات وعملوا في شدتها عوجًا وقيل لها كوتات جركنية وهم على ذلك إلى اليوم.

ومن زيهم نيس المهماز على الإخفاف ويُعمل للمندبل في الحيصة على التصولق من الجانب الأيمن ومعظم حوائص الممالك فضة وفيهم من كان يعملها من الذهب وربما عُملتُ بالنيشم وكانت حوائص أمراء المؤمنين الأكاير التي تخرج إليهم مع الخلع السلطانية من خزانة الخاص يُرصعُ ذهبها بالجواهر.

وكان معظم العسكر ينس الطراز ولا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس الطراز إلا من له إقطاع في الحلقة وأما من هو بالحامية أو من أجناد الأمراء فلا يكفت مهمازه بالذهب ولا يلبس طرازًا وكانت العسكر من الأمراء وغيرهم نلبس النوع من الكمخ والخطاي والكبخي والمخمل والإسكندراني والرب ومن انتصافي والأصواف الملونة.

ثم يصلُ نيس الحرير في أيام الظاهر برقوق واقتصرُوا إلى اليوم على لبس الصوف الملون في الشتاء وليس النصافي المصقول في الصيف. وكانت للعادة أن السلطان يتولى بنفسه استخدام الجند فإذا وقف قدامه من يطلب الإقطاع المحلول ووقع اختياره على أحد أمر ناظر الجيش بالكتابة نه فيكتب ورقة مختصرة تسمى المثان مضمونها حيز فلان كذا ثم يكتب فوقه اسم المستقر له ويناولها السلطان فيكتب عليها بخطه يكتب ويعطيها الحاجب لمن رُسم له فيقبلُ الأرض ثم يُعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ شاهدًا عندهم ثم تكتب مربعة مكملة بخطوط جميع مباشري ديوان الإقطاع وهم كتاب ديوان الجيش فيرسمون علاماتهم عليها ثم تُحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتب فيكتب المنشور ويُعلم عليه السلطان كما تقدّم ذكره ثم يكمل المنشور بخطوط كتاب ديوان الجيش بعد التعاقب على حجة أصله.

واستجد السلطان الملك المنصور قلاوون طائفة سماها البحرية وهي أن البحرية الصالحة لما تشنتوا عند قسّ الفارس قطاي في أيام المعز أيك بقيت أولادهم بمصر في حالة رذيلة فعندما أفضت السلطنة إلى قلاوون جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة ورسم أي كونوا جالسين على باب القنعة وسماهم البحرية وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية.

وأما البلاد الشامية فليس للنائب بالممكّة مدخل في تأمير أمير عوض أمير مات بل إذا مات أمير سواء كان كبيراً أو صغيراً طوع السلطان بموته فأمر عوضه إما ممن في حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة أو ممن هو في مكان الخدمة أو ينقل من بلد آخر من يقع اختياره عليه. وأما جند الحلقة فإنهم إذا مات أحدهم استخدم النائب عوضه وكتب المثال على نحو من ترتيب السلطان ثم كتب المربعة وجهازها مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل عليهم في ديوان الإقطاع ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها يكتب فتكتب المربعة من ديوان الإقطاع ثم يكتب عليها المنشور كما تقدّم في الجند الذين بالحضرة وإن لم يمضها السلطان أخرج الإقطاع لمن يريد.

ومن مات من الأمراء والجند قل استكمل مدة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق ثم إما يُرَجَعُ منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العنابة بهم وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء ومنها ما هو نقد على جهات يتاولها منها ولم يزل الحال على ذلك حتى رآك الملك الناصر محمد بن قلاوون البلاد كما تقدم في أوّل هذا الكتاب عند الكلام على الخراج ومبلغه فأبطل شدة جهات من المكون وصارت الإقطاعات كلها بلداً والذي استقرّ عليه الحال في إقطاعات الديار المصرية مما رتبته الملك الناصر محمد بن قلاوون في الروك الناصري وهو عدة الجيوش المنصورة بالديار المصرية أربعة وعشرون ألف فارس تفصيل

ذلك: أمراء الألوفا ومماليكهم ألفان وأربعمائة وأربعة وعشرون فارساً
تفصيل ذلك: نائب وزير وألوفا خاصكية ثمانية أمراء وألوفا خرجية
أربعة عشر أميراً ومماليكهم ألفان وأربعمائة فارس.

أمراء طبلخاناه ومماليكهم ثمانية آلاف ومائتا فارس تفصيل ذلك:
خاصكية أربعة وخمسون أميراً وخرجية مائة وستة وأربعون أميراً
ومماليكهم ثمانية آلاف فارس.

كشاف وولاية بالأقاليم خمسمائة وأربعة وسبعون تفصيل ذلك ثغر
الإسكندرية واحد والبحيرة واحد والغربية واحد والشرقية واحد والمنوفية
واحد وقطيا واحد وكاشف الجزيرة واحد والفيوم واحد والبهنسا واحد
والأشمونين واحد وقوص واحد واسوان واحد وكاشف الوجه البحري واحد
وكاشف الوجه القبلي واحد. ومماليكهم خمسمائة وستون.

وأمراء العنبروات ومماليكهم ألفان ومائتا فارس تفصيل ذلك
خاصكية ثلاثون وخرجية مائة وسبعون أميراً ومماليكهم ألفان.

ولاية الأقاليم سبعة سبعون أميراً تفصيلهم: أشمون الرمان واحد
وقنيوب واحد والجزيرة واحد وتروجا واحد وحاجب الإسكندرية واحد واطفيح
واحد ومنفلوط واحد ومماليكهم سبعون فارساً.

مقدموا الحلقة والأجناد أحد عشر ألفاً ومائة وستة وسبعون فارساً
تفصيل ذلك: مقدموا المماليك السلطانية أربعون مقدموا الحلقة مائة وثمانون
تعباء الألوفا أربعة وعشون نقيباً مماليك السلطان وأجناد الحلقة عشرة آلاف
وتسعمائة واثنان وثلاثون فارساً تفصيل ذلك: مماليك السلطان ألفاً مملوك
أجناد الحلقة ثمانية آلاف وتسعمائة واثنان وثلاثون فارساً.

عبارة ذلك الخاصكية الألوفا والنائب والوزير كل منهم مائة ألف
دينار وكل دينار عشرة دراهم الارتفاع ألف ألف درهم بما فيه من ثمن
الغلال كل أردب واحد من القمح بعشرين درهماً والحبوب كل أردب منها
بعشرة دراهم ومن ذلك انكف مائة ألف درهم وللخالص تسعمائة ألف

الألوف الخرجية كل منهم خمسة وثمانون ألف دينار كل دينار عشرة دراهم الإرتفاع ثمانمائة ألف وخمسون ألفاً بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه من ذلك الكنف سبعون ألف درهم والخالص لكل منهم سبعمائة وثمانون ألف درهم

نظام تنشئة العبيد المماليك إسلامياً وإعدادهم للحرب

المقريزي المواقظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : ' الطباق بساحة الإيوان: عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية حتى أن الملك المنصور قلاوون كان يخر في غالب أوقاته إلى الترحية عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويمر بعرضه عليه ويفقد لحصمهم وخبز طعامهم في جودته ورداعته فمتى رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار ونهرهما وحلّ بهما منه أي مكروه وكان يقول: كلّ الملوك عملوا شيئاً ينكرون به ما بين مال وعقار وأنا عمّرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة زني ولأولادي وللمسلمين وهم المماليك وكانت المماليك أبداً تقيم بهذه الطبقات لا تبرح فيها فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة ي النهار ولا يبتوا إلا بها فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ثم أن الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يرمض في الأمسوع فكانوا ينزلون بالتروبة سع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بني قلاوون وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة أولها أنه إذا تم بالملوك تاجره عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إلى من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بدآب اشريعة وملازمة الصلوات

والأنكار وكان الرسم إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار فإذا شب الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدّمه فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلّم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلى لعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلّم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى الشباب لا يجسر جند ولا أمير أن يحدثهم أو ينو منهم فينقل إثن إلى الخدمة وينقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه واستزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه وإثنت ساعده في رماية الشباب وحسن لعيه بالرمح ومرن على ركوب الخيل ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر هذا ولهم أزمّة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب يفحصون على حال الواحد منهم الفحص السافي ويواخذونه أشدّ المواخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه لو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه على أنه اقتترف ذنباً أو أخلّ برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قبله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه وبلغ من تأديبهم أن مقدّم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمي الطباق في السحر يشاور على مملوك أنه يختل من جنابة فيبعث من يكشف عن سبب جنابته كان من إحتلام فينظر في سراويله هل فيه جنابة أم لا فغن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كل مكان فلذلك كانوا سادة يدبرون للممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جارة أو تعدى وكانت لهم الإنزارات الكثيرة من اللحوم والأضعمة والحلوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعالي من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم على من قصدهم.

ثم لما كانت أيام الظاهر يرقوق راعى الحال في ذلك بعض الشيء

إلى أن زالت دولته في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة فلما عاد إلى المملكة رخص للمماليك في سكنى القاهرة وفي التزوج فزلوا من الطباق من القلعة وتكحوا نساء أهل المدينة واخلدوا إلى البطانة ونسوا تلك العوايد ثم ثلاثت الأحوال في أيام الناصر فرح بن برقوق وانقضت الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن ممالك انطباق مع قنة عندهم ورتب نكل واحد منهم في انيوم مبلغ عشرة نراهم ن الفوس فصار غذاؤهم في الغاب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره وهذا وبقي الجلب من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في عيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر على أن تسليم المماليك للقبه يُلّفهم بل يُتركون وشؤونهم قبلت الأرض غير الأرض وصالت المماليك السلطانية أرذن الناس وأنداهم وأخسهم قدرأ وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم عراضاً عن الدين ما فيهم إلا من هو أرنى من فرد وأص من فأرة وافسد من ذئب لاجرم أن خربت لرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسواء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتى أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه وبلغت عدة المماليك السلطانية ي أيام الملك المنصور قلاتون ستة آلاف وسبعمائة

أجناس المماليك

المقريزي المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والآثار الجزء الثالث (531 من 761) : " فأراد نبه الأشراف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف ملوك وجعلهم ضوائف فأفرد طائفتي الأرمن والجركس وسماها البرجية لأنه أسكنها في أبراج بالقلعة قبلت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقباق وأنزلهم بقاة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسفاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاقية ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاتون بطلب المماليك من بلاد

أزيك وبلاد تورييز وبلاد الروم وبيخاد وبعث في طلبهم وبنل الرغائب للتاجر في حملهم إليه ونفع فيهم الأموال العظيمة ثم أفاض على من يشتريه عنهم أنواع العطاء من عامة الأصناف نفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل أموالك في أطوار الخدم حتى يتكرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنائير في الشهر إلى عشرة دنائير ثم نقله من الجامكية إلى وظيفة من وظائف الخدمة بل اقتضى رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دقة واحدة فأثاء من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه حتى كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلى مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلى مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات المماليك في كل شهر إلى سبعين ألف درهم ثم تزايدت حتى صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة مائتين وعشرين ألف درهم.

توزيع إقطاعات على الأمراء

المعريزي المواقظ والاعتبار في ذكر الخطب والأثر الجزء الثالث (531 من 761) : ' الطبلخاناه الخاصكية : كل منهم أربعون ألف دينار كل دينار عشرة دراهم الارتقاع أربعمائة ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح فيه من ذلك الكلف خمسة وثلاثون ألف درهم والخالص لكل منهم ثلاثمائة وخمسة وستون ألف درهم.

الطبلخاناه الخرجية ثلاثون ألف دينار كل دينار ثمانية دراهم الارتقاع مائتان ألف وأربعون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح من ذلك الكلف سبعة آلاف درهم والخالص لكل منهم ثلاثة وتسعون ألف درهم.

العشراوات الخرجية كل منهم سبعة آلاف دينار كل دينار عشرة دراهم الارتقاع سبعون ألف درهم بما فيهم ثمن الغلال على ما شرح. من ذلك الكلف خمسة آلاف درهم والخالص لكل منهم خمسة وستون ألف درهم.

الكشاف لكلّ منهم عشرون ألف دينار كلّ دينار ثمانية دراهم
الارتفاع مائة ألف وستون ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح
من ذلك الكلفة خمسة عشر ألف درهم الولاية الاصطبلخاناه كلّ منهم خمسة
عشر ألف دينار كلّ دينار ثمانية دراهم الارتفاع مائة وعشرون ألف درهم
بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح من ذلك الكلف عشرة آلاف درهم
والخالص لكلّ منهم مائة ألف وعشرة آلاف درهم.

الولاية العشرانوات لكلّ منهم خمسة آلاف دينار كلّ دينار سبع دراهم
الارتفاع خمسة وثلاثون ألف درهم بما فيه من ثمن المغل على ما شرح من
ذلك الكلف ثلاثة آلاف درهم والخالص لكلّ منهم اثنان وثلاثون ألف درهم.

مقّمو مماليك السلطان كلّ منهم ألف ومائتا دينار كلّ دينار عشرة
دراهم الارتفاع اثنا عشر ألف درهم بما فيه من ثمن الغلال على ما شرح
من ذلك الكلف ألف درهم والخالص لكلّ منهم أحد عشر ألف درهم.

مقدّموا الحلقة كلّ منهم ألف دينار كلّ دينار تسعة دراهم الارتفاع
تسعة آلاف درهم بما فيه من ثمن الغلال من ذلك الكلف تسعمائة درهم
والخالص لكلّ منهم ثمانية آلاف درهم ومائة درهم.

نقباء الأتوف لكنّ منهم أربعمائة دينار كلّ دينار تسعة دراهم
الارتفاع ثلاثة آلاف وستمائة درهم بما فيه من ثمن الغلال من ذلك الكلف
أربعمائة درهم والخالص لكلّ منهم ثلاثة آلاف مماليك السلطان أغان بابة
أربعمائة مملوك لكلّ منهم ألف خمسمائة دينار كلّ دينار عشرة دراهم عنها
لأخسة عشرة ألف درهم بابة خمسمائة مملوك كل واحد ألف وثلثمائة دينار
سعره عشرة دراهم عنها ثلاثة عشر ألف درهم بابة ستمائة مملوك لكل
واحد ألف دينار عنها عشرة آلاف درهم.

اجناد الحلقة ثمانمئة آلاف وتسعمائة وإثنان وثلاثون فارما بابة ألف
وخمسمائة فارس لكلّ منهم تسعمائة دينة بسبعة آلاف درهم بابة ألف
وثلاثمائة وخمسين جندياً لكلّ منهم ثمانمائة دينار بثمانية آلاف درم بابة ألف

وثلاثمائة وخمسين جندياً كل منهم سبعمائة دينار عنها سبعة آلاف درهم.
بأية ألف وثلاثمائة جندي لكل منهم ستمائة دينار ستة آلاف درهم
بأية ألف وثلاثمائة كلهم بمسائة دينار بخمسة آلاف درهم.
بأية ألف ومائة جندي لكل منهم أربعمئة دينار بأربعة آلاف درهم
بأية ألف واثنين وثلاثين جندياً لكل منهم ثلاثمائة دينار سعر عشرة نراهم عنها
ثلاثة آلاف درهم.

وأرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزارة أمير السلاح
والدوادار والحجبة وأمير جنّدار والاستادار والمهندار وتقيب الجيوش
والولاية.

فلما مات الملك الناصر محمد بن قلاوون حدث بين أجناد الحلقة
نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها
فكثر الدخيل في الأجناد بذلك واشترت السوق والأرادل الإقطاعات حتى
صار في زمننا أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات وخرت منهم
أراضي إقطاعاتهم.

وأول ما حدث ذلك أن السلطان الملك الكامل شعبان بن محمد بن
قلاوون لما تسلطن في شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة تمكن
منه الأمير شجاع الدين أغرلوشان الدواوين واستجد أشياء منها المقايضة
بالإقطاعات في الحلقة والنزول عنها.

فكان من أراد مقايضة أحد بإقطاعه حمل كل منهما مالاً لبيت المال
يقرّر عليهما ومن اختار حيزاً بالحقة يزن على قدر عبرته في السنة ننانير
يحمها لبيت المال فإن كانت عبرة الحيز الذي يريده خمسمائة دينار في
السنة حمل خمسمائة دينار ومن أراد النزول عن إقطاعه حمل مالاً لبيت
المال بحسب ما يقرّر عليه اغرلو وأفرد لذلك ولما يؤخذ من طالبي
الوظائف والولايات ديواناً سماه ديوان البذل وكان يعين في المنشور الذي
يخرج بالمقايضة المبلغ الذي يقوم به كل من الجنديين وكان ابتداء هذا في

جمادى الأولى من السنة المذكورة فقام الأمراء في ذلك مع السلطان حتى رسم بإبطاله فلما ولي الأمير منجك اليوسفي الوزارة وسيره في المال فتح في سنة سبع وأربعين باب النزول والمقايضات فكان الجندي يبيع إقطاعه لكل من بذل له فيه مائلاً فأخذ كثير من العامة الإقطاعات فكان يبذل في الإقطاع مبلغ عشرين ألف درهم وأقل منه على قدر متحصله وللوزير رسم معلوم ثم منع من ذلك فلما كانت نيابة الأمير سيف الدين قبلاي في سنة ثلاث وخمسين مسمى أحوال الأجناد في المقايضات والنزولات فاشترى الإقطاعات الباعة وأصحاب التصانيع وبيعت بقدم الحلقة وانتدب لذلك جماعة عرفت بالتمهيسين بلغت عدتهم نحو الثلاثمئة مهيس وصاروا يطوفون على الأجناد ويرغبونهم في النزول عن إقطاعاتهم و المقايضة بها وجعلوا لهم على كل ألف درهم مائة درهم فلما فحش الأمر أبطل الأمير شيخون العمري النزولات والمقايضات عندما استقر رأس نوبة واستقل بتبدير أمور الدولة وتقدم لمباشري ديوان الجيش أن لا يأخذوا رسم المنشور والمحاسبة سوى ثلاثة نراهم بعدما كانوا يأخذون عشرين درهماً..

نظام الحكم ونوع الوزارات أثناء الإحتلال المملوكي

المقريزي المواعظ والاعتبار في ذكر الخطب والأثر الجزء الثالث (731 من 761) : " نظر الدولة : هذه الوظيفة يقال لمتوليها ناظر النظر ويقال له ناظر المال وهو يعرف اليوم بناظر الدولة وتسمى رتبته رتبة الوزارة فإذا غاب الوزير وتعطت الوزارة من وزير قام ناظر الدولة بتبدير الدولة وتقدم إلى شاة الدواوين بتحصيل الأموال وصرفها في النفقات والكلف واقتصر الملك انناصر محمد بن قلاوون على ناظر الدولة مدة أعوام من غير تولية وزير ومشى أمور الدولة على ذلك حتى مات ولا بد أن يكون مع ناظر الدولة مستوفون يضبطون كتابات المملكة وجزئياتها ورأس المستوفين مستوفي الصحة وهو يتحدث في سائر المملكة مصرًا وشامًا ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان فتكون تارة بما يعمل في البلاد وتارة

بالإطلاقات وتارة باستخدام كتاب في صغار الأعمال ومن هذا النحو وما يجري مجراه.

ديوان للظفر: وهي وظيفة جنيلة تلي نظر الدولة وبقية المستوفين كل منهم حديثه مقيد لا يتعدى حديثه قطراً من أقطار المملكة وهذا الديوان أعني ديوان الظفر هو أرفع دواوين المبان وفيه تثبت التواريخ والمراسيم السلطانية وكل ديوان من دواوين المال إنما هو فرع هذا الديوان وإليه يرفع حسابيه وتتأهل أسبابه وإليه يرجع أمر الاستيثار الذي يشتمل على أرزاق ذوي الأقاليم وغيرهم.

مياومة ومشاهرة ومسائنة من الرواتب وكانت أرزاق ذوي الأقاليم مشاهرة من مبلغ عين وغنة وكان لإعيانهم الرواتب الجزية في اليوم من اللحم بنوايله أو غير نوايله والخبز والعليق لدوابهم وكان لأكابرهم السكر والشمع والزيت والكموة في كل سنة والأضحية وفي شهر رمضان السكر والحلوى وأكثرهم نصيباً الوزير وكان معلومه في أشهر مائتين وخمسين ديناراً جيئية مع الأصناف المذكورة والغلة وتبلغ نظير المعلوم.

ثم ما دون ذلك من المعنوم لمن عدا الوزير وما دون نونه وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون ديناراً في كل شهر مضافاً لما بيدهم من المدارس التي يسترون من وقافها وكان أيضاً يُصرف على سبيل الصدقات الجارية والرواتب الدارة على جهات ما بين مبلغ وغنة وخبز ولحم زيت وكسوة وشعير هذا سوى الأرض من للتواحي التي يعرف المرتب عليها بالرزق الإحابسية وكانوا يتولون هذه المرتبات ابناً عن أب ويرثها الآخر عن أخيه وابن العم عن ابن العم بحيث أن كثيراً ممن مات وخرج نزاره من مرتبة لأجنبي لما جاء قريبه وقثم قصته يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه أعيد إليه ذلك المرتب ممن كان خرج باسمه.

نظر البيوت: كان من الوظائف الجليلة وهي وظيفة متوليها منوط بالأستادار فكل ما يتحدث فيه أستادار السلطان فإنه يشاركه في التحدث وهذا

كان أيام كون الأستادار ونظيره لا يتعدى بيوت السلطان وما تقدم ذكره فأما منذ عظيم قدر الأستادار ونفذت كلمته في جمهور أموال الدولة فإن نظير النبوت اليوم شيء لا معنى له.

نظر بيت المال: كان وظيفة جليلة معتبرة وموضع متوليها التحدث في حمول المملكة مصرًا وشامًا إلى بيت المال بقتعة الجبل وفي صرف ما ينصرف منه نازة بالوزن ونازة بالتسيب بالأقلام وكان أبدأ يصعد ناظر بيت المال ومعه شهود بيت المال وصيرفي بيت المال وكاتب المال إلى قلعة الجبل ويجلس في بيت المال فيكن له هناك أمر ونهي وحال جليلة نكثرة الحمول الواردة وخروج الأموال المصروفة في انرواتب لأهل الدولة وكانت أمرًا عظيمًا بحيث أنها بنغت في السنة نحو أربعمائة ألف دينار وكان لا يلي نظر بيت المال إلا من هو من ذوي العدالات المبرزة ثم تلاشى المال وبيت المال وذهب الاسم والسمي ولا يعرف انيوم بيت المال من القلعة ولا يُدري ناظر بيت المال من هو.

نظر الإصطبلات: هذه الوظيفة جليلة القدر إلى اليوم وموضعها الحديث في أموال الإصطبلات والمناخات وعتيقها وأرزاق من فيها من المستخدمين وما بها من الاستعمالات والإطلاق وكل ما يتباع لها أو يتباع بها وأول من استجدها الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو أول من زاد في رتبة أميرأخور واعتنى بالأوجاقية والعرب الركابية وكان أبوه المنصور قلاوون يرغب في خيل برقة أكثر من خيل العرب زينة بخلاف الناصر محمد فإنه شغف باستدعاء الخيول من عرب آل مهنا وآل فضل وغيرهم وبسببها كان يباليغ في إكرام العرب ويرغبهم في أثمان خيولهم حتى خرج عن الحد في ذلك فكثرت رغبة آل مهنا وغيرهم في طلب خيول من عداهم من العربان وتتبعوا عتاق الخيل من مظانها وسمحوا بدفع الأثمان الزائدة على قيمتها حتى أنتهم طوائف للعرب بكرائم خيولهم فتمكنت آل منا من السلطان وبلغوا في أيامه الرتب العلية وكان لا يحب خيول برقة وإذا أخذ

منها شيئاً أعدته للتفرقة على الأمراء البرّانيين ولا يُسمح بخيول آل مهنا إلا لأعزّ الأمراء وأقرب الخاصكية منه وكان جيد المعرفة بالخيل شيئاً وأسابها لا يزال يذكر أسماء من أحضرها إليه ومبلغ ثمنها فلما اشتهر عنه ذلك جلب إليه أهل البحرين والحساء والقطيف وأهل الحجاز والعراق كرائم خيولهم فدفعت لهم في الفرس من عشرة آلاف درهم إلى عشرين إلى ثلاثين ألف درهم عنها ألف وخمسمائة مقال من الذهب سوى ما ينعم به على مالكة من الثياب الفاخرة له ولتسائه ومن السكر ونحوه فلم يبق ضائقة من العرب حتى قادت إليه عتاق خيلها وبلغ من رغبة السلطان فيها أنه صرف في أثمانها دفعة واحدة من جهة كريم الدين ناظر الخاص ألف ألف درهم في يوم واحد وتكرّر هذا منه غير مرة وبلغ ثمن الفرس الواحد من خيول آل مهنا السنين ألف درهم والسبعين ألف درهم واشترى كثيراً من الحجور بالثمانين ألفاً والتسعين ألفاً واشترى بنت الكرشاء بمائة ألف درهم عنها خمسة آلاف مقال من الذهب هذا سوى الإعانات بالضياع من بلاد الشام وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقد ما بنفسه فهذا أصيب منها فرس أو كبير سنة بعث به إلى الجشاز وتزى التحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتب الإصطبل توثيق تاريخ نزوها واسم الحصان والحجر فتواتت عنده خيول كثيرة اغتنى بها عن الجلب وسع ذلك فلم تكن عنده في منزلة ما يُجلب منها وبهذا ضيقت سعادة آل مهنا وكثرت أموالهم وضياعهم فعزّ جانبهم وكثر عددهم وهابهم من سواهم من العرب وبلغت عدّة خيول الجشارات في أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس وكان يعرضها في كل سنة ويدوّخ أولادها بين يديه ويُسلمها للعربان الركابية ويُنعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها ويتججج بها ويقول: هذه أفلانة بنت فلان وهذا فلان بن فلانة وعمره كذا وشراء أم هذا كذا وكذا كان لا يزال يؤكد على الأمراء تضمير الخيول ويلزم كل أمير أن يضمّر أربعة أفراس ويتقدّم لأمير آخر أن يضمّر للسلطان عنة منها ويوصيه بكتمان خبرها ثم يشيع أنها لأيدعش

أمير اخور ويرسلها مع الخيل في حلبه السباق خشية أن يسبقها فرس أحد من الأمراء فلا يحتمل ذلك فإنه ممن لا يطيق شيئاً ينقص ملكه وكان السباق في كل سنة بميدان انقبى ينزل بنفسه وتحضر الأمراء بخيولها المضمرة فاتفق أنه كان عند الأمير قطلو بغا الفجري حصان ادغم سبق خير مصر كلها في ثلاث سنين متوالية أيام السباق وبعث إليه الأمير مهنا فرمنا شهباء على أنها إن سبقت خيل مصر فهي للسلطان وإن سبقها فرس رنت إليه ولا يركبها عند السباق إلا بدوي قادها فركب السلطان للسباق في أمرائه على عادته ووقف معه سليمان وموسى ابنا مهنا وأرسلت الخيول من بكرة الحاج على عادتها وفيها فرص مهنا وقد ركبها البدوي عرياً بغير سرج فأقبلت سائر الخيول تتبعها حتى وصلت المدى وهي عري بغير سرج والبدوي عليها بقميص وطاقيه فلما وقفت بين يدي السلطان صاح البدوي: السعادة لك اليوم يا مهنا لا شقيت.

فشق على السلطان أن خينه سبقت وأبطل التضمير من خيله وصارت الأمراء تضمر على عادتها ومات اناصر محمد عن أربعة آلاف وثمانمائة فرس وترك زيادة على خمسة آلاف من النهجن الأصائل والنوق المهرية والقرشيات سوى أتباعها.

وبطل بعده السباق فلما كانت أيام الظاهر برفوق عني بالخيول أيضاً ومات عن سبعة آلاف فرس وخمسة عشر ألف جمل.

ديوان الإنشاء: وكان بجوار قاعة الصاحب بقلعة الجبل ديوان الإنشاء يجلس فيه كاتب السر وعنده موقعو الدرج وموقعو الدست في أيام المواكب طول النهار ويحمل إليهم من المطبخ السلطاني المطاعم وكانت الكتب الواردة وتعليق ما يكتب عن الباب السلطاني موضوعة بهذه القاعة وأنا جلست بها عند القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمري أيام مباشرتي التوقيع السلطاني إلى نحو السبعين والسبعمائة فلما زالت دولة الظاهر برفوق ثم عاة اخضت أمور كثيرة منها أمر قاعة الإنشاء بالقلعة

وهُجرت وأخذ ما كان فيها من الأوراق وبيعت بالقنطاريون وبسي رسمها وكتابة السرّ رتبة قديمة ولها أصل في السنة فقد خرج أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني في تاب المصاحف من حديث الأعمش عن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد فهل تستطيع أن تُعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية" فقلت نعم.

قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة ولم يزل خلفاء الإسلام يختارون كتابة سرهم الواحد بعد الواحد وكان موضوع كتابة السرّ في الدولة التركية على ما استقرّ عليه الأمر في أيام الناصر محمد بن قلاوون أن أمثوليها المسمى بكتاب السرّ وبصاحب ديوان الإنشاء ومن الناس من يقول ناظر ديوان الإنشاء قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ما بخطه أو بخط كتاب الدست أو كتاب الدرج بحسب الحال وله تفسير الأجوبة بعد أخذ علامة السلطان عليها وله تصريف المراسيم وروداً وصدوراً وله الجلوس بين يدي السلطان بدار العدل لقراءة القصص والتوقيع عليها بخطه في المجلس.

فصار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة وصار إليه للتحدث في مجلس السلطان عندما عقد المشورة وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب إليه عند الاختلاف أو التنبير وإليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصرًا وشامًا فيمضى من أمورهم ما أحب ويشاور السلطان فيما لا بد من مشورته فيه وكانت العادة أن يجلس تحت الوزير فلما عظم تمكن انقاضي فتح الدين فتح الله كاتب السرّ من الدولة جنس فوق الوزير صاحب سعد الدين إبراهيم البشيرى فاستمرّ ذلك لمن بعده ورتبة كاتب السرّ أجلّ الرتب وذلك أنها منزلة من الملك.

فإن الدولة العباسية صار خنفاؤها في أول أمرهم منذ عهد أبي العباس السفاح إلى أيام هارون الرشيد يستبدون بأمرهم فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكي فصار يحيى يوقع على رفاق الرافعين بخطه في الولايات وإزالة الظلمات وإطلاق الأرزاق والعطيات فجأت لذلك ركبته وعظمت من الدولة مكانته وكان هو أول من وقع من وزراء خلفاء بني العباس وصار من بعده من الوزراء يوقعون على القصص كما كان يوقع وربما انفرد رجل بديوان السرّ وديوان الترسل ثم أفردت في أخريات دولة بني العباس واستقل بها كتاب لم يبلغوا مبلغ الوزراء وكانوا يبغذون يقال لهم كتاب الإنشاء وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء ويطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء وتارة كاتب السرّ ومرجع هذا الديوان إلى الوزير وكان يقال له الديوان العزيز وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء.

وكان في الدولة السنجوقية يُسمى ديوان الإنشاء بديوان الطغرا وإليه ينسب مؤيد الدين الطغراي والطغراهي طرة المکتوب فيكتب أعلى من البسمة بقلم غليظ القالب انملك وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغني بها عن علامة السلطان وهي نغطة فارسية وفي بلاد المغرب يقال لرئيس ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلى وأما مصر فإنه كان بها في القديم لما كانت دار إمارة ديوان البريد ويقال لمتوئيه صاحب البريد وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب وهو الذي يطالع بأخبار مصر وكان الأمراء مصر كتب يتشئون عنهم الكتب والرسائل إلى الخليفة وغيره فلما صارت مصر دار خلافة كان القائد جوهر يوقع على قصص الرافعين إلى أن قدم المعز لدين الله فوقع وجعل أمر فوض العزيز بالله أمر الوزارة ليعقوب بن كلس فاستبدت بجميع أحوال المملكة وجرى مجرى يحيى بن جعفر البرمكي وكان يوقع.

ومع ذلك ففي أمراء الدولة من يلي للبريد وجرى الأمر فيما بعد

على أن الوزراء يوقعون وقد يوقع الخليفة بيده فلما كانت أيام المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر وصرف أبا جعفر محمد بن جعفر بن المغربي عن وزارته أفرد له ديان الإنشاء فوليه مدة طويلة وأدرك أيام أمير الجيوش بدر الجمالي وصار يني ديوان الإنشاء بعده الأكبر إلى أن انقضت الدولة وهو بيد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي النيساني فاقتنت بهم الدولة الأيوبية ثم الدولة التركية في ذلك وصار الأمر على هذا إلى اليوم وصار من متولي رتبة كتابة السرّ أعظم أهل الدولة إلا أنه في الدولة التركية يكون معه من الأمراء واحد يقال له الدوانرا منزله منزلة صاحب البريد في الزمن الأوّل ومنزلة كاتب السرّ منزلة صاحب ديوان الإنشاء إلا أنه يتميز بالتوقيع على الفصص تارة بمراجعة السلطان وتارة بغير مراجعة فذلك يحتاج إليه سائر أهل الدولة من أرباب السيوف والأقلام ولا يستعني عن حسن سفارته نائب الشام فمن دونه والله الأمر كله.

وأما في الدولة الأيوبية فإن كتاب الدرج كانوا في الدولة الكاملية قليلين جدًا وكانوا في غاية الصبينة والنزاهة وقلة الخلطة بالناس وأتفق أن صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير كان من جملةهم فسمع الملك للصالح نجم الدين أيوب عنه أنه يحضر في السماعات فصرفه من ديوان الإنشاء وقال: هذا الديوان لا يحتمل مثل هذا.

وكانت العادة أن لا يحضر كتاب الإنشاء الديوان يوم الجمعة فعرض لملك الصالح في بعض أيام الجمع شغل مهم فطلب بعض الموقعين فلم يجد أحدًا منهم فقيل له أنهم لا يحضرون يوم الجمعة فقال: استخدموا في الديوان كاتبًا نصرانيًا يقعد يوم الجمعة لمهم يطرأ فاستخدم الأمد بن العسال كاتب الدرج لهذا المعنى.

نظر الجيش: قد تقدّم أنه كان يجلس بالقلعة دواوين الجيش في أيام للموكب وتقدّم في ذكر الإقطاعات وذكر النبذ ما يدل على حال متولي نظر الجيش ولا بدّ مع ناظر الجيش أن يكون من المستوفين من بضبط

كِنِيَّاتِ الْمَمْلَكَةِ وَجَزْئِيَّاتِهَا فِي الْإِقْطَاعَاتِ وَغَيْرِهَا.

نَظَرَ الْخَاصِّ: هَذِهِ الْوَضِيفَةُ وَإِنَّ كَانَ لَهَا نَكَرٌ قَدِيمٌ مِنْ عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الْفَاعِظِيِّينَ فَإِنَّ مَتَوَلِّيَهَا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ جِلَالَةِ الْقَدْرِ مَا بَلَغَ إِلَيْهِ فِي الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ وَبِذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ النَّاصِرَ مُحَمَّدَ بْنَ قَلَاوُونَ لَمَّا أَبْطَلَ الْوِزَارَةَ وَأَقَامَ الْقَاضِيَّ كَرِيمَ أُنْدِينِ الْكَبِيرَ فِي وَضِيفَةِ نَظَرِ الْخَاصِّ صَارَ مُتَحَدِّثًا فِيمَا هُوَ خَاصٌّ بِمَالِ السُّلْطَانِ يَتَحَدَّثُ فِي مَجْمُوعِ الْأَمْرِ الْخَاصِّ بِنَفْسِهِ وَفِي الْإِقْيَامِ بِأَخْذِ رَأْيِهِ فِيهِ فَبَعَثَ تَحَدُّثَهُ فِيهِ وَيَسْبِبه كَأَنَّهُ هُوَ الْوَزِيرُ لِقَرْبِهِ مِنَ السُّلْطَانِ وَزِيَادَةِ تَصَرُّفِهِ.

وَإِلَى نَظَرِ الْخَاصِّ التَّحَدُّثُ فِي الْخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَكَانَتْ بِقَعَّةِ الْجَبَلِ وَكَانَتْ كَبِيرَةً الْوَضِعِ لِأَنَّهَا مُسْتَوْدَعُ أَمْوَالِ الْمَمْلَكَةِ وَكَانَ نَظَرُ الْخِزَانَةِ مَنْصِبًا جَلِيلًا إِلَى أَنْ اسْتَحْدِثَتْ وَضِيفَةُ نَظَرِ الْخَاصِّ فَضَعُفَ أَمْرُ نَظَرِ الْخِزَانَةِ وَأَمْرُ الْخِزَانَةِ أَيْضًا وَصَارَتْ تُسَمَّى الْخِزَانَةَ الْكَبِيرَى وَهُوَ اسْمُ الْكَبِيرِ مِنْ مَسْمَاهُ وَلَمْ يَبْقَ بِهَا إِلَّا خَلْعٌ يُخْلَعُ مِنْهَا أَوْ مَا يَحْضُرُ عَلَيْهَا وَيَصْرَفُ أَوْثَانًا فَأَوْثَانًا وَصَارَ نَظَرُ الْخِزَانَةِ مُضَافًا إِلَى نَظَرِ الْخَاصِّ وَكَانَ الرَّسْمُ أَنْ لَا يَلِي نَظَرَ الْخِزَانَةِ إِلَّا الْقَضَاةُ أَوْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ وَمَا بَرَحَتْ الْخِزَانَةُ بِقَعَّةِ الْجَبَلِ حَتَّى عَمِلَهَا الْأَمِيرُ مَنْطَاشُ سَجْنًا لِمَمَالِيكِ الظَّاهِرِ بَرْقُوقٍ فِي سَنَةِ تَسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ فَتَلَاثَتِ مِنْ حِينِئذٍ وَنُسِيَ أَمْرُهَا وَصَارَتْ الْخَلْعُ وَنَحْوُهَا عِنْدَ نَظَرِ الْخَاصِّ فِي دَارِهِ وَكَانَتْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ فِي الْخَلْعِ عَوَائِدٌ وَهَمَّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَالْعُلَمَاءِ فَأَمَّا أَرْبَابُ السُّيُوفِ فَكَانَتْ خَلْعُ الْكَبِيرِ أَمْزَاءَ الْمَتِينِ الْأَطْلَسِ الْأَحْمَرَ الرَّومِيَّ وَتَحْتَهُ الْأَطْلَسُ الْأَصْفَرَ الرَّومِيَّ وَعَلَى الْاَثُوقَانِيَّ طَرِزُ زُرْكَشِ ذَهَبٍ وَتَحْتَهُ سَنَجَابٌ وَلَهُ سَجْفٌ مِنْ ظَاهِرِهِ مَعَ الْغَشَاءِ قَنْدَسٌ وَكَلْوَتَةٌ زُرْكَشِ بَذْهَبٍ وَكَلَالِيْبُ ذَهَبٍ وَشَاشٌ لِأَنْمَنِ رَفِيعٌ مُوَصُولٌ بِهِ فِي طَرَفِيهِ حَرِيرٌ أَلْبِيضٌ مَرْقُومٌ بِأَنْقَابِ السُّلْطَانِ مَعَ نَقُوشِ بَاهِرَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْمَلُونِ مَعَ مَنْطَقَةِ ذَهَبٍ ثُمَّ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ الْمَنْطَقَةِ بِحَسَبِ مَقَادِيرِهِمْ فَأَعْلَاهَا مَا عُمِلَ بَيْنَ عَمْدِهَا بِوَاكِبِرِ وَسَطَى وَمَجْنِبَتَانِ بِالْبَلْخَسِ وَالزَّمْرَدِ وَاللُّؤْلُؤِ ثُمَّ مَا كَانَ بِيكَارِيَّةً وَاحِدَةً مَرْصَعَةً ثُمَّ مَا كَانَ بِيكَارِيَّةً وَاحِدَى غَيْرَ مَرْصَعَةٍ.

وأما من تقلد ولاية كثيرة منهم فإنه يزداد شيئاً محلياً يذهب يحضر من السلاح خاناه وبحليه ناظر الخلوص ويزاد فرساً مسرجاً ملجماً بكنبوش ذهب وافر من الإصطبل وقماشه من التركيب خاناه ومرجع العمل في سروج الذهب والكنابيش إلى ناظر الخاص.

وكان رسم صاحب حماه من أعلى هذه الخلع ويُعطي بدل الشاش اللاتس شاش من عمل الإسكندرية حرير شبيه بالطول ويُسج بالذهب يُعرف بالمشر ويُعطي فرسين أحدهما كما ذكر الآخر يكون عوض كنبوشه زنباري أطلنص أحمر وكانت لثائب الشام على ما استقر في أيام ودون هذه الترتيب في الخلع نوع يُسمى طرزوحش يُعمل بدار الطراز التي كانت بالإسكندرية وبمصر وبمشق وهو مجوَّح جانحات كتابة بألقاب السلطان وجانحات طرزوحش وجانحات أون بقصب مذهب يفصل بين هذه الجانحات نفوش وطراز هذا يكون من النقصب وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازاً مزركشاً بالذهب وعليه فرس سنجاب وقدسكما تقدّم وتحت انقباء الطرزوحش قباء من المفترج الإسكنداري الطرح وكنوتة زركش بكلايب وشاش على ما تقدّم وحياسة ذهب فتارة تكون بيكارية وتارة لا يكون بها بيكارية وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم.

ودون هذه الترتيب في الخلع كمخاً عليه نقش من لون آخر غير لونه وقد يكون من نوع لونه يتفاوت بينهما وتحت سنجاب بقندس والبقية كما تقدّم إلا أن الحياسة والشاش لا يكونان بأطراف رقم بل تكون مجوَّحة بأخضر وأصفر مذهب والحياسة لا تكن بيكارية.

ودون هذه المرتبة كمخاً تكون واحدة بسنجاب مقدس والبقية على ما ذكر وتكون الكنوتة خفيفة الذهب وجانبها يكاد أن يكونان خاليين بالجملة ولا حياسة له.

ودون هذه الترتيب مجوِّم لون واحد والبقية على ما ذكر خلا الكنوتة

والكلايب.

ودون هذه الرتبة مجوم مقدس وهو قباء ملون بجاخذت من أحمر وأخضر وأزرق وغير ذلك من الألوان بسنجاب مقدس وتحت قباء إما أزرق أو أخضر وستن أبيض بأطراف من نسبة ما تقدم ذكره ثم دون هذا من هذا النوع.

وأما الوزراء والكتّاب فأجل ما كانت خلعهم الكمخا الأبيض المطرز برقم حرير ساذج وسنجاب مقدس وتحت كمخا أخضر وبقيار كان من عمل دمياط مرفوم وطرحه.

ثم دون هذه الرتبة عدم السنجاب بل يكون القندس بدائر انكمن وطول الفرج ودونها ترك الطرحة ودونها أن يكون التختاني مجوماً ودون هذا أن يكون الفوقاني من الكمخا لكنه غير أبيض ودونه أن يكون الفوقاني مجوماً أبيض ودونه أن يكون تحت عنابي.

وأما القضاة والعلماء فإن خلعهم من انصوف بغير طراز ولهم الطرحة وأجلهم أن يكون أبيض وتحت أخضر ثم ما دون ذلك وكانت العادة أن أهية الخطباء وهي السواد تحمل إلى الجوامع من الخزنة وهي دنق منور وشاش أسود وطرحة سوداء وطمن أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب وثياب المبلغ قدام الخطيب مثل ذلك خلا الطرحة وكانت العادة إذا خلقت الأهية المذكورة أعيدت إلى الخزنة وصرف عوضها وكانت لسلطان عادات بالخلع: تارة في ابتداء سلطنته وتشمل حينئذ الخلع سائر أرباب المملكة بحيث خلع في يوم واحد عند إقامة الأشراف كجك بن الناصر محمد بن قلاوون ألف ومائتا تشریف في وقت لعبه بالكرة على أناس جرت عوايدهم بالخلع في ذلك الوقت كالحوكندارية والولادة ومن نه خدمة في ذلك وتارة في أوقات انصيد عندما يسرح فإذا حصل أحد شيئاً مما يصيده خلع عليه وإذا أحضر أحد غزاةً أو بعامةً خلع عليه قباء مسجفاً مما يناسب خلعة مثله على قدره وكذلك يخلع على اليزدارية وجملة للجوارح ومن يجري مجراهم عند كل صيد.

وكانت العادة أيضاً أن ينعم على العُلمان الطشت خاناه و الشراب خاناه و الفرائش خاناه و من يجزي مجراهم في كل سنة عند أولان الصيد. و كانت العادة أن من يصل إلى الباب من البلاد أو يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى إليه أن ينعم عليه من الخلع بأنواع الإدارات و الأرزاق و الإعتمات و كذلك التجار الذين يصلون إلى السلطان و يبيعون عليه لهم من الخلع الرواتب الدائمة من الخبز و اللحم و التوابل و الحلوى و العقيق و المسامحات بنظير كل ما يباع من الرقيق المماليك و الجوارى مع ما يُسمحون به أيضاً من حقوق أخرى تطلق و كل واحد من التجار إذا باع على السلطان رنو رأساً واحداً من الرقيق فله خلعة مكملة بحمسه خارجاً عن الثمن و عما يُنعم به عليه أو يسفر به من مال السبيل على سبيل القرض ليُتاجر به.

و أما جلابة الخيل من عرب الحجاز و الشام و البحرين و بركة و بلاد المغرب فإن لهم الخلع و الرواتب و العوفات و النزال و رسوم الإقامة خارجاً عن مسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارة يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول و كان ينمنُ الفرس بأزيد من قيمته حتى ربما بعن ثمنه على السلطان الذي يأخذه محضره نظير قيمته عليه عشر مرات غير الخلع و مسائر ما ذكر و لم يبق اليوم سوى ما يخلع على أرباب الدولة و قد استجدت في الأيام الظاهرية و كثر في أيام الناصر فرج نوع من الخلع يُقال نه الجبة يلبسه الوزير و نحوه من أرباب الرتب العلية جعلوا ذلك ترفعاً عن لبس الخلعة و لم تكن للملوك تلبس من الثياب إلا المتوسط و تجعل حوائصها بغير ذهب فلم تزد حياصة الناصر محمد على مائة درهم فضة و لم يزد أيضاً بسقط سرجه على مائة درهم فضة على عباة صوف تدمري أو شامي فلما كانت بولة أولاده بالغوا في الترف و خالفوا فيه عوايد أسلافهم ثم سلك الظاهر برفوق في ملايسه بعض ما كان عليه الملوك الأكبر لا كله و ترك لبس الحرير.

كلمات ووظائف كانت موجودة في عصر المماليك

برنق /رنك

رنك ترمز إلى شعاع أو إشارة

'رنك' أو 'رنق' هي كلمة فارسية تعني باللغة العربية لون ولكن ظل نطقها الفارسي يستعمل في اللغة العربية كما هي 'رنك'. استخدمت هذه الكلمة في عصر المماليك لترمز إلى شاراتهم. وكانت هذه الشارات أو الشعارات تستعمل كختم أو علامة ترمز إلى السلطان أو الأمير وتوضع على جميع ممتلكاته وعندما يراها أي شخص يعرف لمن هذا المكان. وكانت هذه الشارات بمثابة شعار لسلطنة أو للأمير تميزه عما مواء سواء أكان في عصرة أو كان قبله أو بعده في الحكم

أولاً : وكان في الأغلب ذات لون واحد ثم ألون متعددة وذلك استخدمت كلمة بمعنى 'لون' لترمز إليها .

ثانياً : ثم أخذت عليها أشكال حيوانات

ورنك الظاهر ببيرس. ينقسم اسمه إلى مقطعين بي - بيرس بمعنى رئيس الفهود في إحدى اللهجات التركية. ولذلك استخدم ببيرس الفهود التي توضع غالباً متخالفة وفي موقف قتال . أو شكل طيور مثل النسور

توجد بعض الأثلة على استخدام الرنوك (جمع رنك) في العصر الأيوبي ولكن أنتشرت في العصرين المملوكيين (المماليك البحرية والمماليك البرجية أو الشراكسة) وهذه الشعارات كانت تستخدم أيضاً في أوروبا في ذلك الوقت وربما أنتقلت فكرتها من هناك حيث كان في وقتها حروب الفرنجة..

يرمز الرنك إلى وظيفة الأمير أما السلطان فقد يستخدم رنكاً خاصاً أو يحتفظ برنكه كأمرير. في الغالب كان يستخدم السلطان رنكاً كتابياً عادة ما كانت الرنوك توضع داخل دائرة

ثالثاً : الرنوك التي ترمز للوظائف فمنها :

- مثلاً رنك --

** رنك الدوادار Dawadar نواة يرجع تاريخها إلى عصر

المماليك

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : " الدوادار : وهو لقب على الذي يحمل نواة السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولى أمرها مع ما ينضم إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال. وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو الدواة، والمراد التي يكتب منها. والثاني فارسي وهو دار، ومعناه ممسك.

** رنك الساقى Cup - Sari

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "الساقى: وهو لقب على الذي يتولى من السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب بعد رفع السماط، ونحو ذلك. وكأنه وُضع في الأول لسقي المشروب فقط ثم استحدثت له هذه الأمور الأخرى تبعاً. ويجوز أن يكون لقب بذلك لأن سقي المشروب آخر عمله الذي يختم به وظيفته.

** رنك البندقدار Pellet Bow - Bunduqdar

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "البندقدار: وهو الذي يحمل جراحة البندق خلف السلطان أو الأمير. وهو مركب من لفظتين فارسيتين إحداهما بندق...البندق الذي يرمى به. ثم هو منقول عن البندق الذي يؤكل.....اللقطة الثانية دار ومعناها ممسك كما تقدم، ويكون المعنى ممسك البندق.

** رنك السلاحدار - Silahdar

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : "السلاح دار: وهو لقب على الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما هو من

توابع ذلك. وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو السلاح، وقد تقدم معناه في الكلام على أمير سلاح، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك كما تقدم، ويكون المعنى ممسك السلاح.

**** تيشتدار - Superintendent of Stores - Ewer-**

**** ونك الجمدار Jamdar**

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : الجمدار: وهو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله جاما دار فحفت الألف بعد الجيم وبعد الميم لمتقالاً وقيل جمدار. وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين أحدهما جما؛ ومعناه الثوب. والثاني دار، ومعناه ممسك كما تقدم فيكون المعنى ممسك الثوب.

**** رنك الجوكندار Junkadar**

يقول القلقشندي في صبح الأعشى : للجوكندار. وهو لقب على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، ويجمع على جوكان دلرية، وهو مركب من لفظين فارسيين أيضاً: أحدهما جوكان وهو المحجن الذي تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً؛ والثانية دار، ومعناه ممسك كما تقدم. فيكون المعنى ممسك الجوكان. والعامية تقول: "جكندار" بحذف الواو بعد الجيم والألف بعد الكاف.

ملاحظة: ما زالت تستعمل كلمة جوكي في مصر بمعنى من يركب

الحصان في المسابقات

**** جاشنجير - Taster - Jashnigir - Round Table**

الذائق ، أى يذوق الطعام بعد وضعه على مائدة صغيرة دائرية وعليها أطباق كبيرة خوفاً من السم

**** الأمدار - Standard-bearer - 'Alamdar - Banners**

**** Trumper Trumpeter** حامل الراية

** باشمقدار Shoe Bashaqdar Shoe-bearer

الباشمقدار هو حامل حذاء أو نعل السلطان أو 'الأمير-Axe Axe

** bearer

حامل سلاح مثل الفأس

وقد بدأ رسم هذه اشعارات بصورة بسيطة مستوحاة من النقائات في العصر الأيوبي ، وكان الشعار في البداية يرسم فيه ورده بها ستة بثلاث أو أحياناً ثمانية بثلاث ، وفي القرن 15 ب. م في عصر المماليك البرجية/الشراكسة بدأت هذه الشعارات تصبح أكثر تعقيداً ومزرقمة ومزوقة ومنقوشة بشكل بديع وأصبحت بها رموز تشير إلى شيء خاص أي أن الشعار الواحد بدلاً من أن يدل على وظيفة واحدة مثلاً أصبحت تدل على رموز الوظيفتين أي أصبحت مركبة تدل على عدة رموز.

الرنوك الكتابية للسلطين

ظهرت في عصر المماليك البحرية في صور بسيطة وتطورت في عصر الجراكسة في آخر القرن 15 ب. م ، السلطان قايتباي مكتوب بالابيض واللون الأساسي بالأزرق والدائرة سوداء ، مكتوب فيها ' Glory to our master, the Sultan al-Malik al-Ashraf Abu'l-Nasir Qaitbay, amy his victory be glorious

وام تقتصر اشعارات على ما سبق ولكن وضعت على سراويل

الأمراء وزوجاتهم وملكات أيمانهم ووضعت أيضاً على السجاجيد

الرشوة في العصر المملوكي الإسلامي

البرطلة: هي التعبير الشعبي عن الرشوة التي تبذل من أجل الحصول على منفعة شخصية وغير مشروعة، وفي احيان كثيرة تسمى 'بذلاً' أو 'جعلاً' وهو ثمن للوظيفة المطلوبة، وقد تأصل هذا الداء في عصر سلطين المماليك الجراكسة حتي صار مورداً من موارد الدولة، وليس معنى هذا ان عصر المماليك انفرد بهذه الظاهرة السيئة، لان جميع العهود

السابقة واللاحقة عرفت ظاهرة الرشوة، وبيع المناصب الإدارية والعسكرية والقضاء والحسبة، ولم تسلم وظيفة من وجود راغبين فيها مقابل 'برطلة' السنطان الذي يملك في يده كل مقاليد الأمور. ولكن يبدو ان ظاهرة 'البرطلة' استفحلت في العصر الثاني لدولة المماليك الذين عرفوا باسم المماليك 'الجراكسة'، مما جعل الدكتور احمد عبدالرازق احمد يخصص كتابه 'البنال والبرطلة زمن سلاطين المماليك' ويصدر عن الهيئة العامة للكتاب.

ولستهل المؤلف دراسته بتتبع ظاهرة الرشوة منذ بداية العصر الاسلامي. وفي رأيه ان هناك اجماعا علي ان أول من رشأ في الاسلام هو المغيرة بن شعبه الذي وني اشارة الكوفة من قبل الخليفة معاوية بن ابي سفيان، ولم يشرح المؤلف طبيعة الرشوة المنسوبة الي المغيرة، وهل كان رشيا او مرتشيا. وان كان من المستبعد ان يكون راشيا لمعاوية انذني عرف انه اول من بذل الاموال من اجل شراء ولاء الاعوان والأتصان.

لصوص عدول!

ويضرب الباحث امثلة علي حالات الرشوة التي عرفتها مصر علي عهد الولاة الامويين، ولكنها تفشت في العصر العباسي بعد ان اتسعت مهمة الدولة، وتعددت وظائفها، وسعي طلاب المناصب للحصول علي المناصب عن طريق الرشوة مما كان سببا في معاناة عرب مصر للولاة العباسيين، مثل الوالي موسى بن مصعب الذي ولي مصر في عام 167هـ من قبل الخليفة المهدي، وتشدد في فرض الرشوة علي الاسواق والذواب حتي كرهه الناس وناذبوه. وتسربت الرشوة الي مناصب القضاء، وعرف بعضهم بسوء السيرة والانغماس في الرشوة عن طريق كتابهم الذين كانوا يشهدون بعدول بعض الناس وهم افسد الخلق. وفيهم قال اسحق بن معاذ.

سأدعو إلهي حني الصباح

لكيما يعيدك كلبا هزينا

سننت لنا الجور في حكنا

وصيرت قوماً لصوصاً عدولاً

لكل شيء ثمن

والحق- يقول المؤلف إن الرشوة لعبت في القرن الثالث الهجري دوراً سيئاً في حياة عمال الدواوين وغيرهم، خاصة بعد أن أصبح لكل شيء ثمن يبذل وخصوصاً للمناسبات الهامة. التي يمكن أن ندر على صاحبها ربحاً وفيراً، فالقاضي حسين بن محمد الهاشمي بذل 200 ألف درهم من أجل الحصول على قضاء البصرة، فأخذ منه المال ولم يكد شيئاً، وفي هذا قال المؤرخ ابن تغري بردي: متنفياً: يرحم الله من فعل معه ذلك، ويرحم من يقتدي بفعله مع كل ما يسعى في القضاء بالبذل والبرطيل.

ووجدت الرشوة في عصر الأخشيديين، وعرف عن 'كافور' حبه للمال وبيعه لمناصب القضاء، وتحثري مصادر العصر الفاطمي علي العديد من الحالات التي تبنت أن الرشوة كانت متفشية بين أفراد هذا العصر، وكان الملك النصالح طلائع بن رزيق يبيع الولايات لمن يزايد عليها، وجمع من وراء ذلك ثروات طائلة. وعندما قبض الخليفة العزيز علي وزيره عيسى بن نسطوروس: اشترى حريته بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار.

منصب البطريق

وكذلك كانت الرشوة متفشية في العصر الأيوبي، ويشير المقرئ في حوادث 633 التي تنصيب الأتيا كيرلس بطريقاً للبيعاية بالإسكندرية عن طريق السعي والبذل بعد أن خلعت أرض مصر من الإماتة، وكيف أن حبه للمال والنرياسة قد أثار عليه إقاربه فقام عليه ابن الشيخان الراهب وعنده وذكر مثالبه، وأنه إنما تقدم بالرشوة فلا تصح كهنيته علي حكم القوانين، ومال عن جماعة وعقدوا له مجلساً بحضور صاحب معين الدين وعزموا علي خنعه، لولا أن قام انكتاب والمستوفون بديار مصر وتحدثوا مع صاحب، لصالحه فقبل بقاءه علي منصب البطريقية مقابل مبلغ من المال يحمته الي السلطان وعلي هذا استطاع شراء منصبه للمرة الثانية عن طريق

البنل واستمر فيه حتى وفاته سنة 640هـ -1242م.

سلاطين ضد الرشوة

يستدرك المؤلف فيقول: انه من الخطأ ان نرمي كل الحكام بداء الرشوة لان التاريخ يحدثنا عن وجود فئة من هؤلاء عرفت بزاهتها وعفتها عما بأيدي الرعية من الاموال، بل ان هذه الفئة بذلت قدر طاقتها للقضاء علي هذه الظاهرة التي حرمها الدين ونهي عنها، ومن هؤلاء السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي الذي ضاقت به الاحواص حتي تم يبق في الخزانة درهم ولا دينار، وجاءه رجل من الصعيد يدفع له عشرة آلاف دينار في مقابل ان يوليئه القضاء فكتب للتوسيط: اخرج فاطرد هذا الدبر ولولاك لأذيتة.

ولكن ماذا كانت تستطيع العناصر الصالحة ان تفعل امام ضعف النفوس الراغبين في الثراء بأيسر اسهل وبأخس الوسائل!

الرشوة تمارس علنا

في عصر سلاطين المماليك اتخذت ظاهرة الرشوة صفة الذبوع والانتشار واصطبغت بالصبغة الرسمية، واصبحت تمارس علنا دون خفاء وبصفة خاصة في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي كانت امانته حديث المصادر المعاصرة، ومع ذلك فقد سجلت لنا نفس المصادر بعض حالات من الرشوة ازعجت السلطان انذني كان يمقت المرتشي ويعاقبه اشد عقوبة، حتي انه امر بعدم تولية احد بمال ولا رشوة ولكن هل استجاب الناس لهذه التعليمات؟ اجواب يبدو من خلال النصوص التي نتمثلها بها بطون المصادر والتي تشير بانصاع الاتهام الي هؤلاء اللذين اقبلوا علي أخذ الرشوة مثل محب الدين ولد القاضي المشهور ابن دقيق العيد، وكان يأخذ المال من طلاب الوظائف عند ابيه، ومثل جمال الدين عبدالله ابن القاضي جلال الدين القزويني وعرف الابن بهوه وشراسته واخذ الرشوة من القضاء، مما اضطر السلطان الناصر إلي عزل الشيخين من اجل ولديهما.

علي نهج ابيه

وتفويض امصادر عن استفحال الرشوة في عهد السلاطين الجراكسة منذ اولهم 'برقوق' وهو ما اشار اليه السفاح تيمور لذك عندما بعث الي برقوق برسالة يقول له فيها: كيف يسمع الله دعاءكم وقد اكلتم الحرام وضيعتم الاثام، ولخذتم اموال الايتام، وقبلتم الرشوة من الحكام.

وجاء بعد برقوق ابنه الناصر فرج قسار علي نهج ابيه في اخذ انبساطي علي الوظائف.و يذكر المؤرخ ابن حجر ان علاءالدين بن ابي البقاء استقر في قضاء الشافعية بدمشق، ثم لم يلبث ان وصل مرسوم السلطان ابي نائب دمشق بان يقبض من القاضي مائتي الف درهم، وهي التي جرت عادة القضاة بدمشق علي بذلها لسلطان. ويعلق ابن حجر بقوله: وكانت هذه الكاتبة من اقبح ما فعل.

وتفاقمت ظاهرة الرشوة في عهد السلطان المؤيد شيخ، الذي شملت مظالمه جميع رجال الدولة من ولاة ومحسنيين وقضاة وحجاب. فلما اعتلى العرش السلطان برسباي انتشرت الرشوة اقوي مما كانت حتي سجل احد المؤرخين عن حادث تعيين احد القضاة بدمشق عرضا عن ابيه الذي وجد مذبوحا في بستانه. اذ يقول في اسي: وهو شاب صغير لم يستتر عذاريه بالشعر، لكنه قام بمال كبير: ثلاثون ألف درهم، فلم يلتفت السلطان لحدائثة سنه، ولا لكونه جاهلا بالقراءة و الكتابة!!

باعوه بأخس الاثمان

وكانت نهاية العصر المملوكي علي يد الاتراك العثمانيين نتيجة طبيعية لتفساد الذي شاع وذاع. فلما جاء الغوري ليواجه الحملة العثمانية كانت الخزينة خاوية فلجأ الي بيع الوظائف. وسجل المؤرخ ابن اياس اسعار كل وظيفة مثل تسعيرة الخضراوات والفراكه.وجاء آخرهم طومان باي فبذل جهودا يائسة لوقف الرشوة وانتشارها عن طريق ابطال بيع الوظائف، ومنع القضاة الايسعوا في منصب القضاء بمال وقال لهم: انا ما اقبل رشوة في

ولاية احد من القضاة، فلا تأخذوا! انتم رشوة من الناس ابدأ.. ولكنه فشل في محاولاته كما فشل في صد العدوان العثماني.. ودفع حياته ثمنا لرشوة تقاضاها بعض الخونة الذين لجأ إليهم.. فباعوه بأخبث وأبغس الاثمن.

النظام العسكري الذي أتبعه العبيد المماليك

قد اهتم السلاطين بالإشراف علي مماليتهم اشراقا مباشرا، فراقبوا حركتهم، وسكناتهم وعاقبوا الخارج علي الأداب عقوبة صارمة، وكان السلطان يفاجيء معسكرات المماليك 'الطباق' ليتفقد احوالهم، ويتأكد من حسن تربيتهم، وكان المملوك يخضع لتعليم لمدة خمسة عشر شهرا - وقد تمت اكثر من ذلك - وبعدها يعتق في 'احتفال عام للندفة كلها، ويتسلم المملوك شهادة عتقه، كما يتسلم سلاحا و فرسا ولباسا خاصا، وإقطاعا من الارض يظل في حوزته طول حياته.

هذه التربية العسكرية البحتة: فرضت علي المماليك ان يعيشوا في عزية من المجتمع المصري فلا يسمح لهم بالاختلاط او الزواج من المصريات، وذلك لحفاظ علي شخصيتهم، كذلك لا يسمح لاهل مصر بالانخراط في صفوف المماليك. فاقترنت الجندية عندهم، ونهبوا الي مدي ابعد من ذلك حيث منعوا المصريين مهما عظم شأنهم من الانخراط في الجيش كجند محاربين. وسمحوا لهم فقط بالقيام بالاعمال الكتابية أو المساعدة في خدمة القوات المحاربة وفي بعض الاحوال كان بعض الاهالي يبيعون اولادهم للمماليك تحت ضغط الحاجة.

عماد الفن الحربي

اما عن التدريب القتالي: كان الجيش المملوكي يعتمد علي الفروسية التي كانت عماد الفن الحربي في ذلك العصر، وعند تربية المملوك علي ركوب الخيل يبدأ بأن يقيم المعلم تمثالا لظهر الخيل من الطين او الصخر او الخشب، ويعلمهم كيفية الركوب والحلوس وهو درس 'الجلسة الصحيحة' (ويمثل تدريب التمثيل بالتمثيل في القوات المسلحة حاليا) ان يتقن

المملوك كيفية ركوب الخيل والجلسة الصحيحة، وفي الخطوة الثانية يضع المعلم سرجا علي ظهر التمثال، ويدرب المماليك كيفية الركوب عليه خاصة بعد حملهم السلاح ومعدات الحرب والقتال، فاذا اطمأن المعلم الي اجادة مماليكه لذلك، بدأ تعليمهم الضرب بالقوس في حائتي الكر والفر مع اختباره تربية هائلة ومطبعة من الخيل، ثم يتدرج بهم في التدريب حتي يستطيع الجميع السيطرة علي اكثر الحيل دراسة.

وبحانث ذلك كان يشترط في الفارس ان يكون علي علم تام بأخلاق الدواب والامراض التي يمكن ان تصيبها وأسبابها، وطرق علاجها علاجاً سليماً.

التدريب علي الرمي

وفي المرحلة الثالثة من التدريب علي الفروسية كان المعلم يحضر قوسين لسهمين فيزخذ احدهما ويعطي الاخر للمملوك، ثم يعنمه كيف يأخذ القوس وكيفية التدريب علي حمله (طريقة التمثيل بالتفسير) هذا تحت مراقبة باقي مجموعة المماليك التي تحت التدريب. فإذا اتقن المملوك ذلك عقد الاستاذ علي الوتر من غير سهم يتبعه في ذلك التمثيل، ويطلق الوتر فإذا اتقن المملوك في ذلك يأخذ الاستاذ في التعليم طرق انطلاق السهم بدون ريشة.

ثم تأتي مرحلة متقدمة من التدريب علي الرمي، وهو الرمي بالقوس الذي يكون من الصعود الي الهبوط والعكس، ثم الرمي علي الاهداف الثابتة وهو متحرك، يليها الاهداف المتحركة وهو ثابت، والعكس حتي يصل الي الرمي علي الاهداف المتحركة في الاتجاه المضاد الي ان ينتهي من التدريب علي الرمي علي الحصون والقلاع والمراكب في البحر.

وكان التعليم علي استخدام الرمح من اهم فنون الحرب، وهي المرحلة الرابعة في التدريب علي الفروسية، ونهاية المطاف في تدريبه علي اتقانها لان صفات الفارس لا تكتمل إلا باستخدام الرمح راجلاً، ثم راكباً،

وهي عملية تحتاج الي تدريب شاق وطويل، كما تحتاج الي فرس قوي ومطيع وحسن الخلق.

الضرب بالسيف

ويبدأ تعليم الضرب بالسيف عن طريق صنع حائط الطين المحروق، وعلي المملوك ان يضرب في اول يوم خمسا وعشرين ضربة، وفي اليوم الثاني خمسين ضربة دفعة واحد، وهكذا وبنفس النسبة حتي يضرب الف ضربة دفعة واحدة، وتتبع ذلك محاولة قطع اللباد فوق الحائط، ويزداد عدد طبقات اللباد يوما بعد يوم حتي تصل الي مائة طبقة. فاذا فعل المملوك ذلك انتقل الي قطع الورق بالسيف علي المخدة.

فاذا اطمأن المعلم الي مستوي المماليك نقلهم الي العمل بالسيف علي الخيول، ويبدأ بالتدريب علي ضرب عود من القصب الرطب، ويجري بفرسه بسرعة فاذا حاذي العود ضرب بسيفه ما يوازي منكبه، ويكرر ذلك عدة مرات حتي يبقي منه طول ذراع، ثم يكرر الضرب علي خمس نشابت عن يسره، وخمس اخري عن يمينه، ويقوم بقطعها بيمينه ويساره، واخيرا يشرح المعلم في تدريب الفرسان علي العمل بالسيفين معا. وهنا يصبح المملوك مقاتلا اي جاهزا للقتال وانه اكتسب المهارات القتالية.

قاذفات الحطب

كان السيف اهم الاسلحة التي استعملها المماليك في القتال والتدريب وكذلك استعملوا الخنجر والطيز والبلطة والقأس، وهي متعددة الاشكال والاحجام.

اما اهم الاسلحة القتالية التي استخدمها المماليك فهو المنجنيق، وهي آلات قاذفة علي الاعداء من مسافات بعيدة ويتركب المنجنيق من ثمان وعشرين قطعة من الخشب يعمل منها قاعدة، وفوقها القائمان علي الجنبيين، ويتصل القائمان بعرضه، ثم يركب علي العارضة سهم يراعي ان يكون احد طرفيه قصيرا، والاخر طويلا. وكانت المجانيق تحمل علي الابل عند

الحصار، وبعضها كان من الضخامة بحيث يحمل علي مائة عجلة، ولم يكن المنجنيق يرمي الاحجار فقط، بل كانت القذيفة تحتوي علي حديد وزجاجات مملوءة بالنفط والزرنيخ والاقيون، فتقوم مقام الغازات الخائفة.

ومن هذه القذائف ما كان يرمي بانيد مثل الزجاجات المملوءة بالنفط والصبر ويزور القرطم المقشور، فإذا اصابته الهدف اشتعلت مثل زجاجات 'مولوتوف' في العصر الحديث. ويقول العميد نديم ان هذه القذائف كانت تستخدم في العصر المملوكي بأسلوب اكثر تطوراً بإضافة الصبر والقرطم المقشور. وكذلك وجنت 'الجروح' وهي آلة حربية لرمي السهام والنفط والحجارة، وهو ما يصحح ان نطلق عليه السهم الناري.

في بيت السلاح

وكانت هذه الاسلحة علي اختلاف انواعها تحفظ في بيت السلاح اي 'الزرد خاناه' ويحمل إليها كل عام ما يصنع من الاسلحة. وكان موقع هذه الدار في القلعة وخصص بكل سلاح عدة قناعات، وإني جوارها نماذج مصغرة من مخازن السلاح تحت اشراف 'أمير السلاح' ويشغل فيها جماعة من الصناع يختص كل منهم لنوع معين من انواع السلاح ويعهد اليه بصفة وحفظه واصلاحه اذا اصابه تلف. ويظل هؤلاء في حالة عمل دائم سواء كانت البلاد في حالة حرب أو حالة سلم.

الدين الإسلامي طريق المماليك للحكم والسياسة

شهد العصر المملوكي اختراق السلطة الأمنية السياسية، عن السلطة الدينية، فظفر السلاطين بثقون الحكم، وتبدير الملك، وتركوا للعلماء والفقهاء أمور الدين والشرع. واستند سلاطين المماليك الي قوانين وضعية بعضها مستمد من شريعة جنكيز خان التي أودعها كتابه 'الياسة' ومنه اشتقت كلمة 'السياسة' كما يري بعض مؤرخي الفكر السياسي. والمعروف عن المماليك أنهم خليط ينحرون من أصول تركية ومغولية، فكان 'اعتمادهم علي شريعة 'السياسة' أمر متوقعا، تأكيداً لانتمائهم العرقي. حتي ليقول المقرئزي وقد

عاش حياته كلها في العصر المملوكي: ان سلاطين المماليك كانوا يطبقون شريعة السياسة في القلعة، حيث ينشأ غلمان المماليك ويعيش المجتمع المملوكي داخل أسوار القلعة، اما الشريعة الإسلامية فجري تطبيقها علي الرعايا المصريين في القاهرة وغيرها من المدن والقرى.

وقد لسهب المقرئ في وصف الانقسام الذي حدث بين السلطة الأمنية والسلطة الشرعية فقال: اعلم ان الناس في زماننا، بل ومنذ عهد الدولة التركية يُقصد دولة المماليك التركي' بدين مصر واتهام، يرون أن الاحكام علي قسمين: حكم للشرع: وحكم للسياسة وذلك احتفظ المماليك لانفسهم بالسلطة الأمنية، وتركوا شؤون الدين والشرع لتجهاز الديني الذي يتربع عليه خليفة مصطنع جنبه السلطان الظاهر بيبرس من بقايا الاسرة العباسية التي أطاح بها هولاء اثناء تدمير بغداد '656 هـ' وصنع منه وريثا للخلافة العباسية اعتقادا منه بان 'اخلافة' هي عمود الدين، وكانت الهيئة الدينية تضم القضاة والفقهاء والعلماء والخطباء، ولهم استقلالهم الذاتي عن سلطان الدولة.

شد وجذب

يقول الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه 'الادب المصري في العصر المملوكي' لقد ظلت العلاقة بين السلاطين ورجال الدين، بين شد وجذب، وان بدأ من سلاطين المماليك الحرص علي الدين ورجاله، وغيره وحماس قد يستغربان، ولكنهم كانوا يعلمون أن رجال الدين هم سندهم بين الناس، ووسيلتهم اليهم، ويدهم التي تبسط احيانا بالشعب لو ترفق به، ولهذا فان رجال الدين كانوا يملكون السيطرة علي الناس عن طريق الدين، ويتخذون كذلك وسيلة للسلاطين للضغط وذل المطالب، بل ورفع المظالم عن الناس اذا نكل المماليك بالرعية.

ويضرب الدكتور سلام امثلة كثيرة علي تلك العلاقة المثانة الاضراف الشعب والمماليك ورجال الدين' فقد كان المماليك يعتقدون مجالس

للتشوري تضم العلماء للبت في الامور الخطيرة كالتعبئة للقتال أو فرض الضرائب أو جباية الاموال أو لحدوث تغيير اجتماعي أو سلوكي. ومن ذلك التعبئة لحرب التتار عندما احدثت جيوش هولانكو بحدود السلطنة في الشام، فلما تكامل ذلك للمجلس من الافراد واعيان الدولة، وتبين ان بيت المال خال من الاموال: تكلم شيخ الاسلام 'العز بن عبدالسلام' واجاز للسلطان ان يأخذ من اموال التجار والاعيان ما يساعده علي تجهيز العسكر له علي العدو، لكن بشرط الا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيش الزركش، واسقاط السيوف الفضية.

وروي 'السبكي' بعضا من الاخبار عن هبة انشيخ عزالدين لدي السلطين، ومكانته لدي الشعب. حتي قال عنه الظاهر بيبرس: لو ان هذا الشيخ يقول للناس: أخرجوا عليه لانتزع الملك مني. وقال عندما سمع خبر وفاته: الان استقر ملكي.

التشدد في تنفيذ الحدود

كان ملاطين المماليك يهابون العناء، ويعرفون مدي تأثيرهم علي اترعية، ولذلك بالغوا في اكرام رجال الدين والعلم، وانسحب هذا التكريم علي رجال الصوفية. وحافظ اكثر السلاطين علي اتباع تعاليم الدين واداء فرائضه، وتقربوا الي الله ببناء المساجد والمدارس والاسيلة ومارستات والخانقوات لايقاء الصوفية، وتشددوا في تنفيذ الحدود حتي خرجوا علي الشرع. واتخذوا عقوبة القتل لشارب الخمر ومدخن الحشيش. واعتبر بعض الفقهاء ذلك التشدد في الحدود اكثر من احتمال الشرع، ولنه خنط من امماليك بين الشرع الاسلامي وشرعية جنكيز خان: وقد اجاز بعض الفقهاء هذا الغلو تخويفا للناس، وردعا للاقلاع عن الرذائل.

وقال الشاعر ابن داتيل في هذا الغلو:

نهى السلطان عن شرب الحميا

وصير حدها حد اليماني

فما جسرت ملوكي الجنى خوفا

لأجل الخمر تدخل في القناني

ويشير ابن دانيال في قصيدة أخرى الي ان تلك الحدود القسمة ليست من الشرع الاسلامي، لأن الجلد هو الحد في الإسلام علي الخمر، وليس القتل، فيقول:

لقد كان حد السكر من قبل صلبة

خفيف الأذي إذ كان في مشرعنا جلدًا

فلما بدأ المصنوب قلته نصاحبي

الاتب فإن الحد قد تجاوز الحد

النزاع بين الفقهاء والحكام

ولم يكن الوفاق دائما بين السلطتين الدينية والأمنية، ويروي الدكتور زغلول سلام صورا من هذا النزاع بين السلاطين ورجال الدين حتي ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفي الخليفة 'المستكفي' الي الصعيد مع اقاربه. وربما حدث النزاع لمرغبة بعض رجال الدين، وخاصة الخائبة، في تطبيق حدود الشرع علي المماليك انفسهم، او القيام بتنفيذ الحدود بانفسهم وليس عن طريق الدولة. وتبني هذا الاتجاه الفقيه 'ابن تيمية' وجماعته دون الرجوع الي السلطة الأمنية، مما دفع بالفقيه الي السجن في دمشق، وعاود ابن تيمية الدعوة الي هذا الانفلات عند مجيئه القاهرة، فسجن مرة ثانية، ثم ثالثة في دمشق، وظل مسجونًا حتي مات.

خلاف حول المزايا للإقباط

وحدث نزاع آخر بين الفقهاء ورجال الدين من جانب، وبين السلطات الأمنية احتجاجا من العلماء علي منح الإقباط بعض المزايا وفق اتفاق عقده السلطان مع البابا في روما، وامبراطور بيزنطة، وامبراطور الحبشة، فاتهم السلطان بمحاباة الإقباط تحت ستار 'حسن معاملة النصاري'. وفي دمشق قام الفقراء بتحريض من العلماء سنة 752هـ ضد

مرتادي الخمارات، وتدخل نائب السلطان فمنعهم من التصادي في فعالهم. وبقي الضيق يملأ صدر الفقهاء لخشم المماليك وجهلهم وتهورهم وظلمهم وتصرفهم في الامور على غير مقتضى الشرع، وكشف السبكي في 'مبين النعم' عن الصراع الخفي بين رجال الدين والمماليك برغم كثرة ائتلاف الظاهرية بينهم فقال:

ومن قبائح الامراء انهم لا يوقرون أهل العلم، ولا يعرفون لهم حقوقهم، وينكرون عليهم ما يرتكبون اضعافه، وماحق الامير اذا كان يرتكب معصية ووجد فقيها يقال عنه مثله، ان يبغضه ويبغيه، وماله لا ينظر الي نفسه، اما علم ان القبيح عند الله تعالى حرام بالنسبة الي كل احد.. وما رأيت اميرا يبغض من جانب الفقهاء الا وكانت عاقبته عاقبة سوء.

احتقارهم للمصريين

يقول الدكتور زخلول سلام: لاشك انه يبدو من كلام 'السبكي' احتقاره لطائفة المماليك، وكرهيته لغرورهم واستعلائهم على اهل البند، وحقارهم بجنسهم التركي، ولذلك يصفهم بالفاظ الاحمق، والجاهل، والغبي.. ويعارض مستهجنا ارتكابهم حماقات الغرض منها التخريف وبث العيبة في نفوس الرعية لتثبيت السلطان ودعمه حتي ولو علي دماء الشعب، وفوق جماعه، وينقد السبكي احتكارهم للسلطة عنى خلاف الشرع فيقول: وقد اعتبرت، وما يبتئك مثل خبير- فما وجدت، ولا رأيت، ولا سمعت بسلطان ولا أمير ولا حاجب ولا صاحب شرطة يلقي الامور الي الشرع: إلا وينجو بنفسه من مصائب هذه الدنيا، وتكون مصيبته اخف من مصيبة غيره، وأيامهم اصلح واكثر امانا وطمانينة، واقل مفاسد، وانت اذا شئت فانظر توليخ الملوك والامراء العادلين والظالمين اي للدولتين اكثر طمانينة واطول اياما.

التجسس على أسرار الناس

وكان المماليك لا يتورعون عن التجسس والتلصص واستراق السمع وتلقظ اخبار الناس غير مراعين ما ينتهكون من حرمانات في سبيل مصالحه وامتهم واستقرار ملكهم. ويقف السبكي في وجه هذه الاعمال لمنافاتها للانسانية وتعارضها مع الحرية الشخصية التي كفلها الدين.

وانتقد السبكي اهتمام المماليك بالدين مظهرا لامخبراء وخاصة اتخاذ المنشدين وممارسي السلية والطرب، وعاب على قراء القرآن تكسيهم في قصور المماليك، وقدم المنشدين بالقاء تواسيح في ذكر مناقب النبي في قوم لا يفهمون ما يقال، واعتماد المماليك باقامة الشعائر الدينية وسط الانوار والتزيينات في الاحتفال بموالد الاولياء ومايجري فيها من خروج علي الاداب والاخلاق العامة، والمبالغة في اللهو والتحرر من قيود المجتمع، وانتمتع بكل الموبقات والمحرمات.

القسم الثاني

دولة المماليك الشركسية (784هـ - 922هـ)

الدولة المملوكية الشركسية (أو الشركسية)، هي انفرع الثاني للدولة المملوكية في مصر، بدأت بعد انهول المملوكية انهجربه بعد سلطنة الظاهر برفوق اول سلاطين الدولة البرجية في مصر اللى استمرت من سنة 1381 لعاية غزو الاتراك العثمانيه و احتلالهم لمصر سنة 1517. اتسببت تمردات الشام و كثرة غارات العربان و اعتداءتهم على القرى المصريه و بانتى تدمير البنية الزراعيه في مصر و التزعزعت بين الأمرا في اضعاف الدولة. أخر اسلاطين البرجية كان السلطان الملحمى الأشرف طومان باى

سمعت بالدولة البرجية لإن مماليتها كانوا يسكنوا ابراج قلعة انجبل لكن فيه رأى تانى يقول ان ابراج القلعة كانت للحراسه مش للسكن و انهم كانوا بيتنسوا لقبيلة " برج " الشركسية اللى يتقال إن السلطان المنصور قلاوون اللى كان من امماليك انهجربه كان في الأصل منها، و بتسمى شركسية أو جركسية لإن مماليتها كانوا من الشركس سكان المرتفعات الجنوبيه في بلاد القبحاق، و دى منطقه ما بين البحر الاسود و بحر قزويز. وقت الغزوات و الحروب كانت بتتأسر منهم أعداد و اشترى السلطان قلاوون اعداد كبيره منهم و سكنهم في قلعة انجبل عشان يعدهم عن امماليك التركيين (تركيين بمعنى عام مش اترك تركيا)، و ادى مناصب لعدد منهم زى ' السلحدارية ' (ماسك السلاح) و ' انجمتاريه ' (المسئول عن هدم السلطان)، ' الجاشنكيريه ' (دواق أكن السلطان) و ' الأوشاقيه ' (مسئول ركوب السلطان للحصنه لمتعته و الرياضه). استخدام البرجية ' اصح من ' الشركسية ' لإن من جيهه لفظ شركسية بيشير لجنس مش لنظام سياسى و من جيهه تانيه فيه سلاطين من اصول شركسية حكموا في فترة دولة المماليك البحريه.

نتيجة لحدوث الأقسامات والمؤامرات التي دبت بين آخر امراء المماليك البحرية قام السلطان المنصور قلاوون بتكوين فرقة جديدة من المماليك الجراكسة ليكونوا مندا لهم ضد المماليك البحرية وجعل أبراج القلعة مأوى لهم وقام بتربيتهم وتدريبهم وهم من أصول كرجية من " كرجستان"، وأنذين تربوا ونشؤوا في أبراج القلعة، فأخلصوا لـ " المنصور قلاوون" و أبناءه و أحفاده من بعده وذلك لرعاية " المنصور" لهم، انذي عمل على تربيتهم بمنأى بعيد عن المماليك انترك البحرية، الذين دبت الفوضى بينهم.

وكان نتيجة لسياسة انتي اتبعها"المنصور قلاوون" تجاه المماليك البرجية من عطف وتفرفة في المعاملة عن المماليك القدامى الإذراك البحرية، أن دبت العداوة بين المماليك البحرية والمماليك البرجية، إلى أن تسلّم أتابك العسكر الأمير " برقوق" (سنة 780هـ/1378م) في عهد السلطان علاء الدين علي، وبعد وفاة هذا السلطان أسند عرش السلطنة للأمير حاجي أحد أحفاد الناصر محمد ثم خلع السلطان حاجي من عرش السلطنة، تسلّم برقوق الحكم وكان ذلك (سنة 1382م) لئبدأ عهد جديد من عهد المماليك عرف بعهد المماليك الجراكسة أو المماليك البرجية، والتي عمرت أكثر من 134 سنة تعاقب خلالها على انسلطنة حوالي 23 سلطانا حكم منهم البلاد حوالي 103 سنة وهم (برقوق - فرج بن برقوق - المؤيد شيخ - الاشرف برسباني - جقمق - إينك - خشقدم - قايتباي - قنصوه الغوري) في حين حكم باقي السلاطين فترات قصيرة.

السلطان الظاهر برقوق(784هـ - 801هـ):-

تسلم الظاهر برقوق الحكم بعد أن ضعفت أسرة قلاوون، وكانت في السنة الأولى من حكمه مؤامرة لعزله وإحلال الخليفة العباسي محله، إلا أنه استطاع القضاء على المؤامرة والتي أدت بالنتيجة إلى عزل الخليفة و تنصيب آخر مكانه، ثم أنه في (سنة 1389 م) قامت ثورة ضده وقف

على رأسها منطاش أمير ملطية، و يلبغا الناصري أمير حلب، حيث تمكننا من مهاجمة القاهرة ومن إبعاد برقوق عن الحكم و إرجاع الأشرف شعبان (من الأسرة القلاوونية) إلى سدة الحكم، ولكنه في ظل الخلاف الذي دب بين (منطاش و يلبغا) استطاع برقوق أن يعود إلى الحكم ويعودته على هذه الصورة بدأ عصر جديد لم تشهد المنطفة الا وهو الغزو التتري لبلاد الشام هما مبيحرموش بقى ولا P!!!!!!!!!!!!!!اية!!!!!! ويعتبر السلطان الظاهر برقوق هو أول سلاطين انماليك الجراكسة الذين حكموا مصر فقد حكم البلاد في لفترة من (784هـ - 801هـ).

برقوق وتيمور لنگ :

في سنة 796هـ أرسل تيمور لنگ إلى برقوق رسالة تهديد يطلب منه الاستسلام الفوري، ولكن برقوق أظهر ثباتا ورد عليه بكل حزم وغلظة فرد عليه تيمورلنگ بغزو الشام.

وقد خرج برقوق من مصر إلى الشام قاصدا العراق على رأس حملة كبيرة لمحاربة تيمور لنگ وإعادة احمد بن أويمن (صاحب بغداد الذي لجأ إلى القاهرة) إلا ان جاءت الأخبار تفيد بخروج تيمورلنگ من بغداد قاصدا بلاد الروم وعندئذ أسترد أحمد بن أويمن سلطانه في بغداد في ظل غياب تيمورلنگ وعاد برقوق إلى القاهرة سنة 789هـ دون ان نتاح له الفرصة في محاربة التتار، ولم يلبث وأن توفي برقوق في القاهرة سنة 801هـ وخلفه ابنه فرج ابن برقوق.

فرج بن برقوق و تيمورلنگ :

بعد وفاة السلطان الظاهر برقوق ولي ابنه السلطان اناصر فرج بن برقوق من الفترة (801هـ - 815هـ)، وقد سار فرج بن برقوق على رأس جيش كبيرا إلى الشام بعدما علم بزحف تيمور لنگ عليها وانه اكتاح حلب وعلى حدود دمشق ولكن سرعان سترك فرج الشم وعاد إلى القاهرة لخرج موقفه في الشام وخشيته على حياته لبتترك جيشه بقى أموا مصير

على يد الجيش الفترى وقد قُتلت أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال كما نمروا الأطراف الشمالية من بلاد الشام الذي جعل من بقي من الجند وأهل دمشق يركبون أسوار المدينة حيث نادوا بالجهاد، وعلى الرغم من محاولات " تيمورلنك" في اقتحام المدينة إلا أنه فشل في دخولها لاستماتة أهلها في الدفاع عنها فلجأ تيمورلنك للحيلة، وذلك حين دعا قاضي قضاء المدينة إبراهيم بن مفلح للمفاوضة على رأس وفد كان من أعضائه ابن خلدون و بالفعل ذهب الوفد لمعسكر " تيمورلنك فطلب تيمورلنك من أهالي دمشق ثلاثة أشياء :

- الطقزات وهى :

تسع أشياء تتميز بها المدينة - أن تسك النقود بإسمه - ذكر اسمه على المنابر.

فخدع قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح، و خرج بالطقزات و وعد تيمورلنك بسك النقود بإسمه

و بأن يخطب له على المنابر، و رجع بالأمان، ثم أن " تيمورلنك" أمعن في خداع أهلي دمشق وهاجم المدينة بعد حيلة لمستبجها عدة أيام، ثم ترك تيمورلنك دمشق على نحو ما ترك به حذب ثم اتجه صوب الشمال فكان من نتائج حملته هذه:

- شراب بلاد الشام ودمارها.

- اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن الشام ومنها " صناعة الزجاج".

- نشطت طرق التجارة عبر البحر الأحمر بعد أن أغلق الطريق البري.

لما في القاهرة فقد كان لرجوع السلطان شيه منهزم من الشام وخوف الناس من اجتياح تيمورلنك" مصر أن دب الذعر بين الناس وغلت الأسعار، واشترط فرج على الناس بأن فرض عليهم ضرائب ضخمة، وأخذ

جنود المماليك ينهبون الأهالي في الوقت الذي كان فيه تيمورلنك قد عاد إلى حلب وخربها ثانية ثم توجه إلى ماردين ثم إلى بغداد.

وفي " بغداد " أخذ يتخلق الأعذار و الأسباب لمهاجمة الدولة العثمانية، ثم في (عام 1402 م) توجه إلى " أنقرة " و اصطدم بالجيش العثماني الذي كان على رأسه السلطان " بايزيد الصاعقة " حيث انكسر الجيش العثماني و أسر السلطان بايزيد.

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التي احرزها تيمورلنك في بلاد الروم وهزيمته للسلطان العثماني بايزيد الثاني في موقعة أنقرة، أستجاب فرج للشروط التي تقدم بها تيمورلنك وهو إطلاق سراح الأسرى للنتار وأن تسك العملة بأسم تيمورلنك، ولم يلبث ان توفي تيمورلنك سنة 808هـ دون ان يحقق لملته في احتلال مصر.

نهاية السلطان الناصر فرج :

وقد خسر السلطان الناصر فرج مكانته في نفوس الناس والمماليك نتيجة لرضوخه لطلبات تيمورلنك، وسرعان ماقامت النزاعات والأضطرابات بين امراء المماليك في مصر وأضطرب السلطان فرج إلى الأختفاء لفترة مؤقتة حين تهدئه الأمور وحل محله أخوة انصور عبد العزيز سنة 808هـ.

وبعدما هدأت الأمور واستتبّت الأمور تمكن الناصر فرج من العودة إلى السلطنة بعد فترة وجيزة من أختفائه، وقد قضى الناصر فرج بقيه عهده في تهدئه الأوضاع في بلاد الشام بعدما اصيحت مسرحا للنزاعات والأضطرابات.

هذا وقد ظهرت على الساحة بعد الأمراء الذين وقفوا في وجه المملطان الناصر فرج وهما الأميرين الشيخ محمودي (المؤيد شيخ)، والأمير نوروز الذين اعلنا مخالفتهما للسلطان وعندما خرج عليهم السلطان الناصر فرج لمحاربتهما حلت به الهزيمة، هذا وقد أفتت جموع العلماء

والمسنيخ بأسنابحة دم فرج وذلك لفساد أخلاقه وعكوفه على الشرب والنهور
وبالفعل تم اغتياله في دمشق سنة 815هـ.

سلطنة السلطان المؤيد شيخ (815هـ - 824هـ) :

عقب وفاة الناصر فرج ظهرت صراعات على كرسي السلطنة بين
كلا من المؤيد شيخ والامير نوروز، وبعد عدة محاولات فاز الأمير المؤيد
بالسلطنة الأمر الذي أغضب نوروز ورفض الاعتراف بالسلطان الجد
وأعلن الثورة ضده مما دفع السلطان إلى الخروج عليه والتخلص منه بقتل.
وبعدما قضى المؤيد شيخ على التهديدات الداخلية المتمثلة في الامير
نوروز بدأت في القضاء على التهديدات الخارجية وهي : قيامة بحملتين
على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لأرغام النوبيات التركمانية على الحدود
على العودة إلى تبعيتها لدولة المسالك، ففي سنة 821هـ خرج المؤيد شيخ
إلى طرطوس وقرمان حتى أستطاع اخضاعهما، ولكن ماكاد السلطان المؤيد
يعود إلى مصر حتى نقض التركمان الشروط التي تعهدوا بها، ومن ثم
أرسل المؤيد ابنه إبراهيم لصددهم سنة 822 هـ فاستطاع الاستيلاء على
قيصرية وقونية وتم سك العملة في بلاد التركمان بأسم السلطان المؤيد وقد
تم تعيين ابنه إبراهيم حاكما على تلك الجهات كما ضم بعد المدن الهامة إلى
الدولة المملوكية مثل أذنة وطرطوس.

وفاة السلطان المؤيد شيخ :

وقد توفي السلطان المؤيد شيخ سنة 824هـ فخلفه ابنه أحمد تحت
وصاية الأمير ططر، ولم تمض أشهر قليلة فجعله ابنه محمد ابن الظاهر
ططر وليث في الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباي.

سلطنة السلطان الأشرف برسباي (825هـ - 841هـ) :

حكم السلطان الأشرف برسباي حوالي سنة عشر عاما أتبع خلالها
السلطان البرسباي سياسة داخلية وخارجية ساعدت على استقرار البلاد، كما

اهتم بالإصلاح الاقتصادي في البلاد.

وفي عهد الأشرف برسباي تم غزو جزيرة قبرص، التي كانت طول فترة الحروب الصليبية مقلًا هاماً من معازل الصليبيين في الشرق، وزاد في أهميتها أيضاً سقوط عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون مما جعل قبرص ملاذاً وملجأً للمشردين من بقايا الصليبيين، ولم تثبت أن أصبحت قبرص مركزاً للمقاومة الصليبية في الشرق والقلعة الحصينة التي أخذ أصحاب المشاريع الصليبية يعتمدون عليها في تنفيذ سياسة الحصار ضد الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام.

وفي عهد السلطان برسباي فقد أستطاع لعمل حربي ضد جزيرة قبرص، ومما حفز برسباي على ذلك أن سبحة قبرص العدوانية لم تتقطع على شواطئ وشغور دولة المماليك فأخذ برسباي يعد جيشه وبناء المراكب والسفن في مصر وبلاد الشام.

وبدأت حملات الأشرف برسباي الثلاثة لغزو جزيرة قبرص في الأعوام (1424، 1425، 1426م) وذلك نتيجة لأستيلاء بعض الصليبيين على سفينتين من سفن المسلمين بالقرب من دمياط، كذلك استولى لوزجان على سفينة كانت محملة بالهدايا من الأشرف برسباي للثلاثة لغزو جزيرة قبرص، وقد قامت القوات المصرية بأعمال بطولية وأنتقم المسلمين لأنفسهم أشد الأنتقام.

وفي الحملة الثالثة سنة 1426م أستولى المماليك على جزيرة قبرص وتمكنوا من دخول عاصمتها، وبذلك أصبحت جزيرة قبرص من ممتلكات الدولة المملوكية، وقد عدت آخر حملات الدولة المملوكية على جزيرة قبرص وكان معهم من ضمن الأسرى ملك قبرص، وبعد ضمان فتاصل الترتج وتعهدهم بدفع الجزية للسلطان برسباي أفرج السلطان عن ملك قبرص مقابل دفع مائتي ألف دينار جزية، هذا وظلت جزيرة قبرص خاضعة للحكم المملوكي حتى عام 1517م وأستمرت الجزيرة

للسلطان العثماني حتى عام 1577م، حيث أحتلها العثمانيون وحكموها حكماً مباشراً.

سلطنة السلطان جقمق (841هـ - 857هـ):

وبعد وفاة السلطان الأشرف برسباي عام 841هـ تولى الحكم من بعده السلطان جقمق والذي ينسب إليه هو محاولته لفتح جزيرة رودس فبعد ان استولى المماليك على جزيرة قبرص أخذ القراصنة من جزيرة رودس قاعدة لهم الأمر الذي دفع السلطان جقمق إلى التفكير في غزو الجزيرة خصوصا قرب جزيرة رودس من قبرص والتي تحت ولاية الدولة المملوكية ومن ثم يمكن أخذ جزيرة قبرص قاعدة لغزو جزيرة رودس، فأرسل جقمق ثلاث حملات في الاعوام (1440، 1443، 1444 م) وبالرغم من أسنماته تلك الحملات وقيامها بمجهودات باسئلة إلا انها لم تحقق الأهداف السطنوية، وذلك يرجع إلى تسرب أنباء تحرك تلك الحملات إلى رودس الأمر الذي جعل أهلها يستعدون للقتال وعمل التحصينات القوية الراسخة لحماية الجزيرة مما اضطر القوات المملوكية إلى الرجوع إلى مصر، وأخيراً تم عقد الصلح بين المماليك وحكام رودس، وقد تعهد حكام رودس للمسلمين بعدم التعرض للسفن الإسلامية.

سلطنة السلطان الأشرف قايتباي (873هـ - 901هـ):

تلت وفاة جقمق فترة اضطراب في أحوال البلاد الداخلية نتيجة انصراف علي للسلطة، وفي هذا المناخ السياسي للملئ بالاضطرابات خلع المماليك السلطان تمرغنا وولوا الأمير قايتباي للسلطنة سنة 873 هج/1468 م.

ينتمي قايتباي لأصل شركسي، اشتراه سيده جقمق بخمسين ديناراً و لكنه أظهر نبوغاً في الفروسية و فنون الحرب. و ظل يترقى في المراتب حتي ولاه القادة المماليك ليكون حاكماً لمصر. و هو يعد أقوى الأمراء المماليك الشراكسة بعد السلطان برقوق.

المتاعب التي واجهت قايتباي:

وقد أثبت السلطان قايتباي أنه أقدر السلاطين المماليك في ميدان الحرب، وعلى الرغم من ثورات الجلبان في عهد قايتباي وجشعهم في الحصول على المال دون مراعاة لضروف الدولة عندئذ فن قايتباي أستطاع أن يواجه هذه المشاكل بكل حزم وجرأة.

وكانت المشكلة الكبرى الخرجية التي واجهت نولة سلاطين المماليك في ظل عهد قايتباي وهو خطر النورن اتركمانية التي مهدت الأطراف الشمالية للدولة المملوكية.

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين في تلك المرحلة الجديدة وتدخلهم في شئون تلك الإمارات التركمانية على حدود الدولة المملوكية جعل للسلطان الأشرف قايتباي يشعر بالخطر الجديد المحذوق به ففكر في وضع حد لخطر التركمان حتى لا يكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثماني في أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال ؛ لذلك قام السلطان قايتباي بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير ديلغار الذي كانت تتسع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثماني.

وقد وقعت الحملة الأخيرة التي أرسلها قايتباي سنة 876هـ بقيادة الأمير " يشبك " بأنزال الهزيمة بشاه سوار وتم انقبض عليه وإرساله إلى القاهرة.

كما كان أغارة قبيل الشاه للبيضاء على حلب من إحدى المتعب التي واجعت السلطان ابو النصر قايتباي الأمر الذي جعل السلطان قايتباي يقوم بإرسال حملة بقيادة يشبك سنة 877هـ والتي أحرزت انتصاراً كبيراً على التركمان، وقد انتهز يشبك فرصة الفوضى التي عمت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة 885هـ ولكن حاكم أترها أستطاع أن يزل به الهزيمة بالمماليك أثناء حصارهم لمدينة الرها ووقع أسيراً حتى قتل ومعه عدد لا يحصى من الفرسان، وكانت الظروف حينها لا تساعد السلطان قايتباي على الانتقام من التركمان فعقد

صلح مع دولة انشاء البيضاء.

هذا وقد فرض قايتباي الضرائب على شعبه وتسفه في جمع الأموال وتطبيق سياسة الاحتكار حتى وصفته المؤرخون بأنه محب لجمع المال في حين يدافع عنه بعض مؤرخون آخرون في أنه كان معذوراً في ذلك فقد جمع تلك الأموال الطائلة لينفقها في إقامة المنشآت الحيوية وتجهيز الجيوش والأسلحة.

تدهور الأحوال وبداية نهاية دولة المماليك :

سادت احوال البلاد الاقتصادية في أواخر عصر السلطن قايتباي فقد ضاقت الناس بكثرة الأعباء المالية التي فرضت عليهم، كما ألتشر مرض الطاعون سنة 897هـ بشكل كبير وفلك اعداد هائلة من الناس وساعت الاحوال الاقتصادية.

وفي تلك الظروف انغمس المماليك منازعتهم مع بعضهم البعض، وكان المرض كان قد أشد على السلطن قايتباي لدرجة أنه لم يكن على وعى بما يحدث حوله، لذلك أجمع الأمراء والقضاة وبايعوا ابنه محمد " 14 سنة " وفي تلك الاثناء لفظ السلطن قايتباي نفاسه الاخيرة وكان ذلك سنة 900هـ.

ولكن لصغر سن السلطن الجديد " محمد بن قايتباي " وانذى تلقب بلقب الناصر لم يستطع الوقوف أمام كبار الأمرا الذين أشد التنافس بينهم الوصاية على منصب السلطنة حتى فاز بها السلطن قانصوة خمسمائة هذا وقد تعاقب الكثير من السلاطين المماليك على السلطنة في فترات قليلة فقد يتم تولية سلطان ما ولم يطل فترة حكمة حتى يعزل أو يقتل وظلت الأمور على تسير هذا النمط حتى تم تولية السلطن الأشرف قانصوة الغورى.

سلطنة السلطان الأشرف قانصوة الغورى :

وما كاد السلطان الأشرف قانصوة الغورى يتولى السلطنة حتى عمل على إصلاح شئون البلاد المالية وعمل على تسير الأمن والاستقرار

وجمع الأموال وفرض انضرائب الأمر انذى أرق كاهل للناس.

ولم تحدث قلائل ذات خطورة فى بداية حكم السلطان الغورى ولكن الأخطار التى بدأت تظهر وبقوة والتى عصفت بكيان الدولة المملوكية هما: اكتشاف البرتغاليون لطريق رأس الرجاء الصالح الامر الذى ضعف وهز الكيان الاقتصادى للدولة المملوكية فقد حرم سلطنة الدولة المملوكية من المورد الأول لثروتها وعظمتها وقوتها.

الأمر الذى جعل السلطان قانصوة الغورى يقوم بعمل عسكري ضد البرتغاليين فقد اعد حملة بحرية كبيرة إلى البحر الأحمر سنة 911 هـ وأستطاعت أن تنزل بالأعداء هزيمة ساحقة للبرتغاليين سنة 914 هـ، ولكن البرتغاليين ثأروا لأنفسهم سن 915 هـ فى موقعة ديو البحرية وبذلك تفهقرت تجارة مصر مع الشرق الاقصى والغرب الاوروبى الامر انذى لضعف كيان دولة المماليك.

ظهور خطر العثمانيون وفى الوقت الذى ساءت فيه أحوال الدولة المملوكية الاقتصادية والإجتماعية ظهر خطر جديد لاح فى الافق الأ وهو ظهور الخطر العثماني، وفى القرن 16 الميلادى تمكن العثمانيون من الاستيلاء على اسيا الصغرى والبلقان و أواسط أوروبا وكان امامهم الخيار بين استمرار التوسع فى أوروبا، او اتوسع فى الشرق على حساب الدول الإسلامية.

وقد اختار سليم الأول الاتجاه إلى الشرق على حساب الدول الإسلامية المجاورة والذي شجعه على ذلك هو الخلاف المذهبى والسياسى الذى كان بين الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية فى إيران والعراق.

وبعد أن استطاع سليم الأول من الانتصار على الشاه إسماعيل الصفوى سنة 1514م فكان لابد وأن يحتك بالمماليك وان تكون السواجحة بينهما أمر لا مفر منه ففى سنة 1515م أستولى العثمانيين على إمارة ولغز

تلك الأمانة التركمانية التي كانت تحت حماية الدولة المملوكية الأمر الذي اقلق السلطان الغورى من اقتراب الخطر العثماني إلى دولته.

العثمانيين والمماليك ومعركة مرج دابق :

عندما ورنست الأتباء للسلطان الغورى عن الاستعدادات والحشود للكبرة التي يقوم بتجهيزها سليم الأول بالقرب من الدونة المملوكية، قام - وعلى وجه السرعة - بحشد قواته هو الآخر والاستعدادات للمواجهة العثمانيين ففي عام 922هـ - 1516م خرج قانصوه الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام والتقى الفريقان عند مرج دابق وقد أبلى المماليك في هذه المعركة بلاءً حسناً وكادوا أن يعصفوا بالخطر المحقق بهم ألا وهو العثمانيين ولكن حدث شئ لم يكن في الحسبان وهو خيانة خاير بك نائب حلب - الذى كان متصلاً بالعثمانيين - واخذ يطلق الكذب والشائعات بين صفوف الجيش المملوكى الأمر الذى جعل الدائرة تكور على المماليك وادى إلى تقهقرهم وقد لاذ معظم الجيش المملوكى بالفرار وبذلك انتهت معركة مرج دابق بهزيمة المماليك هزيمة كبرى فقد هزموا ومات سلطانهم قانصوه الغورى جراء ماحدث.

طومان باى وسقوط نهائى للدولة المملوكية :

وفي ظل تلك الظروف المترتبة لم يجد المماليك إلا الإسراع فى اختيار سلطان لهم ليقودهم فى مواجهة العثمانيين وبالفعل تم اختيار طومان باى والذى تلقب بلقب الأشرف طومان باى، وكان طومان باى آخر سلاطين دولة المماليك فى مصر وبلاد الشام.

وفي تلك الاثناء كان قد استولى العثمانيون على كلا من حلب، دمشق، غزة ثم اخترقوا الصحراء الشرقية فى طريقهم إلى القاهرة فأراد السلطان الجديد الخروج لملاقاتهم فى الصحراء وهم متعبون من طول الطريق، ولكن اسراء المماليك رفضوا الخروج وفضلوا البقاء فى أماكنهم اعتقاداً منهم أن حصونهم سوف تحميهم.

موقعة الريداينة 922هـ - 1517م :

التقى الجيش المملوكى بقيادة طومان باى بالجيش العثمانى بقيادة سليم الأول، وقد أظهر طومان باى شجاعة نادرة ولكنه لم يستطع الصمود طويلا فى التصدى لهذا الجيش المتكامل والمنظم، هذا وقد حلت الهزيمة بالمماليك وفر طومان باى ليواصل المقاومة بين دروب القاهرة وأحيائها وأستطاع أن يخرج سليم الأول من القاهرة بعد أن دخلها ولكن ظهرت عوامل الخيانة مرة لخرى فقد وجد طومان باى بهجوم العربان والبنو الأمر الذى جعل طومان باى يتقهقر إلى وِردان (قرب اسبابة حاليا) حيث دارت معركة ثانية بين العثمانيين وجيش صغير من المماليك وعندما تغلب العثمانيين على المماليك لم يجد طومان باى أمامه سوى الهرب والأختباء عند مشايخ العربان بمديرية البحيرة ولكن هذا الشخص قد خان طومان باى !! وسلمه إلى الجيش العثمانى وقام العثمانيين بشنقه على باب زويلة عام 922هـ - 1517م لتعلن عن انتهاء عصر دولة المماليك وسرد صفحات جديدة عن عهد جديد يطلق عليه العصر العثمانى لتصبح مصر ولاية عثمانية.

عقّب المؤرخون على حكم المماليك التى بدأت بحكم الملك برقوق بأسم حكم المماليك البرجية لأن مركز حكمهم وتدريبهم كان فى القلعة. وبدء حكم المماليك البرجية (الشراكسة) فعليا بحكم الملك برقوق على المسلمين فى فترته الثانية أما فترة حكمه الأولى فهى تعتبر فترة انتقال بين حكم المماليك البحرية والمماليك البرجية (الشراكسة) وذلك فى سنة 1390 م و 1106 للشهداء و 792 هـ

رأية (علم) المماليك البرجيين التى كانوا يحاربون تحت نوااه وكان اللون الغالب هو اللون الأصفر أضيف اللون الأخضر عند عودتهم للحكم فى القرن ائ 18 عندما ضعف الحكم العثمانى التركى على مصر

قال المقرئى المواظ والاعتبار فى ذكر الخطب والآثار الجزء

الثالث (041 من 761) : " دولة المماليك الجراكسة وهم واللائض والروس أهل مائة عامرة وجبال ذات أشجار ولهم أغنام وزروع وكلهم في مملكة صاحب مدينة سراي قاعدة خوارزم وملوك هذه الطوائف لملك سراي كالرعية فن داروه وهدوه كف عنهم وإلا غزهم وحصرهم وكم مرجة قتلت عسكريه منهم خلائق وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم رقيقاً إلى الأقطار فأكثر المنصور قلاون من شرائهم وجعلهم وطائفة اللائض جميعاً في أبراج النقعة وساعهم البرجية فبلغت عندهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وعمل منهم أو شاقية وجمقدارية وجاشنكبرية وسلاحدارية وأولهم:

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برفوق بن أنص:

أخذ من بلا للحركس ويبيع ببلاد القرم فجبله خواجه فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة فاشتراه منه الأمير الكبير بلبغا الخاصكي واعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجانب فيعرف برفوق العثماني.

جدول لسلطين المماليك المماليك من المماليك البرجسون الذين

حكموها مصر

رقم / مسلسل	اسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
1/191 م.ج	السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برفوق بن أنص العثماني اليلبخاري الجاركمسي القائم بتولة الجراكسة بالديار المصرية	1382 1399	
2/192 م.ج	الناصر فرج بن برفوق	1399 1405	هرب
3/193 م.ج	المنصور عبد العزيز بن برفوق	1405 1405	
3/194 م.ج	الناصر فرج بن برفوق / مرة ثانية	1405 1412 1412	
4/195 م.ج	المستعين بالله أبو الفضل العباسي	1412 1412	كان الخليفة العباسي يحاول الحصول على السلطة بعد مقتل السلطان فرج فاتوق الأمراء فيما بينهم على اختيار الخليفة العباسي المستعين بالله

رقم / مسلسل	اسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
			أبو الفضل سلطانا على مصر بالإضافة إلى منصب الخليفة وتم عزله
5/196 م.ج	المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	1421 1412 1412	
6/197 م.ج	المظفر أحمد بن الشيخ	1421 1421	تحت وصاية الأمير ططر
7/198 م.ج	الظاهر سيف الدين ططر	1421 1421	
8/199 م.ج	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر	1421 1422	تحت وصاية الأمير برسباي
9/200 م.ج	الأشرف سيف الدين برسباي	1422 1438	
10/201 م.ج	العزیز جمال الدين يوسف بن بريباي	1438 1438	تحت وصاية الأمير حتمق
11/202 م.ج	الظاهر سيف الدين حتمق	1438 1453	
12/203 م.ج	المنصور فخر الدين عثمان بن حتمق	1453 1453	خلع بعد شهر

رقم / مسلسل	أسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
13/204 ج.م	الأشرف سيف الدين إينال انعلاني	1453 1460	
14/205 ج.م	المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال	1460 1460	أربعة شهور
15/206 ج.م	الظاهر سيف الدين خشقم	1467 1460	
16/207 ج.م	الظاهر سيف الدين بنيابي المؤيدي	1467 1468	
17/208 ج.م	الظاهر عمر بغا الترومي	1468 1468	عزل بعد شهرين
18/209 ج.م	الأشرف سيف الدين قايتباي	1496 1468	تنازل عن لاينه محمد وتوفي في اليوم التالي
19/210 ج.م	لناصر محمد بن قايتباي	1496 1497	
20/211 ج.م	الظاهر قانصوه	1497 1497	ثلاث أيام
21/212 ج.م	الناصر محمد بن قايتباي	1498 1497	مرة ثانية
22/213 ج.م	الظاهر قانصوه الأشرفي	1500 1498	
23/214 ج.م	الأشرف جنبلط	1501 1500	
24/215 ج.م	العادل طومان باي	1501 1501	مائة يوم

رقم / مسلسل	أسم السلطان / الملك	مدة الحكم	ملاحظات
25/216 م.ج	الأشرف قانصوه الغوري	1501 1516 1516	هزيمة مرج دايق أمام الأتراك
25/217 م.ج	العادل طومان باي 1517		تعمار الأتراك العثمانيين السنيين المسلمين مصر

اول برسباي عقد معاهدة مع "جنوس" ملك قبرص لوقف هذه الاعتداءات ولما فشلت محاولات الصلح شن ثلاث حملات عسكرية في ثلاث سنوات متتالية -حجم الحمطين الأزني و الثانية يشعر بأنهما كانتا بهدف التعرف على العدو وعلى الأرض - و استطاعت الحملة الثالثة فتح الجزيرة و أسر منكمها

2- سلاطين الممالك البرجية الذين حكموا مصر

25

783هـ/1382م

الظاهر سيف الدين برفوق (برجي).

26

791هـ/1389م

حاجي الثاني، للمرة الأولى.

27

784هـ/1382م

الظاهر سيف الدين برفوق، للمرة الأولى.

28

791هـ/1389م

حُجِّي الثاني، للمرة الثانية (بحري).

29

792هـ/1390م

الظاهر سيف الدين برفوق، للمرة الثانية

30

801هـ/1399م

الناصر ناصر الدين فرج، للمرة الأولى.

31

808هـ/1405م

المنصور عز الدين عبد العزيز

32

808هـ/1405م

الناصر ناصر الدين فرج، للمرة الثانية

33

815هـ/1412م

العادل المستعين (الخليفة العباسي، الذي نصب سنطانا

34

815هـ/1412م

المؤيد سيف الدين شيخ.

35

824هـ/1421م

المظفر أحمد.

36

824هـ/1421م

الظاهر سيف الدين ططار.

37

824هـ/1421م

للصالح ناصر الدين محمد.

38

825هـ/1422م

الأشرف سيف الدين برمباي.

39

841هـ/1437م

العزیز جمال الدين يوسف.

40

842هـ/1438م

الظاهر سيف الدين حقمق.

41

857هـ/1453م

المنصور فخر الدين عثمان.

42

857هـ/1453م

الأشرف سيف الدين لينال.

43

865هـ/1461م

المؤيد شهاب الدين أحمد

44

865هـ/1461م

الظاهر سيف الدين خوش قدم.

45

872هـ/1467م

الظاهر سيف الدين بلباي.

46

872هـ/1468م

الظاهر تيموربوغا.

47

872هـ/1468م

الأشرف سيف الدين قايتباي.

48

901هـ/1496م

للناصر محمد.

49

903هـ/1498م

الظاهر قانصوه.

50

905هـ/1500م

الأشرف جانبلاط.

51

906هـ/1501م

العادل سيف الدين تومان باي.

52

906هـ/1501م

الأشرف قنصوه الغوري.

53

922هـ/1516م

الأشرف طومان باي

خصائص عصر المماليك

أُتقسِم عصر حكم المماليك مصر إلى قسمين رئيسيين كما أوضحنا سابقاً : المماليك البحرية والمماليك البرجية . بمعنى المماليك الذين يسكنون

انقلعة ذات الأبراج - والمماليك البحرية وهم الذين يسكنون قلعة بجانب بحر النيل وقد كان المماليك عموماً هم من المخطوفين بواسطة العصابات الموجودة في أوروبا أو الأسرى من الأطفال الأوربيين ، وقد تربوا تربية إسلامية وكان ولائهم لبني جنسهم فقط وكان لا يهتم أهل البلاد المسلمين أو المسيحيين ولكن تربيتهم إسلامية جعلتهم يميلون إلى الإسلام انحراب والزود عنه ، وكانت أحداث هذا العصر التاريخية مئنة بالعجب والغرابة فقد جمع المتناقضات وبالرغم من عدم إيمانهم إلى مصر إلا أنهم استطاعوا هزيمة الصليبيين والمغول ربما هذا راجع إلى أصلهم الأوربي كما أمتد سلطانهم من شمال سوريا إلى جزيرة قبرص إلى انجاز ، وحاول الملوك مهادنتهم وخطب ودهم حتى الأوربيين منهم.

وقد رصد المماليك الأوقاف على وجوه القبر والإحسان أما للعلوم والفنون فقد نالت في عصرهم حظاً وافراً من التشجيع ، وظهرت هذه الفنون في جوامعهم انتهى ما تزال شاهدة على الذوق الرفيع الذي تميز به عصرهم . وكانت هناك مشاتل تباع فيها الأشجار والرياحين والزهور داخل أصص فخارية يشترئها الناس ويزرعونها ويزرعونها في حدائقهم الخاصة لو على اسطح المنازل.

أما التناقض (الساجيد) فكانت تحفاً رائعة تسحر العيون... ولا تزال هذه التناقض واضحة في صور الفنانين الأوربيين إذ رسموها فوق العروش أو منشورة من النوافذ والشرفات أو مبسوطة فوق الموائد والمذابح الكنسية.

إلا أنه حكمهم تميز أيضاً بالدموية فقد كانوا ينقلبون على بعضهم البعض طمعاً في الحكم ، فكثير منهم مات مقتولاً بيد مملوك آخر وعانى المصريين أنواعاً من التعسف والجور والظلم فقد تعالي عليهم المماليك وأحقرهم وأذلهم فعملوهم معاملة العبيد وفرضوا عليهم للضرائب الفادحة ، أما الأقباط بالإضافة إلى ما أصاب للمسلمين منهم فقد تحملوا

الإضطهاد والسجون والضرب في الشوارع وهدم الكنائس من عامة المسلمين ومضايقات اخرى من المماليك أنفسهم ولم يكن لأي قبلى حرمة حتى الباب نفسه لم يكن فى مأمن من اذاهم ، فبطشوا بالأشخاص وخرّبوا كل ما أمتدت إليه أياديهم من كنائس وأبيرة (1)

أسباب سقوط الحكم المملوكى على مصر

ذكر دكتور عبد الحليم عويس فى دراسته عن أسباب سقوط المماليك (1) فقال : " كانوا دائما أهل طعان ونزال .. كانوا أشقاء للسيف والرمح، هو هويتهم وهو مؤهلهم للحياة والبقاء .. وعلى امتداد تاريخهم كان السيف مقرونا بهم . وكانوا عضد الثورة الإسلامية فى كثير من المواقف، وكانوا حمايتها من أعدائها .

وفى مقابل ذلك عاشوا .. وتحملتهم شعوب مصر والشام، وسمحت لهم بالسيطرة عليها .. وهم بدورهم كانوا جيشها وأسطولها وحمايتها أمام كل غزو خارجي، وكانوا يخضعون لتقاليد البلاد ولا يعرفون لهم ولاء إلا للدين الذى عاشوا به وربوا على تعاليمه، وإلا للسلطان الذى يحكم ...

ثم مع تطورهم الداخلى أصبح ولاؤهم للسلطان الذى يحكمهم منهم .. ولقد شكلوا مجتمعا ذا هوية خاصة، له أسلوبه الخاص فى الحياة، وانه تربيته الخاصة وله فكره الخاص .. لقد كان مجتمعهم أشبه ما يكون بالمجتمع العسكري أو المجتمع البحري الذى يعيش للبحر أو الجندية، فالجندية عقله وهي عاطفته .. ولا ولاء عنده لسواها .

وعندما مات فجأة آخر سلاطين الأيوبيين الملك الصالح أيوب .. تكتمت زوجه شجرة الدر الخبير لأن بلاد مصر كانت فى حرب مع لويس التاسع الذى هزم وأبىد جيشه فى دمياط والمنصورة، ثم استدعت الزوجة الملكة ابن زوجها " توران شاه " لينفذ البلاد، فلما جاء توران وأنقذ البلاد من الصليبيين، وحاول أن يستأثر بالسلطة دبرت المرأة قتله .. ثم أقامت نفسها بمساعدة المماليك ملكة على مصر، وقد اختار المماليك كبيرهم عز

الدين أيبك ليقوم بمساعدة ' المملوكة ' التي صارت ' ملكة ' (شجرة الدر) في إدارة شؤون مصر، وتطور الأمر فتزوجت شجرة الدر من عساعدها عز الدين، وتنازلت له عن السلطة .

وهكذا تم تنازل آخر من ينتسبون إلى دولة الأيوبيين بنسب إلى كبير المماليك، ومع أن شجرة الدر تعتبر انبداية التاريخية لدولة المماليك، لكن البداية الأكثر عمقا وأحقية هي التي مثلها هذا التنازل، ثم استأثر عز الدين أيبك بالسلطة سبع سنوات أحست فيها المملوكة للقاتلة بأنها سلبت كل سلطة، فقامت بقتل زوجها الجديد مثلما قتل من قبل ابن زوجها القديم .

نكن المماليك سرعان ما قتلوها شرًا وانتقامًا .. واستقر الأمر لدولة المماليك في مصر والشام .

والمماليك قسمان : برجية نسبة إلى أبرج القلعة التي كانوا يسكنون فيها بالقاهرة .. وبحرية نسبة إلى جزيرة الروضة المطلة على النيل التي كانوا يسكنون فيها كذلك، ومن أشهر للمماليك الأول براقوق .. وآخرهم قانصوه الغوري الذي سقطت تحت سنانك خيل السلطان سليم سنة 1527م .. ومن أشهر المماليك البحرية عز الدين أيبك وببيرس والمنصور قلاوون .. وقد انتهى هؤلاء من قبل المماليك البرجية بحوالي قرنين وكان المماليك البرجية - أبطال عين جالوت - يمثلون امتدادهم التاريخي .

لقد لعب المماليك البرجية بخاصة في تاريخنا دورًا لم تقم به إلا دول قليلة في التاريخ .. لقد صدوا غارتين حضارتين من أكبر وأشهر الغارات التي عرفها تاريخنا وتاريخ الإنسانيّة .

كانت الأولى يمثلها زحف هولاء الذي ينتمون إليه جنسيًا، لقد صدوه بعقيدتهم الإسلامية التي لم يعد لهم ولاء إلا لها (الحمد لله أن نظرية اتقومية العنصرية لم تكن ظهرت بعد) وقد وقفوا أروع وقاتهم في صدّه في عين جالوت الشهيرة رافعين راية وإسلامه !!

ثم كانت الثانية في معاركهم الدائمة ضد الصليبيين الذين كانت لهم بقايا بعد صلاح الدين، فعلى يد لسطانين المنصور قلاوون الذين تسلم الحكم سنة 678 هـ و السلطان الأشرف خليل - الذي تولى الحكم سنة 689 هـ .. على يد هذين السلطينين - فضلا عن جهود بيبرس - تهاوت قلاع الصليبيين الياقية والتي كانوا قد تقدموا في بعضها بعد صلاح الدين كحصن المرقب وعكا وغيرهما، وطويت على يد العماليك آخر صفحات الغزو الصليبي الذي استمر قرنين من الزمان وكان ذلك سنة 960 هـ .

وقد تضافرت ظروف عالمية، ككتشاف رأس الرجاء الصالح - وظروف إسلامية كبروز الأتراك - ثم محمد علي، وظروف داخلية كاتقسام الأتراك على أنفسهم .

تضافرت كل هذه الظروف على إنهاء الدور الذي قام به العماليك، لكن كان أكبر سبب هو بانهماكهم وزحزحهم من مكائهم في التاريخ، هو أنهم نسوا الرسالة التي عاشوا من أجلها وتعاقدوا مع الشعوب التي حكموها بشأنها .

نسوا رسالتهم في اندفاع الخارجي .. نسوا السيف، وتبدوا عند أسلوب معين، ولم يطوروا أنفسهم، ثم تطوروا فنقلوا من حماية خارجية للأمة إلى متسلطين داخليين عليها يمنعون حركتها وتطورها .

وبذا فقدوا دورهم في التاريخ .. وسقطوا بعد أن أنوا للحضارة الإسلامية الكثير .. وأنقذوها من أكبر خطرين عالميين وهما التتار والصليبيون ..

أهم المراجع والمصادر

- 1 - تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الإعلامي بيروت.
- 2 - تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، محمد أحمد انظر، دار البداية، عمان الأردن، الطبعة الأولى 2006م - 1426هـ.
- 3 - تاريخ المغول والمماليك، د. أحمد عودات، جميل بيضاء، شحانة الناظر، دار الكندي، إربد، 1990.
- 4 - قيام نونة المماليك الأولى في مصر والشام، أحمد مختار العيادي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.
- 5 - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة عبد الرحمن اسماعيل، تحقيق د. حلمي أحمد القاهرة سنة 1956م.
- 6 - الفخري في الآداب السنطانية، لابن طباطبا، محمد بن علي، القاهرة سنة 1326 هـ - بيروت دار صادر، 1389 هـ / 1966م.
- 7 - انمواعظ والاعتبار للمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر ط القاهرة 1270.
- 8 - تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، نقله إلى العربية د. محمد علاء منصور، نشر دار الثقافة العربية 1415 هـ - 1994م.
- 9 - دولة آل سنجوق للأصفهاني، للبنداري، القاهرة طبعة قديمة 1900م.
- 10 - جنكيز خان قاهر العالم غروسية نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، دمشق 1982م.
- 11 - صبح الأعش في صناعة الإنشا للفتنندي.
- 12 - أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال لاهور.
- 13 - الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية، فاضمة زيار الحمداني، كلية الآداب، جامعة بغداد رسالة ما جستير عام 1995م.

- 14 - في التاريخ الأيوبي والمملوكي د. أحمد مختار العبادي مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.
- 15 - الأيوبيون بعد صلاح الدين أو الحملات انصليبية، الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، على محمد الصلابي.
- 16 - قصة القتار من البداية إلى عين جالوت دراغب السرجاني مؤسسة اقرأ، الطبعة الأولى 1427هـ - 2006م.
- 17 - أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، المكتب الاسلامي، الطبعة السادسة 1408 هـ - 1988م.
- 18 - منهج الرسول في غرس الروح الجهادية د. سيد نوح.
- 19 - مصر في عهد بناء القاهرة، إبراهيم شعوط.
- 20 - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان نقله إلى العربية نبيه أمين قرس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت طبعة 14 يناير 2000م.
- 21 - دولة المماليك سمير فراج، مركز الولاية للنشر والإعلام.
- 22 - السلطان المظفر سيف الدين قطز، قاسم عبده، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1419هـ - 1998م.
- 23 - صفحات مضيوية من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام سليم عبد الهلالي، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى 1410 هـ - 1990م.
- 24 - العز بن عبد السلام للزحيلي، دار القلم دمشق الطبعة الأولى 1412 هـ - 1992م.
- 25 - بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية موثقة، محمد محمد حسن شراب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1415 هـ - 1994م.
- 26 - تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، محمد سهيل طفوش، دار النفائس الطبعة الأولى 1420هـ / 1999م.
- 27 - تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران، دار النهضة الطبعة

الثانية 1999م،

- 28 — الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيين د. السيد الباز العربي،
دار النهضة العربية.
- 29 — السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي انمقرزي، تحقيق محمد
مصطفى زيادة، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1971م
دار الكتب القاهرة 1972م.
- 30 — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة
لتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.
- 31 — نهاية الأرب في فنون الأدب أحمد عبد الوهاب انويري الهيئة
المصرية للكتاب، القاهرة 1395هـ.
- 32 — الجوراني والعلمان في مصر في العصرين الفاطمي، والأيوبي نجوى
كمال كيرة، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، مصر الولي 2007م.
- 33 — كنز الدرر وجامع الغرر، أبو بكر بن عبد الله الدواسري تحقيق
صلاح الدين المنجد القاهرة 1961م.
- 34 — مذكرات جوانفيل، جان جوانفيل، ترجمة د.حمن حبشي، دار
المعارف، مصر 1968م.
- 35 — الحروب الصليبية بين الشرق والغرب د.محمد مؤنس عوض،
الطبعة الأولى 1999/2000م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية
والإجتماعية.
- 36 — شفاء القلوب في مناقب بني أيوب لأحمد إبراهيم الحنبلي، مكتبة
الثقافة الدينية، طبعة سنة 1996م، 1415هـ.
- 37 — في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده قاسم طبعة 2007م مزيدة
ومنقحة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.
- 38 — بدائع الزهور في وقائع الدهور ابن أبي أنيس أبي البركات الناصري
محمد بن أحمد بن إياس الحنفي الطبعة الأولى 1975م.

- 39 - عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي القاهرة
الطبعة 1958م.
- 40 - الدولة الأيوبية تاريخها السياسي والحضاري د. عرب دكتور، دار
المواسم طبعة سنة 2006م بيروت لبنان.
- 41 - في التفسير الإسلامي لتاريخ، نعمان السامرائي مكتبة المنار،
الأردن، الطبعة الأولى 1406هـ/1995م.
- 42 - أعياد التاريخ نفسه، محمد تقي، الطبعة الثالثة، 1419هـ -
1999م.
- 43 - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس د. ماجد عرسان
الكيلاي، الدار السعودية للنشر والتوزيع الطبعة الأولى
1405هـ/1985م، جدة.
- 44 - الجبهة الإسلامية لمواجهة المخططات الصليبية، جبهة الشام
وفلسطين ومصر د. ماجد غنيم أبو سعيد، دار السلام، القاهرة،
الطبعة الأولى 1428هـ/2007م.
- 45 - السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان، دار للرسالة.
- 46 - الدولة الأموية عوامل الإزدهار، وتداعيات الإنهيار د. علي محمد
للصلاحي، دار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى
1426هـ/2005م.
- 47 - التفسير الكبير لفخر الدين الرازي.
- 48 - الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية
بيروت الطبعة الخامسة 1417هـ/1996م.
- 49 - رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.
- 50 - تفسير الأوسى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع
المئاني، إدارة الطباعة بالهند، بدو ذكر سنة الطبع.
- 51 - في التأصيل الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل.

- 52 - نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.
- 53 - صحيح البخاري، عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري أعني به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض 1419هـ/1998م.
- 54 - الضعف المعنوي، وأثره في سقوط الأمم، د. حمد بن صالح السحبياني، كتاب المنتدى، الطبعة الأولى 1423هـ/2002م.
- 55 - نور انقياض والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلي، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى 1423هـ/2002م.
- 56 - تاريخ مصر الإسلامية، زمن سلاطين بني أيوب د. أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولي القاهرة، 2002م.
- 57 - صلاح الدين الأيوبي للصنابلي، دار المعرفة، للطبعة الأولى 1429هـ/2008م.
- 58 - السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري د. عصام محمد شياور، دار النهضة العربية طبعة 1994م.
- 59 - شجرة النور قاهرة الملوك، نور الدين خليل دار الكتب المصرية.
- 60 - موسوعة تاريخ مصر، لأحمد حسين.
- 61 - شجرة النور، د. يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 2004م.
- 62 - ولاية المرأة في الفقه الإسلامي، إعداد حافظ محمد أنور، دار بلنسية، السعودية.
- 63 - تدوين الدستور الإسلامي، أبو الأعنى المودودي.
- 64 - جامع البيان، للطبري، محمد بن جرير الطبري، المكتبة التجزئية، مكة المكرمة 1408هـ.

- 65 — قيام دولة المماليك الأولى للعبادي، أحمد مختار العبادي طبعة 2002م، مؤسسة شباب الجامعة.
- 66 — اتعدوان الصليبي على بلاد الشام، د. جوزيف نسيم دار النهضة عام 1981م بيروت.
- 67 — العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، د. منذر الحايك، الطبعة الأولى 2006م الأوتل دمشق سوريا.
- 68 — معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، د. يوسف حسن غوانمة، الطبعة الأولى 1415هـ/1995م، دار الفكر.
- 69 — تاريخ القبائل العربية: محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة.
- 70 — تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، يوسف العظم.
- 71 — سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1990م بيروت، لبنان.
- 72 — نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أبرد العلاني الملقب بأبي دقماق، دراسة وتحقيق سمير طيارة، المكتبة العصرية لبنان.
- 73 — انتخفة المنوكية في الدولة التركية بيبرس المنصوري، لدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى 1407هـ/1987م.
- 74 — شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد دار ابن كثير دمشق، بيروت، الطبعة الأولى 1412هـ/1991م.
- 75 — المغول د. السيد ابنز العربي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1406هـ/1986م.
- 76 — سقوط الدولة العباسية د. سعد الغمدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1401هـ/1981م.
- 77 — العالم الإسلامي والغزو المغولي، إسماعيل الخالدي مكتبة صلاح الدين، مكتبة الفلاح الكويت، الطبعة الأولى 1404هـ/1984م.

- 78 - الحياة السياسية في العراق، د. محمد صالح الفزاز، مطبعة القضاء في النجف 1970م.
- 79 - المغول في التاريخ، للدكتور الصياد، دار النهضة العربية، بيروت لبنان.
- 80 - البدايات والنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية بدار هجر طبعة أولى.
- 81 - الدعوة إلى الإسلام، أرنولد.
- 82 - المغول والأوروبيون والصليبيون، محمود عمران دار المعرفة الجامعية قناة السويس مصر طبعة 2005م.
- 83 - سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حصص الناشر: محمد السيد.
- 84 - فتح القسطنطينية، ترجمة الدكتور حسن حبشي.
- 85 - تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.
- 86 - تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، د. شوقي.
- 87 - مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري.
- 88 - الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق ركن د. محمد فتحي أمين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ/1988م.
- 89 - جنكيز خان، العقيد محمد أمد الله، دار النفاث.
- 90 - حروب المغول، د. أحمد حطيط، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى 1994م.
- 91 - الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، د. عبد الجبار ناجي، صلاح عبد الهادي، د. إسماعيل النعيمي، د. مهين مجيد، مركز

أسكندرية للكتاب طبعة 2003م.

- 92 — تاريخ المغول عباس إقبال.
- 93 — دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج 7 العدد الرابع في 137 مادة جنكيز خان المغول ص 343.
- 94 — العرب والتتار، إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الثقافية، القاهرة 1963م.
- 95 — تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي ترجمة إني العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي القاهرة 1373هـ/1954م.
- 96 — تاريخ العراق بين إحتلالين، عباس العزاوي بغداد 1353هـ/1935م.
- 97 — قضايا العالم الإسلامي ومشكلاته النبراني، محمد نصر مهنا، منشأة المعارف الأسكندرية، الطبعة 1983م.
- 98 — أندولة الخوارزمية د. نافع الجود.
- 99 — معجم البلدات، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر 1979م.
- 100 — مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جمال الدين محمد ستام بن واصل.
- 101 — الدولة الخوارزمية وامنغول، حافظ حمدي دار الفكر العربي.
- 102 — الأتراك الخوارزميون، صيري سليم، مكتبة الثقافة الدينية، مصر طبعة 1419هـ/2000م.
- 103 — دولة السلاجقة، حسين عبد المنعم مكتبة الأنجلو 1975م.
- 104 — السلاجقة في التاريخ والحضارة، أحمد حلمي، دار السلام، الكويت، الطبعة 1406هـ/1986م.
- 105 — العبر في أخبار من غير للذهبي.
- 106 — انكامل في التاريخ لابن الأثير، بيروت، دار الكتب العربي، دار

صادر سنة 1979.

- 107 — عودة الروح للخلافة الإسلامية، د.محمد صالح محي الدين، دار طويق، السعودية، الطبعة الأولى 1425هـ/2004م.
- 108 — تاريخ الخلفاء للسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الطبعة الثانية سنة 1959م.
- 109 — تاريخ مختصر الدول، الطبعة الثانية، المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة 1308هـ/1890م.
- 110 — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، محمد أحمد النسوي، تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مصر سنة 1953م.
- 111 — كيف دخل التتار بلاد المسلمين، د. سليمان العودة، دار طيبة للنشر، السعودية الطبعة الثانية 1417هـ/1997م.
- 112 — تاريخ بخاري، للنرشحي، أبو بكر محمد بن جعفر، عربي عن الفارسية وحققه د. أمين بدوي نصر الله الطرازي دلة المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- 113 — الإعلام للزركي، خير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة 1389هـ.
- 114 — هزول دلام جنكيز خان، نقله إلى انجليزية نواء بهاء الدين نوري، باسم:
جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم، بغداد سنة 1946م.
- 115 — تاريخ الخمسين في أحوال أنفس نفيس، حسين بن محمد البكري، طبعة مصر 1283هـ.
- 116 — مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، سبط ابن الجوزي، الطبعة الأولى حيدر آباد الهند، سنة 1951 — 1952م.
- 117 — الدولة المستقلة في المشرق الإسلامي، د. عصام الدين عبد الرؤوف المفقي، دار الفكر العربي، القاهرة مصر 1420هـ/1999.

- 118 — جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، دراسة وترجمة
الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى 1420هـ/2000.
- 119 — العراق بين سقوط الدولة العباسية والعثمانية، عبد الأمير الرفيعي،
الفرات الطبعة الأولى 2000م.
- 120 — رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو انحنم ندي، دار ابن كثير،
الطبعة الأولى 1420/1999.
- 121 — بنو أمية بين المفظوط والإنتحار، د. عبد الحلیم عويس، دار
الصحوة، دار الوفاء، الطبعة الثالثة 1410هـ/1989م.
- 122 — الفتوحات الإسلامية لبلاد الهند والسند، د. سعد حنيفة الغمدي،
مركز دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى 1417هـ/1996م.
- 123 — تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان، حتى قيام الدولة التيمورية،
عباس إقبال، ترجمة عبد الوهاب عاشوب، المجمع الثقافي أبو طيب
1420هـ.
- 124 — الحوادث الجامعة لابن الغوطي.
- 125 — جهاد المماليك ضد المغول والصلبيين، د. عبد الله سعيد محمد
سافر الغامدي، جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه.
- 126 — تاريخ مصر لابن ميسر.
- 127 — دولة السلاجقة لصلابئي، دار المعرفة، بيروت لبنان.
- 128 — وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي محمد ماهر حمادة،
بيروت 1399هـ/1979م.
- 129 — دول الإسلام للذهبي، لأبي عبد الله محمد الذهبي، دار صادر،
بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1999.
- 130 — المختصر في أخبار البشر، أبو الفداء الملك المؤيد عماد الدين
إسماعيل صاحب حماد، بيروت بدون تاريخ طبع.
- 131 — تاريخ ابن خلدون المسمى، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير في

- تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ط
1391هـ/1971م.
- 132 – مجالس المؤمنين للمشستري، نور الله بن شريف، طهران
1299هـ.
- 133 – مآثر الأذافة في معالم الخلافة، للفتنشي، تحقيق عبد الستار أحمد
الفرج، عالم الكتب، بيروت لبنان.
- 134 – بغداد مدينة السلام وغزو المغول، سلمان التكريتي، مكتبة الشرف
الجديد، بغداد 1988م.
- 135 – تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصنّابي، علي محمد الصنّابي،
دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى 1428هـ/2007.
- 136 – نور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة،
عبد القادر أحمد أبو صيني رسالة دكتوراه معهد التاريخ العربي
للتراث العلمي في الدراسات العليا.
- 137 – الدولة العباسية للخضري، محمد الخضري بك، مؤسسة دار الكتاب
الحديث، بيروت لبنان 1989م.
- 138 – ذيل مرآة الزمان للبيوتني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد
بن أحمد بن قطب الدين البيوتني البعلبكي، مطبعة مجلس دائرة
المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكة.
- 139 – في ضلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت ط
11، 1402هـ.
- 140 – مجلة نواء الإسلام العدد الخامس، أبو زهرة.
- 141 – الترف وأثره في الدعاة والمصلحين، محمد موسى الشريف دار
الأندلس الخضراء، جدة السعودية، الطبعة الأولى 1424هـ/2003م.
- 142 – أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، رؤية تصحيحية، يحي
محمود بن جنيد، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى

2005م/1426هـ.

- 143 — طبقات الشافعية لنسبكي، عبد الوهّاب علي السديكي، تحقيق عبد الفتاح الحلول وزميله، دار إحياء الكتب العربية القاهرة.
- 144 — فتاوي ابن تيمية، جمع عبد الرحمن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للبحرين الشريفين.
- 145 — منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.
- 146 — الوافي بالوفيات، تأليف صلاح الدين أيبك الصفدي، تحقيق: هملوت رينر — طبع:
- دار النشر فرانز ستاير ((ألمانيا)) 1381هـ/1962م.
147. الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى اللغة د. السيد أنبار العربي، دار النهضة العربية، بيروت.
- 148 — النظم الإسلامية، حسن إبراهيم حسن.
- 149 — نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي، عبد العظيم الديب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية 1418هـ.
- 150 — أصداء الغزو المغولي مأمون جرّار، مكتبة الأقصى الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.
- 151 — الدونة العثمانية للصلاحي، على محمد الصلاحي، دار الإيمان الأسكندرية، الطبعة الأولى 2003م.
- 152 — الإغداق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد، المعهد الفرنسي بدمشق لدراسات العربية 1953م.
- 153 — عقيدة الجمان في تاريخ أهل الزمان، البدر محمود بن أحمد بن موسى، تحقيق محمد أمين وزارة الثقافة القاهرة 1992م.
- 154 — أخبار الأيوبيين لابن العميد، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد — بلا.
- 155 — المسلمون من التبعية والفتنة إلى القيادة والتعمير، د. عبد الحليم عويس، دار للعبيكان، الطبعة الأولى 1427هـ/2006م.

- 156 — دراسات تاريخية عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى 1426هـ / 2005م، دمشق، بيروت.
- 157 — مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني.
- 158 — نيل الأوصان، للإمام الشوكاني.
- 159 — الروض الزاهر في سيرة السلطان الظاهر، محي الدين عبد الله بن رشيد الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، للرياض 1396هـ / 1976م.
- 160 — الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، جودت انركاني دار الفكر المعاصر، بيروت — لبنان، الطبعة الثانية 1422هـ / 2001م.
- 161 — انملك المظفر قطز بن عبد الله المعزي، رحاب عكاوي دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- 162 — مصر والشام في عصر الايوبيين، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية بيروت، لبنان.
- 163 — زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج 9، بيبرس النوادار تحقيق زبيدة عطا.
- 164 — معركة عين جالوت، دراسة في الجيش المملوكي والمغولي، محمد ضاهر وتر، الطبعة الأولى 1409هـ / 1989م.
- 165 — الفتوح الإسلامية عبر التاريخ، د. عبد العزيز ابراهيم العمري، مركز الدراسات والإعلام، درا اشبينا، للطبعة الأولى 1418هـ / 1997م.
- 166 — من أجل فلسطين، حسني ادهم جرار، مؤسسة الزيتونة للنشر، الطبعة الأولى 1419هـ / 1998م الأردن، عمان.
- 167 — تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، دار انجيل بيروت، الطبعة الثانية 1978م.
- 168 — أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد راغب الحلبي، المطبعة

العلمية الأولى 1342هـ / 1924م.

169 - تاريخ ابن الوردي، نعمة المختصر في أخبار البشر، زين الدين
عمر بن الوردي، دار المعرفة، بيروت، لبنان 1389هـ / 1970م.

170 - تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ماجد عبد المنعم،
مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة 1963م.

171 - صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد
عبد الباقي، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى
1374هـ / 1955م.

172 - تبصير المؤمنين بفقہ النصر وانتمكين في القرآن الكريم، علي
محمد الصلابي، دار الصحابة، اشارة، الطبعة الأولى.
173 - سنن سعيد بن منصور.

174 - تاريخ مصر، اسكندر عمون، مطبعة المعارف بشارع الفجالة
بمصر، الطبعة السادسة 1342هـ / 1923م.

175 - تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور محي الدين عبد
الظاهر، الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة 1961م.

176 - صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية
1412هـ / 1991م المملكة العربية السعودية.

177 - الطائفة المنصورة، سلسلة تصدر عن مجلة البيان.

178 - الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، ابراهيم النعمة، طبعة
1425هـ / 2004م، مطبعة الزهراء الحديثة.

179 - الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في عهد العصر
المملوكي، د.فايد حماد محمد عاشور، جرومن برس، طرابلس، لبنان،
الطبعة الأولى 1995م / 1415هـ.

180 - الطريق إلى بيت المقدس، د.جمال عبد الهادي، محمد، د.وفاء محمد
رفعت، الطبعة الثانية 1422هـ / 2001م، دار التوزيع والنشر

الإسلامية، مصر القاهرة.

- 181 — نهر التاريخ الإسلامي منابعه العليا وفروعه العظمى، د. إبراهيم أحمد العدوي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 182 — ماهية الحروب الصليبية د. قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية 1993م.
- 183 — انفيقه والدولة، الفكر السياسي السبعي، فؤاد إبراهيم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى 1998م.
- 184 — التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية، الطبعة الأولى 1419هـ / 1998م
- 185 — تاريخ الدولة المغولية في إيران، فهمي عبد السلام عبد العزيز، القاهرة 1981م.
- 186 — تاريخ فاتح العالم، عطا ملك الجويني، نقله عن الفارسية محمد التونجي، دمشق 1985م.
- 187 — الإسلام في آسيا منذ الغزو المغولي، محمد نصر مهنا، الطبعة الأولى 1990 — 1991م، المكتب الجامعي الحديث.
- 188 — العراق سياقات الوحدة والانقسام، بشير نافع، دار الشروق، الطبعة الأولى 1427هـ / 2006م.
- 189 — أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، د. ناصر القفاري، دار الرضا نجيزة مصر، الطبعة الثالثة 1418هـ / 1998م.
- 190 — جواهر السنوك في أمر الخلفاء والملوك لابن ياسر، تحقيق د. محمد زينهم، دار الثقافة الطبعة الأولى 1426هـ — 2006م.
- 191 — عصر الدولة الزنكية، على محمد الصلابي، دار ابن كثير، دمشق — بيروت، الطبعة الأولى 1428هـ / 2007م.
- 192 — خلفاء بني العباس والمغول أسقطوا بغداد، تأليف السيد حسن مشير، دار الملاك، الطبعة الأولى 1421هـ / 2001م.

- 193 - دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك د.نعمان محمود جبران،
د.محمدحسن العمادي، الطبعة الأولى 2000م.
- 194 - الظاهر بيبرس، بيتر تورلو، ترجمة محمد جديد.
- 195 - الطريق إلى القدس، د.محسن محمد صالح مركز الإعلام العربي،
انقاهرة الطبعة الأولى 1424هـ / 2003م.
- 196 - مصر في العصور الوسطى: محمود محمد الحويري، الطبعة الثانية
2002م، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات سنة 2002م.
- 197 - التتار والمغول، د.محمود أسيد مؤسسة شباب الجامعة طبعة
2004م.
- 198 - موسوعة تاريخ العرب، عصر المماليك والعثمانيون، عبد المنعم
الهاشمي، دار أنجار بيروت 2006م.
- 199 - إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، بالتطبيق على قناة
الجزيرة، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 1429هـ / 2008م.
الشيخ فيصل بن جاسم بن محمد آل ثاني.
- 200 - انمظفر قطز، ومعركة عين جالوت، بسام العملي، دار النفايس،
الطبعة السادسة 1408هـ / 1988م.
- 201 - دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، سحر
السيد عبد العزيز سالم الطبعة 2005م، مؤسسة شباب الجامعة.
- 202 - مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك د.سعيد عبد الفتاح
عاشور، دار النهضة العربية.
- 203 - تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوي، دار الشروق الطبعة
الأولى 1425هـ / 2005م.
- 204 - أبطال ومواقف، أحمد فرح عقيلان دار المعراج الدولية، المملكة
العربية السعودية، الطبعة الثانية 1418هـ / 1997م.
- 205 - عين جالوت، فتحي شهاب اتنين دار للشير، طنطا، الطبعة الأولى

1418هـ / 1998م.

206 – الضربات التي وجهت لثلاث قضايا على الأمة الإسلامية، أنور

الجندي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1418هـ / 1998م.

207 – ديوان ابن الوردي زين الدين عمر الوردي، دار الأفاق العربية،

الطبعة الأولى 1427هـ / 2006م مدينة نصر القاهرة.

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
3	الاهداء
5	المقدمة
فصل تمهيدى	
9	لمحة سريعة عن الثورة الايوبية
10	تولى السلطان الصالح نجم الدين الايوبى حكم مصر
12	اشتقاق الجنود الخرازمية عن جيش الملك نجم الدين ايوب
12	الحملة الصليبية السابعة على مصر
13	موقعة المنصورة
14	موقعة فارسكور واسر نويس التاسع وسقوط جيشه وهزيمتهم
15	سقوط دمايط فى يد الصليبيين
16	صفات توران شاه فى الحكم وقصه مقتله
الباب الاول (الفصل الاول)	
19	المماليك وحكم مصر
20	شجرة الدر وحكم مصر
21	تولى شجرة الدر لحكم مصر
23	زواج شجرة الدر من عز الدين ايبك الصالحى وتولييه حكم مصر
25	هروب قادة المماليك البحرية الى الشام
25	مقتل الملك المعز وشجرة الدر

الصفحة	الموضوع
27	قتل الملك المعز بقارص اندلس اقطاي
27	نشأة المماليك المعزية وتطور العلاقة بين السلاك المعز والمماليك الصالحية
29	ولاية نور الدين علي بن الملك المعز
الفصل الثاني	
31	قيام دولة المماليك
31	المبحث الاول : اصول المماليك ونشأتهم
35	1- نجم الدين ايوب والمماليك
36	أ- الصالحية
37	ب - ثمنات المماليك الصالحية في جزيرة الروضة
37	ج - هل السلطان الصالح نجم الدين هو اول من سمى المماليك البحرية بذلك ؟
39	نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك
46	نظام الاكل والنظاب والراحة
46	نظام التخرج وانهاء الدراسة
47	لغة المماليك
47	رابطة الاسنادية بين المماليك
48	رابطة الخمدانية (الزمالة)
49	هل هؤلاء اجلاب ؟
49	الكليات العسكرية الحديثة
50	الشيخ عز الدين عبد السلام بائع امراء المماليك
52	عصر الافذاد
53	جهود المماليك في دحر الحملة الصليبية السابعة

الصفحة	الموضوع
55	معركة المنصورة
59	توران شاه يقود المعركة
58	صور من شجاعة المماليك
59	لويس التاسع في الاسر وشروط الصلح
60	من اسباب هزيمة الصليبيين في الحملة التصليبية السابعة
61	من نتائج الحملة تصليبية سابعة
62	مقتل توران شاه وزوال الدولة الايوبية
66	كيفية مقتل توران شاه
62	اسباب سقوط الدولة الايوبية
70	توقف منهج التجديد الاصلاحى
70	نقص اتفقه الحركى الذى وجه نشاطات المدارس الاصلاحية
72	الظواهر السلبية
73	الظلم
75	الترف و الانغماس فى الشهوات
77	تعطيل الخيار الثورى
78	النزاع الداخلى فى الاسرة الايوبية
79	سواله انتصارى
81	قتل الايوبيين فى ايجاد تيار حضارى
82	ضعف الحكومة المركزية
83	ضعف النظام الاستخباراتى
84	غياب العلماء الربانيين عن القرار السياسى
85	وفاة الملك الناصر نجم الدين و عدم كفاءة وريثه

الصفحة	الموضوع
	الفصل الثالث
87	سلطنة المماليك بين شجرة الدر وعز الدين ايبك
87	شجرة الدر
87	سلطنة مصر
91	رفض الخليفة والعلماء وعامة الناس لتولي شجرة الدر السلطنة
91	شجرة الدر تخلع نفسها
92	حكم تولى السراة لولاية لعامة
95	سلطنة عز الدين ايبك
96	الخطر الايوبي والصليبي
97	نويس التاسع واستغلال فرصة النزاع بين المسلمين
98	تردد السفارات بين ملوك مصر والشتم ونويس التاسع
100	معركة بين المماليك والايوبيين
101	تحالف مملوكي صليبي
102	الخليفة العباسي وسعيه في الصلح
104	تمرد القبائل العربية ضد المماليك في مصر
108	خطر زملائه الساسك وقتل الفارسي قطاي
112	مقتل الملحن ايبك وشجرة الدر
116	سلطنة علي ابن المعز ثم تولى سيف الدين قطز
120	ترتيب سيف الدين قطز لأمور الداخلية
	الفصل الرابع
123	السبب الاول : معركة عين جالوت الخالدة (انكار المغول)
123	احتلال المغول لبلاد الشام والجزيرة

الصفحة	الموضوع
123	آمد بمواجهة التتار
124	تحدي ميفارقين للتتار
125	مشروع الكامل لمواجهة التتار
125	رد الناصر على مشروع الكامل
127	سقوط ميفارقين واستشهاد الكامل
132	السطن الناصر بين السقاوسة والاستسلام
132	رد هولاكو على المنك الناصر
134	استجد الناصر بالمماليك
134	سقوط حلب
136	الاضطرار الى التسليم
136	هدم اسوار المدينة وقلعته و مسجدها
137	غنائم لحناء هولاكو من النصارى
138	موقعة بيبرس البندقارى
139	تسليم دمشق
140	تسليم حماة
141	موقف النصارى في الشام
143	نهاية السلطان الناصر الايوبى
146	المبحث الثانى : مقدمات معركة عين جالوت وسير احداثها
146	احتلال مصر هدف استراتيجى للمغول
147	خطوات سيف الدين قطز لتوحيد النصف الاسلامى
155	رسالة هولاكو الى سيف الدين قطز
159	قتل سفراء هولاكو
162	معركة غزة

المصفحة	الموضوع
165	الاشتباه مع المغول
170	وصول سيف الدين قطز الى دمشق
172	تزييب امور الولايات الشمالية
173	موقف هولاءكو من الهزيمة
176	مقتل سيف الدين قطز
181	الطريق الى عرش المماليك
181	نتائج مقتل قطز
185	رد فعل المغول لمقتل قطز
187	اسباب انتصار المسلمين في عين جالوت
194	الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري
216	الادب والفنون في عهد المماليك
221	من سقوط بغداد (656هـ) إلى مطلع العصر الحديث)
225	الحركة التعليمية في مصر في العصور الوسطى
234	الاستعانة بالعلماء ومشاركتهم
237	صراعات داخل بيت الحكم المغولي
242	نتائج واثار معركة عين جالوت
240	تحرير بلاد الشام من المغول
241	تحقيق الوحدة بين الشام ومصر
242	خمود القوى المناوئة للمماليك
245	انحسار المد المغولي
246	فشل التحالف بين الصليبيين والتتار

الصفحة	الموضوع
246	اضعاف الوجود الصليبي
247	ميلاد دولة المماليك لثنية
248	تطوير الجيش المملوكي وتحديث عتاده وانظمته
249	الحياة العامة تحت حكم المماليك
255	نظام الجيش اثناء حكم المماليك
256	قيادة الجيش المملوكي والسلاطين
258	عادات وتقاليد الجيش المملوكي
265	نظام تشيئة العبيد للمماليك اسلاميا واعدادهم للحرب
267	اجناس المماليك
268	توزيع اقطاعيات على الامراء
271	نظام الحكم ونوع الوزارات اثناء الاحتلال المملوكي
283	كلمات ووظائف كانت موجودة في عصر المماليك
291	النظام العسكري الذي اتبعه العبيد المماليك
294	اشين الاسلامي طريق المماليك للحكم والسياسة
297	التزاع بين الفقهاء والحكام
301	دولة المماليك الجركسية
302	السلطان الظاهر برفوق (784 هـ - 801 هـ)
303	البرقوق وبتجور نك
304	خراب بلاد الشام ودمارها
305	نهاية السلطان الناصر فرج
306	سلطنة السلطان المؤيد شيخ (815 هـ - 824 هـ)
306	سلطنة السلطان الاشرف برسباي (825 هـ - 841 هـ)
308	سلطنة السلطان جقمق (841 هـ - 857 هـ)

الصفحة	الموضوع
308	سلطنة السلطان الأشرف قايتباي (873 هـ - 901 هـ)
309	انتماعب التي واجهت قايتباي
310	تدهور الأحوال وبداية نهاية دولة المماليك
310	سلطنة السلطان الأشرف قنصوه الغوري
312	العثمانيين والمماليك في معركة مرج دابق
312	طومان باي وسقوط نهائي للدولة المملوكية
315	جدول للمسلطين المماليك ، الملوك من المماليك البرجزيون الذين حكموا مصر
321	خصائص عصر المماليك
323	اسباب سقوط الحكم المملوكي على مصر
327	المراجع
345	الفهرس

دولة المماليك البداية والنهاية
رقم الإيداع / 9271
التقييم الدولي 4-008-733-977-978

رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك



1240187
1240187
www.ashraa-alexandria.com

دار التعليم الجامعي

دار التعليم الجامعي
شارع الجمهورية - الإسكندرية
1240187
www.ashraa-alexandria.com